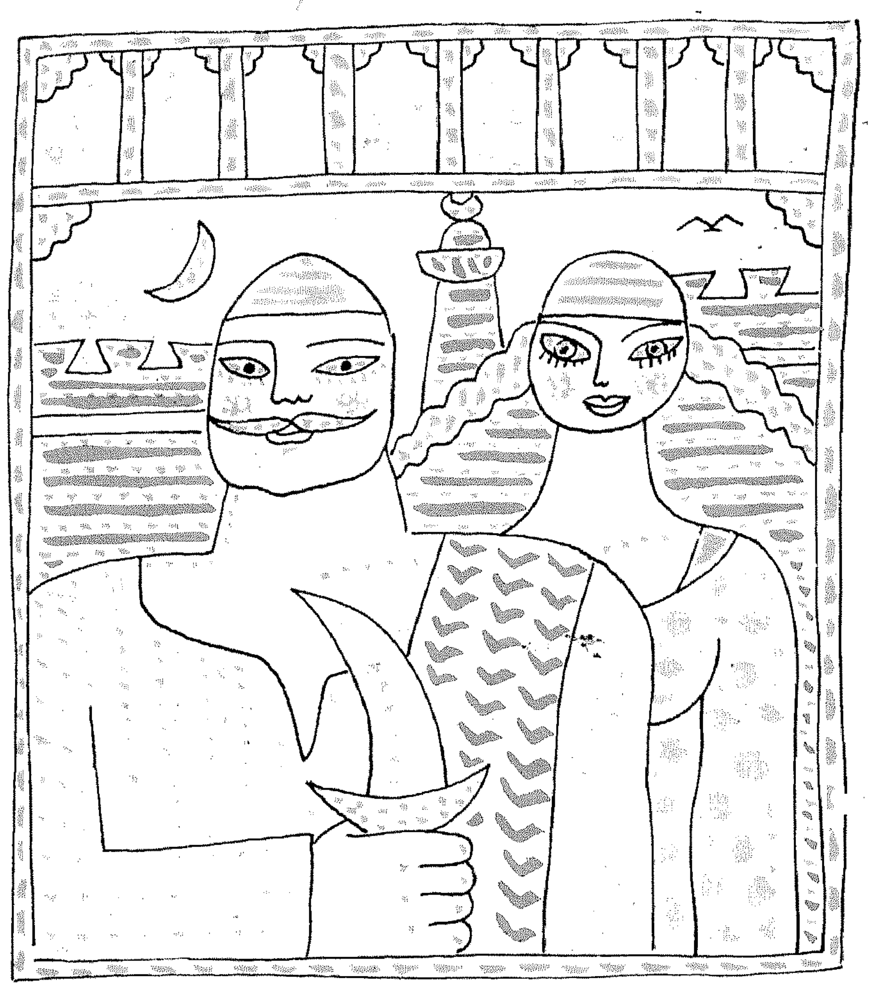
فاروق خورشيد

حفنة من رجال



دار الشروق

حفنة من رجال

طبعة دار الشروق الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE

فاروق خورشيد

حفنة من رجال

دار الشروق

إهـــداء

إلى أخي وصديقي القصاص الفنان
عبد الرحمن فهمي
صاحب المماليك وعبيد الأسى تقديراً ومحبة
فاروق خورشيد

القســم الأول

علــي لــوز

- ١ -

- الله هو ملجأي ونصيري، ليس لي من أشكو إليه غيره، الله وحده هو الذي ينجيني ويحميني، الله وحده هو الذي سيخرجني من هذه المصيبة على خيـر. . .

كان الصوت هامساً، وكأنما كان الشيخ يحي الشماع يناجي ربه وحده، ولا يريد لأحد أن يسمع ما يهمس به. . ولكن ولده كريم الدين كان يسمع هذا الهمس وفي قلبه مثل ما في قلب أبيه من هلع وخوف. . منذ اللحظة التي دخل فيها هذا (الشلبي) إلى الدكان وهو يحس أن اليوم لن ينتهي على خير، وها هي كلمات أبيه الهامسة تؤكد هذا الاحساس، وتؤكد أن أباه أيضاً يخشى هذا (الشلبي) وما يمكن أن يتسبب فيه من مضايقات وتعاسات. . . ارتفع صوت الشيخ محمد الجعيدي يجلجل في ضحكة خشنة انتهت بسعلة هزّت جسده كله، ثم جاء صوته المشروخ مكرراً، ما ظل يقوله منذ دخل الدكان مع الشلبي وجميع أولاد الحسينية:

ـ لم نسمع في حياتنا مثل هذا الصوت يا أشقر. . والله تسمعنا مرةً أخرى يا (ابن الأكابر). . .

وارتفع صوت (الشلبي) الأشقر، فيه تكسر وفيه غنة:

ـ بتسم الله الرحمن الرحيم. . .

وخرجت كل الحاءات خاءات، كما خرجت الهاء خاءاً هي الأخرى، وامتزجت الألفاظ في شيء منكر لا هو عربي، ولا هو أي لغة أخرى. . ولم يتمالك الشيخ يحي الشماع نفسه فصرخ:

ـ يا عالم. . . هذا حرام لا يرضي الخالق ولا المخلوق. .

ومن مدخل الحارة صرخ عبادة وهو يضرب تراب الحارة بعصاته المعقوفة:

ـ يا جعيدي النار حامية يا جعيدي. . تكون نار تصبح رماد لها رب يدبرها. . . مدد يا مبرقعة يا أم الأنوار مدد. . يا رفاعي مـــدد. . .

ثم:

ـ حـــي. .

ممدودة طويلة، كأنها صرخة عذاب لروح مزقتها رماح حرســة النار.

ثم ظهر في مدخل الدكان بقامته الطويلة الرفيعة، وعنقه الممتد في تطلع وقد برزت عروقه ونظرته الثابتة إلى السماء، وذراعه المرفوعة إلى السماء أمالت جسده كله إلى ناحية، وقد وقف كالمصلوب يهتز كأنما تلعب بجسده كله رياح خفية. . . وعاد الشيخ يحي الشماع

يهمس لنفسه:

ـ سبحان الحي القيوم، هو وحده المنجي ولا منجي غيره.

واعتدل الجعيدي في جلسته، ورفع قدماً فوق المقعد، واخذ يسوي جلبابه وهو يقول:

ـ ما هو هذا الحرام الذي لا يرضي الخالق ولا المخلوق يا شيخ يحي يا شماع..؟

ـ أطرش، أم لا تسمع..؟ أينطق أحد كلام الله وهو لا يعرف كيف ينطق الحروف يا جعيدي..؟

ـ صوته جميل وأداؤه عظيم..

ـ سبحان الله... بل أنت أطرش.. ولا تسمع..

ـ بل أنت لا تفهم.. هذا سيدنا قبلق أليس مسلما..؟

ـ سيدك أنت يا جعيدي، أما الإسلام فأمر لا يعرفه غير الله علام ما في القلوب..

ـ وهو من أمراء بيت سيدنا الأمير قوبلاي الذي تتصدر سرايته الحسينية كلها.

ـ الأمر لله وحده يا جعيدي..

وهمس كريم الدين وهو يشد جبة والده:

ـ الحلم يا أبي الحلم

وصاح قبلق في صوته المتموج:

ـ صوتي لا يعجب، فلاح...

وتنهد الشيخ الشماع وهو يتحرك ناحية (النصبة) في عمق الدكان:

ـ لست أتحدث عن صوتك يا شلبي، وإنما أتحدث عن قراءة.

القرآن.. قل بصوتك ما تشاء، ولكنك تلحن في كلام الله، وهذا حرام.

واندفع الجعيدي يقول:

ـ معه المال والنفوذ، وهو من قصر قوبلاي آغا، وسيفه طويل، وهو يريد أن يقرأ القرآن.. فمن يمنعه..؟

ـ لا أحد.. لا أحد.. مالنا وماله.. تعال يا كريم الدين احمل لهم أكواب العرقسوس..

وقال الجعيدي في تشف، وكأنما أرضته نغمة التخاذل في صوت الشيخ الشماع..

ـ كل يلتزم حده، بائع الشربات شربتلي فقط، لا يتدخل في أمور الأمراء والأسياد...

وصاح قبلق:

ـ شلبي، شلبي، هذا الولد لا يفهم، أنا الأمير قبلق من أمراء الأمير قوبلاي آغا..

ولم يتمالك كريم الدين نفسه، فمنذ دخلت هذه المجموعة الدكان وهو يذكر نفسه بما قاله له أبوه منذ سمح له بأن يقف في الدكان.. (نحن هنا يا بني نسمع ولا نسمع، نرى ولا نرى.. وفي كل حال لا نتكلم أبداً.. بل نحن نكسب رزقنا من جلسة الناس عندنا وكلامهم كما يشاؤون، وحديثهم فيما يريدون..).. أما وقد وصل الحديث الى ما وصل إليه فقد وجد نفسه يصيح في الجعيدي في عنف:

ـ اسمع يا محمد يا جعيدي، أبي رجل عالم من علماء الإسلام له

هيبته ووقاره، ولم يدفعه إلى هذه الصناعة إلا أنه فقير الحال، يكتسب رزقه ورزقنا من هذه المهنة. .

وارتفعت ضحكة الجعيدي الخشنة المتحشرجة، ومد ساقيه أمامه، وعدل (طاقيته) على رأسه، ثم صاح:

- يا سيدي على الهيبة والوقار، وهو يدور بأكواب العرقسوس على زبائن الدكان. . .

وملأت نفس كريم الدين الكلمات وكاد يرد، وكاد يندفع ليصفع الجعيدي، لولا أن امتدت يد أبيه الشيخ يحي الشماع لتلمس ساعده، وقال صوته الهامس الهادىء الوقور:

- صدق الجعيدي يا كريم الدين، أحمل هذه الأكواب لهم، فنحن نعيش من سقط متاع العابرين الذين يلمون بهذه الدكان. .

ونظر كريم الدين إلى عيني أبيه الحزينتين البائستين، ومد يديه فأخذ منه الصينية التي تحمل أكواب العرقسوس، وهو يهمس:

- هل السكوت على مثل هذا جزء من الصنعة؟

- نعم يا ولدي

- أمرك يا أبي. .

- هذا ليس أمر أب يا كريم الدين، وإنما هو أمر صاحب الدكان لصبي الدكان

- أمرك يا معلم

- صدقت، أحمل لهم الأكواب، وإياك أن تعارضهم بكلمة. .

- الله كريم، وكل شيء بأمره، ومن هم أمام أمر الله؟

ـ صدقت يا كريم الدين يا ولدي . . فلا ترع . . فالأمر كله بيد الله . .

وصاح (الشلبي) . .

.ـ أين شراب الأخوان . . لماذا تتلكأ يا شربتـلي . . أسرع بالأكواب والحلويات . . . أسرع يا شربتلي . .

وضحك الجعيدي ضحكته السمجة الثقيلة المتطاولة وقال:

ـ أسرع يا كريم . . وأنت يا شيخ يحي . . أين العرقسوس . .

وصاح (الشلبي):

ـ عرقسوس . . يوك . . أين الحلويات . . ؟.

وصاح الجعيدي وهو يعتدل في جلسته ويضرب كفاً بكف:

ـ عرقسوس يوك . . أين الحلويات يا كريم الدين، أسرع بالحلويات يا شيخ يحي الشماع، فلهذا جئنا عندك، أحـلى حلويات . . عند يحي الشماع . . أين على لوز يا شيخ يحي . . . ؟

وهمس الشيخ يحي الشماع:

ـ حتى أنت تقول يوك يا جعيدي، أمرك يا جعيدي، وأمر الشلبي، والأمر لله . .

ثم صـــاح:

ـ أسرع يا كريم الدين للرجال بما يطلبون . .

وتمالك كريم الدين نفسه، وأسرع خلف والده يعد الصفحة وما عليها من شراب، وقال:

ـ العرقسوس يا أحـباب الله . . وحدوه . .

ثم مضى بالصفحة يعرض أكوابه على الرجال المصطفين على

الأرائك بعرض الدكان وطولها، والكل يأخذ كوبه ويرفعه إلى فمه فيشربه أو هو يمتص امتصاصاً، ثم يتجشأ إلا الشلبي. . ما أن امتص من كوبه رشفتين حتى اعاده في غضب وهو يقول بصوته الأملس المنغوم:

ـ هل هذا شراب يا شربتلي. . ؟

ثم رمى الكوب النحاسي إلى الأرض في عنف. . وهب واقفاً ويده فوق (اللت) الحديد الذي كان مركوناً إلى جواره على حائط الدكان. . وصمت كل شيء في الدكان. . وتسمر كريم الدين في مكانه إلى جوار (النصبة) بينما توقفت يد الشيخ يحي الشماع عن ملء طبق العلى لوز الذي كان قد شرع في ملئه. . والتفت الجميع إلى قبلق الذي اغبر وجهه وغادرته كل سمات البراءة، ونفر الدم إلى وجنتيه وعينيه، وبرزت التجاعيد فجأةً إلى جبهته، وأخذ يردد كلمات غاضبة متدافعة مختنقة بلغة لا يعرفها أحد ممن في الدكان. .

وتمالك الشيخ يحي الشماع نفسه فنظر في اتجاه محمد الجعيدي وقال له:

ـ صاحبك يا جعيدي ما الذي أغضبه. . ؟

واتجهت الأبصار إلى محمد الجعيدي الذي بدا مشغولاً بأحكام وضع طاقيته على رأسه، وكأنه لا يحس بما يحدث حوله في الدكان. . ولكن الصمت حوله والأبصار المتعلقة به لم تدع له مجالاً لمزيد من التجاهل، فمد يده يعدل الطاقية للمرة الأخيرة، ثم وقف وتقدم من قبلق، وقال في صوت مرتجف:

ـ يا أمير لم الغضب. . ولم يفعل أحد شيئاً يغضبك. . ؟

واستمرت الكلمات المبهمة الغاضبة تنهال من فم الشلبي الذي تحول ببصره إلى محمد الجعيدي إلى جواره، وبدا أنه يبدل مجهوداً كبيراً ليسيطر على كلماته المندفعة، وأخيراً تمكن أن يخرج كلمات مفهومة وسط هديره الأعجمي..

ـ هذا الشيء السوس الذي قدمه لنا.. هل هو سم.. رغاوي كثيرة، طعم يوك..

وتنهد الشيخ يحي الشماع وهو يضع الطبق فوق المنصة وقال:

ـ أهذا هو الذي أغضبك يا شلبي..؟ هذا شراب طاهر، هذا شفاء.. هذا خمير..

وقال الجعيدي وهو يصطنع ضحكة جوفاء:

ـ هذا شرابنا الذي نحبه يا مولاي الأمير قبلق..

ـ لا يعجبني..

ـ إذن تأكل الحلويات وتنسى أمره..

ـ هذه الحلويات هل هي مثله مرة..؟

ـ لا أبداً..

ثم التفت إلى الشيخ يحي الشماع صائحاً:

ـ أسرع بطبق العلى لوز يا شيخ يحي

ثم ضحك ضحكة جوفاء، ومد يده يشد قبلق من كم ثوبه ليجلسه، ودار المملوك بعينيه فيمن حوله من أبناء الحسينية الذين تبعوه إلى الدكان، فرأى كل الوجوه تبتسم، وكلها تدعوه إلى الجلوس بالنظرة والإيماءة.. فأسند (اللت) مرةً أخرى إلى الجدار

إلى جواره وجلس مشدوداً متنمراً، وعاد الجعيدي يضحك وهو يخبط يديه على فخذيه ويقول:

ـ هذا شراب الملك الصالح المفضل، ولا يشربه إلا من يد ساقيه الخاص الذي يصنعه له بيديه، أحمد الأبتي.. ألا تعرف هذا يا مولاي الأمير..؟

وجال قبلق بعينيه الغاضبتين في الدكان ثم عاد بهما إلى الجعيدي وهو يقول:

ـ أحمد الأبتي شربتلي السلطان..؟

ـ تماماً يا أمير قبلق، السلطان لا يشرب أي شيء إلى من يديه.

ـ والسلطان يشرب هذا العرق سوس..؟

ـ السلطان يشربه خميراً كما شربناه الآن ويشربه مقلاً ساخناً..

ـ ما المقل الساخن يا جعيدي..؟

ـ يصنعه الشيخ يحي الشماع يا مولاي الأمير، فإن شئت طلبناه منه..

ـ مر هو كما شربنا يا جعيدي..؟

ـ ستذوقه حالاً يا مولاي الأمير..

التفت الجعيدي إلى النصبة حيث حمل كريم الدين صحناً كبيراً بيده، ووقف الشيخ يحي الشماع عند النصبة يعيد ترتيب الأكواب والطاسات وصاح:

ـ يا شيخ يحي، أردف لوز بالمقل الساخن للأمير قبلق، وكرامة لنا اتباع الأمير قبلق ومريديه..

ولم يتكلم الشيخ يحي الشماع إنما دفع بطبق العلى لوز و (الملوق) إلى

كريم الدين، الذي حمله واتجه إلى الشلبي، وصاح الشلبي:
ـ ما هذا يا ولد..؟
وقال كريم الدين في هدوء وصبر:
ـ هذا عسل مقلي ومعقود بالنار والبهار والقرفة، مليء باللوز والبندق والملبسات يا شلبي، خذ الملوق وكل ما تريد منه..

ومد قبلق يده فأخذ (الملوق) النحاسي من يد كريم الدين، ودفعه في الطبق أمامه فانغرز في العسل المعقود، وجعل يلفه على اللوز والملبسات، ثم رفعه في حذر إلى فمه وانضمت شفتاه على الملوق، ونزعت أسنانه كل ما على الملوق من عسل ولوز وملبسات، ثم أخرج الملوق من فمه ليسلمه إلى كريم الدين، وقد انبسطت أساريره واختفت كل التجاعيد من جبهته، وبدا عليه السرور الكامل، فغدا أقرب إلى سنه الحقيقي من أي وقت آخر، لم يكن يزيد كثيراً عن كريم الدين الذي مد يده بالملوق مرةً أخرى، واختطفه الشلبي من يده، ومضى يغوص في العسل يديره ويديره ثم يقتنص بطرفه المفلطح أكبر قدر ممكن من اللوز وهو يقول..
ـ ممتع.. شيء ممتع.. عسل، حقاً عسل.. عفارم شيخ يحي عفارم..

ثم غاص الملوق من جديد في فمه المفتوح.. بعد أن نطق كل العينات ألفات، وكل الحاءات خاءات.. وتقدم نحوه الشيخ الشماع بالطاسة النحاسية المملوءة بالمقل الساخن قائلاً:
ـ تذوق هذا لتعرف قدر العرقسوس..
وأمسك الشلبي بالطاسة ومضى يرشف منها في استمتاع ولذة، وكل

الأنظار مصوبة إلى وجهه في ترقب، وحين انفرجت أساريره سرت في الدكان كله آهة ارتياح، وعاد اللغط يدور بين أبناء الحسينية، وامتدت الأيدي إلى الملوق يدور به كريم الدين، والطاسات النحاسية يخرج منها البخار الساخن ويقدمها الشيخ يحي الشماع. .

ومن أمام الدكان صدرت صرخة عبادة، وعصاته المعقوفة تضرب تراب الحاره

ـ يا جعيدي النار حامية يا جعيدي . . تكون نار تصبح رماد لها رب يدبرها . . مدد يا مبرقعة يا أم الأنوار مدد . . مدد يا رفاعي . . مــدد.

ثم . . ـ حـــي . .

طويلة، ممدودة آسيانه، معذبة . . .

والتفت قبلق إلى جعيدي وقال له:

ـ هذا صاحبك ينادي عليك . .

وملأت الضحكة أرجاء الدكان، ومحمد الجعيدي يقول وقد احمر وجهه:

ـ لا يا أمير هذا ليس صاحبي، هذا رجل درويش على باب الله . . يقول كلاماً لا يعرف معناه إلا هو وأمثاله الدراويش . .

ـ ولكنه يقول يا جعيدي النار حامي يا جعيدي . .

ـ كلام دراويش يا أمير قبلق . .

ولا يدري أحد لماذا انقلب فجأةً فعبس وجهه وامتدت يده إلى اللت الحديدي فرفعه وفي قفزتين كان أمام القدر الزجاجي الكبير المملوء بالعرقسوس، وصاح:

ـ عرقسوس يوك، كله حلويات بعد هذا، كله حلويات، كله مقلٍ ساخل.. ثم هوى باللت على القدر النحاسي فإذا به يتهاوى مزقاً وصوت تحطمه وتناثر زجاجه يملأ الحارة كلها.. وصرخ كريم الدين والعرقسوس ينساب كالدم يملأ الدكان كلها، ولطم الشيخ يحي الشماع خديه وهو يصيح:

ـ خراب مستعجل يا أولاد.. ضاع الرسمال وابتلعته الأرض..

ووجم الجميع، وأسرع الجعيدي مرةً أخرى إلى جوار الشلبي الثائر وهو يقول:

ـ يا مولانا.. هذا رجل فقير..

ورفع (الشلبي) اللت في يده فتراجع الجميع، وتضاءل محمد الجعيدي، وقال الشلبي وهو يدير عينيه في الجميع:

ـ فقير لا يصنع عرقسوس أبداً.. يصنع على لوز ومقل ساخن فقط..

وقال الجعيدي:

ـ تمام يا أمير تمام

وناح الشيخ يحي الشماع:

ـ والذي انكسر وانسكب وضاع

وصاح به الجعيدي بصوت غاضب..

ـ عوضك على الله يا شيخ يحي، هذا أمر نفذ..

وهدر الشلبي وهو يدير الكلام في فمه

ـ تمام... أمر ونفذ

وفي صوت باك قال الشيخ يحي:

ـ وثمن ما شربتم وأكلتم يا شلبي..؟

ـ ثمن.. أي ثمن..؟

ـ الملوق والطاسة بجديد واحد، والعرقسوس

ـ أسكت، العرقسوس يوك..

ـ طيب.. والعلى لوز والمقل..

ـ أنا أمير لا أحمل معي جديدات.. غداً يا شربتلي غداً...

واندفع الجعيدي يقول، وهو يقف أمام الشيخ يحي الشماع ويدفعه بكلتا يديه نحو النصبة..

ـ احمد الله.. قال غداً.. يعني غداً.

وهمس واحد من أبناء الحسينية:

ـ جاءت سليمة..

وقال آخـــر:

ـ أمر الله يا ناس..

وكاد كريم الدين يبكي من غير خجل، وهم يتدفقون خارج الدكان، وهو يجمع بقايا الزجاج المتحطم حول النصبة، وقد رفع أبوه يديه إلى السماء في ابتهال صامت، بينما ارتفع صوت عباده من عند باب الدكان يردد في صوت متهدج حزين:

ـ يا جعيدي النار حامية يا جعيدي.. تكون نار تصبح رماد لها رب يدبرها.. مدد ما مبرقعة يا أم الأنوار مدد.. مدد يا رفاعي مـــدد..

ثم..

ـ حـــي . .
طويلة باكية، حزينة تعســة . .

ـ ٢ ـ

أغلقت السيدة (شهوة هانم) نافذة المشربية الضيقة وهي تتنهد، وتلفتت إلى حيث جلس قوبلاي آغا على المقعد المستطيل، وقد أسند مرفقه إلى الحشية إلى جواره وأمسك بقدح القهوة في يده، وقالت:

ـ ضجة وصراخ في حارة على لوز يا أمير قوبلاي . .

ولم يجب قوبلاي، وإنما أخذ يدير القدح في يده في صمت، ونظرة خبيثة ضاحكة تتألق في عينيه، وكانت شهوه هانم تعرف هذه النظرة، فهي لا تبدو في عينيه إلا إذا كان يستمتع بأمر لا يعرف سره إلا هو، أمر يحمل الطرافة له والأذى للآخرين. . وكان لا بد لها أن تعرف هذا السر الذي يستمتع به وحده، ولا تنتظر حتى تسمع أصداءه فيما بعد تحملها لها نساء الحسينية الباكيات اللاتي يلجأن إليها، ويقفن بالأيام أمام باب السراية بملابسهن السـوداء، ووجوههن الباكية لكي تسمع شكاتهن مما فعله بهن آغا الحسينية وصاحب الأمر والنهي في كل شرق المدينة حتى بولاق. . حقاً كان هذا يرضيها ويسعدها، ولكنه كان يغضبها أيضاً، أليست الهانم سيدة السرايه، وسيدة الحسينية كلها، كيف لا تعرف هي قبل أن يعرف الجميع؟ ولكنها كانت تدرك أن قوبلاي لن يتكلم إلا إذا أراد

هو أن يتكلم، وأنه يستمتع بإحساسه بأنها ستحاول أن تعرف، وأنه سيعذبها بحرمانها من أن تعرف أي شيء.. ونظرت إلى وجهه الذي ملأه تعبير ساخر مليء بسعادة داخلية غامرة.. لقد ابتدأ السن يفعل فعله في هذا الوجه، ظهرت التجاعيد وكثرت، وترهلت رقبته بعض الشيء، والشعرات البيضاء بدأت تظهر بكثرة في شاربه. ولكن بريق عينيه ظل كما هو، تلمع فيه أفكاره التي يخفيها لسانه، دائمًا هي تعرف من عينيه كل ما يخفيه عنها من انفعالاته ومشاعره.. وتركت مكانها عند المشربيه وتحركت نحوه وجسدها الملآن يهتز كله، وكانت تعرف أثر هذه المشية عليه، إذ سرعان ما كفت نظرته عن الشرود وتسمرت عيناه عليها وهي تتحرك نحوه.. وابتسمت لنفسها وهي تسوي مجلسها أمام الصينية الكبيرة التي ارتفع (منقد) القهوة عليها، وفوقها (السلاح) النحاسي برائحة القهوة الشهية تنبعث في فتحته الرفيعة عند نهاية لسانه الطويل، ولم ترفع عينيها إليه، وإنما صاحت بصوتها المنغوم المتكسر..

ـ مرجانة... داده مرجانه..

وخرجت مرجانة من وراء الستار التي تعودت دائمًا أن تقبع خلفه، وأسنانها البيضاء تلمع في ابتسامتها الدائمة وسط وجهها الشديد السمرة وقالت في عربيتها المتكسرة:

ـ البخور جاهز يا خانوم..

ـ إذن إملإي القاعة بالبخور. وجددي الفحم، وهات للآغا ما أرسلته أختي فاطمة الأقواسية من حلويات ونقل مع المماليك الذين أرسلتهم لخدمة الأمير.. ولمعت عينا قوبلاي، ولم يفت هذا

اللمعان عين شهوة هانم الصاحية . . فقد التقطته في الحال وأدركت أن أمر السعادة الداخلية التي تملأ قوبلاي نابعة من هؤلاء المماليك الدين أرسلتهم أختها، والذين دخلوا السراية منذ يومين، شباب لا يتعدون العشرين، شقر، حمر، أغبياء وجهلة ولا ذوق عندهم . . لم يعلمهم إحد إن (اللت) لايحمل في حجرة الاستقبال، وان الأنظار ينبغي أن تتجه إلى الأرض حين يخاطبون سيدة المنزل، وأن الأحذية ينبغي أن تمسح جيداً قبل دخول السرايه، وأن الأيدي ينبغي أن تغسل قبل الطعام وبعده . . كانوا مشكلة منذ وصلوا منذ يومين، ولولا ما حملوه معهم من هدايا أختها فاطمة الأقواسية الدمشقية لطردتهم خارج السرايه، ولأمرت الخدم أن يلزموهم أن يبيتوا إلى جوار خيولهم فى الأسطبل، مع السياس والخيول . .

ولكن قوبلاي أمر أن يفتح لهم الجناح الغربي من السراية وأن يجهز لهم كأنهم ضيوف أصحاب حيثية وقيمة، وهو أمر لم يفعله مع غيرهم من المماليك الذين اشتراهم ووظفهم في أعماله المختلفة. فهؤلاء، ما أن يستقر الواحد منهم يوماً في الأسطبل مع جواده، حتى يعين له مكانه المختار في أحد أكشاك حديقة السرايه عند البوابة . . أما هؤلاء فهم حتى الآن، وبعد مرور يومين كاملين ضيوف القصر، يشغلون جناح الضيوف ويحظون بالرعاية التي تقدمها السراية لضيوفها المكرمين . . وأحست أن هذا شيء مهم ينبغي أن تلتفت إليه إذا أرادت أن تفهم اللعبة الجديدة التي يدبرها قوبلاي . . ودخلت مرجانة بالمبخرة تتصاعد منها روائح الند والصندل والبخور والمستكة، واللبان، التي ألقتها مرجانه فيها . .

ومضت تطوف بأرجاء القاعة وهي تلوح بيدها بالمبخرة ذات الأسلاك النحاسية الطويلة. . وهي تتمتم بألفاظها المبهمة التي تعني أنها تدفع العين الشريرة والحاسدة، والشياطين من إبليس إلى أصغر شيطان في قبيلته. . وامتلأت القاعة بالدخان والروائح الزكية الجميلة وأحست شهوة هانم بنفسها تنتعش، وهذه الروائح تملأ رئتيها وجسدها كله. . كانت دائمًا تحس أن البخور يتخللها كلها، جسدها، وروحها معاً، ولكن أروع البخور ما كان بعد حمامها والبلانة تفتح كل خلايا جسدها بما تحك به جلدها من طفل وحجر وليف، ساعتها تشرق الحياة كأنها لحظة ميلاد جديد. . كل جزء من جسدها دلكته (خضرة) بيديها الماهرتين، وحسها المدرب اللبق، كل جزء يرتوي بالماء المعطر، وعبق البخور، وروائح الصابون، وبخار الماء الذي يملأ الحمام كله، وهذه الأصابع المدربة تضغط على كل جزء من جسدها. . فيستريح للضغطة، ويستنيم للرسالة التي تحملها الأصابع المدربة، وهمسات (خضرة) تملأ أذنيها بما يسرها حول جسدها ونعومته وبضاضته وطراوته وجماله. . وغمرها عبق البخور فنسيت نفسها، ونسيت القاعة، ونسيت قوبلاي آغا. . ولكن صيحة قوبلاي أيقظتها من جلستها الحالمة وهو يصرح في مرجانه:

ـ وأين حلويات الشام، وفستق الشام وبندق الشام. . أين ياميش الشام يا مرجانة. . ؟

وتركت مرجانة المبخرة في جانب من القاعة وأسرعت مهرولة إلى الخارج. . وقالت شهوة هانم:

ـ لماذا تصرخ فيها يا قوبلاي آغا، وهي مسكينة، لم تخطيء فيك..

وابتسم قوبلاي وقد ابتدأ لعابه يسيل تحت شاربه، ووضع قدح القهوة فوق (المنقد) وتسمرت نظرته حول جسدها.. وقال:

ـ مرجانة مسكينة، ولكنها تنسى أنني طلبت النقل...

ـ أنا الذي طلبته قوبلاي آغا.

ـ أنا قوبلاي يا هانم..

ـ أنت سيد الأغوات يا قوبلاي آغا..

ـ أنا قوبلاي يا هانم..

وكانت شهوة هانم تعرف معنى هذه النظرة الشرهة في عينيه، كما كانت تعرف معنى هذه الدعوة أن تناديه باسمه مجرداً، ودفعت رأسها إلى الوراء فتموج شعرها الأشقر الكث فوق كتفيها وبدأت نظراته تتمسر فوق ذراعيها وجيدها وصدرها.. وابتسمت ابتسامة ماكرة وهي تقول:

ـ الحرير الدمشقي والحلويات الشامية، والنقل جاءت كلها مع المماليك الجدد الذين أرسلتهم أختي فاطمة إليك من الشام منذ يومين.

ـ قلت هذا من قبل، أختك فاطمة سيدة عظيمة تعرف الأصول.

ـ ولكن هذه أول مرة ترسل لك فيها مماليك يا قوبلاي آغا.

ـ قوبلاي يا هانم..

وقامت تهز جسدها كله لتعدل السنادات حول جلستها، ثم عادت

تجلس تلك الجلسة التي تبرز كل المنحنيات التي في جسدها، والتي تعرف أنها تثيره إلى أقصى حد. . . وسألت من جديد:

ـ لماذا طلبت منها مماليك، وأنت تشتريهم أرخص من الجلاب هنا. .

ـ شهوة هانم. . شهوة هانم. . ليس هذا وقت السؤال عن المماليك. .

ـ وقت ماذا إذن. . ؟

ـ شهوة هانم، هذا وقت الراحة، وقت النقل والمسامرة، وقتك أنت شهوة هانم. .

ـ نحن نتسامر قوبلاي آغا. .

ـ قوبلاي شهوة هانم. .

ـ منظرهم مختلف عن باقي المماليك، وأسماؤهم عجيبة، قبلق، وقيمق، وطقمق هل هم أخوة أو أولاد عم. . ؟

ـ لا أعرف، أنا أردت مماليك أقوياء أذكياء مهرة، لا كأمثال من يأتي بهم الجلاب النصاب الحرامي. . وقلت في نفسي، يا قوبلاي، يا قوبلاي، من الذين يستطيع أن يأتيك بمثل هؤلاء المماليك. . ؟

ـ أختي فاطمة الأقواسية من دمشق. .

ـ تماماً. . أليست هي التي أرسلت بيبرس وأيبك وايدمر. . أنا أريد أمثال هؤلاء. . أقوياء أذكياء، لا يخافون من شيء، ولا يترددون في عمل أي شيء . . .

وضحكت السيدة شهوة ضحكتها المتاودة التي تدفع الدم في عروقه، ومدت يدها تقرصه في ذراعه وهي تقترب منه حتى ملأت رائحتها

المثيرة كل وجوده وقالت. .

ـ بعد آغا الحسينية، قوبلاي آغا، يفكر في أن يكون آغا المحروسة كلها. .

وسلبته المرأة لبه، وجعلته يتخلى عن حذره الطبيعي، ومكره الغريزي، فاندفع يقول متفتح الأدراج، وقد أمال رأسه إلى ناحية، ومد يده تعبث بشعرها:

ـ ذكاء نادر شهوة هانم، ولكن قبل المحروسة لا بد من الحسينية نفسها.

والتفتت إليه في دهشة وهي تقول:

ـ ولكنك آغا الحسينية بالفعل. .

وارتسم على وجهه تعبير مليء بالقسوة، وهو يقول:

ـ آغا الحسينية نعم، ولكن في الحسينية فتوات ومشايخ وتجار وأشراف، و(عياق) لا يعرفون الأدب، ادفع فلاح. . نحن فقراء يا آغا، هات فلاح. . . نحن أشراف يا آغا. . .

أريد خدم فلاح. . نحن تجار يا آغا. .

واحمر وجه شهوة هانم وهي تعتدل في جلستها، وتلتفت إليه بكليتها، وقالت:

ـ يعصون أوامر الأمير قوبلاي آغا. . .؟ مجانين.

ـ نعم مجانين، لا بد من المال لشراء المماليك والخيل والسلاح، لا بد من الهدايا للآغا شاهين وزير السلطان، لا بد من الطرف والمشغولات المصرية لأمير المؤمنين حتى يعرف أن في مصر آغا عظيم يصلح لأن يكون سلطاناً. . من أين كل هذا وهؤلاء ملاعين لا

يعرفون الأدب . .

ـ وقبلق وقيمق وطقمق ، هم الأدب . . ؟

ـ وأي أدب . .

وضحك ضحكةً سعيدةً ممطوطةً وهو يمسك بذراعها ليقربها منه . .

ـ ستتعلم الحسينية الأدب شهوة هانم . .

ـ ويكثر صراخ النساء عند الباب، ويحملن إلي شكاواهن . .

ـ صراخ، لطم، بكاء . . هذا كل ما يعرفه أبناء الحسينية . .

ولكن ما قيمة كل هذا؟ لدي مماليك أقوياء أذكياء لا يخافون ولا يترددون أبداً . .

ودخلت مرجانة حاملة في يدها صفحة مليئة بالنقل، والحلوى، والشراب المعطر فارتسمت علّى شفتي قوبلاي بسمة ارتياح وتوقع وصاح :

ـ أخرجي مرجانة . .

وهرولت مرجانة تخرج من القاعة وتغلق الباب وراءها . . بينما تأودت شهوة هانم وهي تقول:

ـ لا تكن عنيفا هكذا قوبلاي آغا . .

وضمها إليه وهو يقول:

ـ قوبلاي شهوة هانم . .

فابتسمت في متعة، وهي تتكور بين ذراعيه وتقول في دلال:

ـ قوبلاي يا مولاي . . قوبلاي .

- ٣ -

كان يركب الجواد الأبيض الكبير، المزين سرجه بقطع الفضة والمحلى بمشغول الحرير، وهو يطير به فوق القاهرة. في البدء كان يسير به في الحارة، ثم أخذ يجري إلى باب الفتوح، ثم ضرب الأرض بحوافره وحلق فوق البوابة، والناس تتصايح وهم يشيرون إليه، وزينب في المشربية تنظر نحوه وتشير بأصابعها المحناة وهي تظلل عينيها المكحولتين بيدها الأخرى، والحصان يرقص على مزمار عم داود السروجي ويتمايل، وأولاد الحتة فوق الأسطح يصفقون على الوحدة.. وفجأة.. بدأ الحصان يتردد في رقصته، وينزل، ولكزه بساقيه، وشد اللجام بقوة، ولكن الحصان ينزل وينزل والتصفيق يتزايد ويتحول إلى طبل، بل إلى خبط، خبط شديد متواصل. والحصان يتعثر ويقع به من حالق وهو يحاول أن يتشبث بمئذنة الشافعي، أو السيدة، أو الأزهر، ثم وقع فوق المقطم فانكسر المقطم وتمزق وتطايرت أشلاؤه هنا وهناك. وانحدرت صخرة ضخمة فضربته في جبينه، وصاح، وفتح عينيه وهو يصرخ ويغطي عينيه ورأسه بيديه وذراعيه يتقي الأتربة والصخور المتساقطة.

وخبطه شيء من جديد في جبينه، وصاح صوت غريب:

- قم يا كسول، ألا بد أن نكسر الباب لكي تفيق، قم وإلا كسرت جبينك بهذا اللت.

وفتح عينيه فإذا أمامه مارد محمر العينين أشقر في يده لت أطول من المئذنة، وخلفه مجموعة من المردة يلعبون له شواربهم، وعيونهم يخرج منها شرار من نار، وصرخ،

وهو يقفز من فوق كومة التبن التي كان ينام عليها:

ـ يا معلم عقيرب، يا أسطى شلضم، يا عم داود.. عفريت.. عفريت.

ثم سقط على وجهه تحت قدمي المارد وصاحب اللت، الذي رفعه من رقبته، وأوقفه على قدميه ثم صفعه على وجهه صفعةً أرسلته إلى حيث كان يرقد من قبل، والصوت الأجش الغريب يقول:

ـ أخرس يا كلب.. عفريت يأكل لحمك ويفري عظمك..

واصطكت أسنانه، ومات الصرخ في حلقه، وصاح به المارد من جديد..

ـ من أنت.. ماذا تفعل هنا..؟

ولم يجد صوته أول الأمر، ولكن الشرار الذي يقدح من عيني المارد أرغمه على أن يخرج أصواتاً ما، ومن وسطها استطاع المارد أن يسمع صوته الهامس وهو يقول:

ـ أنا صبي الأسطبل..

ـ وأين السياس..؟

وهمس متلعثمًا..

ـ يقيلون بالداخل، في غرفة السياس، من هذا الباب..

ولم يكمل علاء الدين جملته حتى فتح الباب الداخلي للإصطبل، واندفع منه المعلم عقيرب، والأسطى شلضم وعم داود السروجي في سرعة ولهفة، ثم وقفوا جميعاً واجمين أمام المنظر الذي طالعهم داخل الاسطبل.. ذلك (الشلبي) الطويل القامة بوجهه المحمر وشعره الأشقر واللت في يده، ومجموعة أولاد الحسينية الذين

تكاثروا خلفه، وعلى الأرض علاء الدين يرتجف كريشة في مهب الريح.. وهو يتمتم كأن جناً قد مسه فأفقده وعيه وإدراكه.. وتقدم المعلم عقيرب في هدوء إلى داخل الاصطبل وهو يقول:

ـ من الذي كسر هذا الباب..؟

وتقدم المارد إلى أمام فاتحاً صدره وهازاً اللت في يده وقال:

ـ أنا الذي كسرته، ظللت أضرب الباب، وأخبط عليه دون أن يفتح أحد، أو يسمع أحد، فكسرته، وإلا فماذا أفعل لكي أدخل الإصطبل؟

وفي هدوء تقدم الأسطى شلضم بقامته وذقنه المختلطة السواد بالبياض وصوته الهادىء دائماً وقال:

ـ كنت تنتظر حتى يفتح أحد لك الباب يا شلبي..

ـ خبطت الباب بيدي فلم يفتحه أحد، خبطته بقدمي فلم يفتحه أحد، خبطته باللت فلم يفتحه أحد، وقال لي عوض النادي أن أكسره فكسرته..

وقال عم داود السروجي وهو يهز رأسه ذات اليمين وذات الشمال في استنكار:

ـ عوض النادي..؟ وتسمع كلام مثله..

وعاد المعلم عقيرب يقول وهو يتجه إلى الباب المكسور ليتفقده.

ـ عوض النادي لا خير فيه، ومن يتبعونه بلطجية لا صنعة لهم ولا قيمة لهم..

وصاح عوض النادي وهو يقفز أمام الشلبي ويشير بذراعه كله ناحية المعلم عقيرب.

ـ أنا من مشاديد الأمير قيمق يا معلم، هل تستطيع أن تتحدى مشاديد الأمير قيمق؟

وتوقف المعلم عقيرب في سيرته نحو الباب، وجال بنظرة ساخرة بأولاد الحسينية الذين يقفون وراء الشلبي وعوض النادي، ثم التفت بحديثه إلى عوض النادي وقال:

ـ ومن الأمير قيمق يا عوض يا نادي..؟

وصفق عوض النادي بكفيه، ورقص أمام الجميع وهو يصيح:

ـ لا يعرف من الأمير قيمق، لا يعرف، المعلم عقيرب لا يعرف من الأمير قيمق

ونهره الأسطى شلضم بعنف وهو يتقدم نحوه مهدداً

ـ تكلم يا ولد، وكفى رقصاً ومسخرة..

وتراجع عوض إلى الخلف خطوات حتى غدا وراء الشلبي، ثم قال في قحة متعمدة:

ـ الأمير قيمق من سراي الأمير قوبلاي، آغا الحسينيّة يا أسطى شلضم..

وران وجوم على الإسطبل، وسكت كل شيء، حتى الخيل.. كل في خانتها سكنت حركتها، وفاحت في الجوار رائحة الإسطبل الأليفة والدافئة.. مزيج من روث الخيل وعرقها، والتبن والعلف وجلود السروج وقشها التي تحشى به.. وتحرك علاء الدين، فوقف يجيل النظر حوله وهو يتلمس خده حيث هوت صفعة الشلبي.. الحصان الأبيض في مكانه يمضغ علفه في صمت، وهو لم يطر، ولم يغادر مكانه على كومة التبن هنا في الإسطبل، وهذا الشلبي رجل

رفيع طويل أحمر الوجه أشقر الشعر أهبل النظرة، والذي حدث أنهم كسروا الباب أما المقطم فلم يتحطم أو يتناثر أشلاءاً . . وما ضربه في جبينه هو لت هذا الشلبي وليس صخرة ساقطة من المقطم . . وما كان في من مجد ثم تعاسة لم يكن إلا حلمًا أو كابوساً سببه بلا شك أكلة الفتة بالمرق والشطة التي يتقن الأسطى شلضم عملها، ويقبلون جميعاً عليها ابتداءاً من المعلم عقيرب إلى عم داود السروجي، وكل من يتصادف وجوده في الإسطبل من أولاد الحارة ورجالها . . وسمع وكأنما من بعيد صوت المعلم عقيرب وهو يقول:

ـ ضيوف الأمير قوبلاي ضيوفنا . . أهلًا بك يا قيمق في مصر المحروسة، متى وصلت إلى القاهرة . . ؟

وكأنما نسي (الشلبي) اللت الذي في يده، وأولاد الحسينية الذين يقفون وراءه، وعوض النادي، ورقصه أمامه، فإذا به يخفض رأسه ويبتسم ابتسامة هادئة لا شر فيها ويقول:

ـ وصلنا من يومين يا معلم إلى المحروسة . .

وصاح عم داود السروجي بصوته المنغوم الحلو.

ـ محروسة والله محروسة، بأولياء الله، وأهل الله، وحب الله، صلي على النبي . . .

وطأطأ الشلبي رأسه، بينما تراجع عوض النادي، وبتراجعه تراجع من ورائه من فتيان . . وقال الأسطى شلضم:

ـ ولم تكن تستطيع أن تنتظر حتى نفتح لك يا شلبي . . ؟

ورفع الشلبي رأسه ولمعت عيناه، وهز اللت في يده، ونظر إلى من وراءه من أبناء الحسينية ثم صاح في صوت يفتعل الغضب والشغب . .

ـ ليس مثلي من ينتظر يا مصري . .

ونطقها كأنها إهانة ، كأنها سبة ، كأنه إله ، وكأن الناس قذر تحت قدميه ، وصاح علاء الدين ، وقد نسي (القلم) الذي علم على وجنتيه ، والضرب الذي علم في جبينه والرعب الذي ملأ قلبه وهو يفيق من حلمه الغريب على لكزات اللت اللعين . .

ـ ماله المصري يا شلبي . . ؟

وصاح عوض النادي :

ـ جدع ، نحن جدعان الحسينية يا علاء الدين . .

وقال (الشلبي) وهو يحرك عينيه بين من يحيطون به ، وكلهم مصرى . . حتى من معه من أبناء الحسينية مصريون . .

ـ صديقنا يا ابني . . وصديق كل الناس . .

وكان صغيراً لحظتها ، ظهر سنه الحقيقي رغم مظاهر العنف ، وملامح القسوة ، لم يكن يزيد عن سن علاءالدين كثيراً ، وابتسم علاء الدين لنفسه وهو يقول في صوت مليء باللهفة والصداقة . .

ـ وأنت يا شلبي ، ما دمت صديقنا ، لماذا صفعتني بيدك القاسية ، ولماذا لكزاتك باللت الحديد . . ؟

ـ لم تستيقظ على طرقنا على الباب . . فماذا أفعل ، هل ننتظر أن تستيقظ من نومك ، وأن يستيقظ السياس ، كلام غير معقول ، فوراءنا مهمات تنتظرنا ، ولا تحتاج إلى اضاعة وقت . .

وكان المعلم عقيرب قد انتهى من فحص الأضرار التي حدثت بالباب ، فواجه الشلبي ومن معه من أبناء الحسينية ، وعلى شفتيه ابتسامة هادئة ، وقال :

ـ لقد حطمتم الباب تماماً، وهو يحتاج إلى باب جديد، ولكننا كنا سنستيقظ من غير تحطيمه، وعلى كل حال، لماذا جئت إلى هنا يا أمير قيمق يا من أنت منتسب إلى الأمير قوبلاي آغا الحسينية . . ؟

ولم يجد الشلبي في كلمات المعلم عقيرب ما يثيره، نظر حوله فيمن تابعه من أبناء الحسينية الذين أغدق عليهم الدراهم والجديد، فوجدهم جميعاً ينظرون إلى المعلم عقيرب باحترام وخوف، فقال لعوض النادي كأنما يختبره . .

ـ يا عوض، هل لا بد أن أجيبه . . أم هناك من هو أعلى منه أسأله عما أريد من هذا الإسطبل . . ؟

ونظر عوض حوله، فإذا بالمعلم عقيرب ينظر إليه صامتاً، والأسطى شلضم يلعب بيده في شاربه وداود السروجي يهز رأسه كأنما ينعم بسر داخلي لا يعرفه غيره، واستقرت عيناه عند علاء الدين . . وفجأة صهل الجواد الأبيض، وسمعت صوته باقي الجياد، فصهل أكثر من جواد، فتحرك أكثر من حافر يدق الأرض في قلق، وقالت عينا علاء الدين أنه لن ينسى أبداً الصفعة ولا اللكزات التي أصابت جبينه . . لو تحدث الصبي عن هذا لنسي كل من في الإسطبل صبرهم ووقارهم ولأصبح هو، وهو وحده هدف غضبهم، فما كان لغريب أن يتهجم على الإسطبل، وأن يحطم بابه، لولا وجوده هو، عوض النادي، ومن معه من مشاديده من أبناء الحسينية. وهذا الشلبي لا يعرفه جيداً، منذ يومين فقط هبط إلى الحي، ومنذ يومين بدر ماله وذهبه، ولكن أحداً لا يعرف مقدار صموده أمام أمثال عقيرب وشلضم وداود السروجي . . وابتلع ريقه

الجاف، واستجمع كل ما بقي من شجاعته وقال في صوت متخاذل . .

ـ الأمير قيمق فقد صبره أمام طرقه على الباب، وصمت من بالداخل عن اجابته . .

وقال داود السروجي في صوته الناعم:

ـ ولم لم تقل له يا عوض يا نادي أن هذا وقت القيلولة، وأن كل من بالاسطبل نيام حتى الخيل . .

ـ النوم في النهار ضياع للوقت

كان الشلبي ينظر حوله وهو يتكلم، وفي نظراته احساس بالتعالي على هؤلاء الكسالى الذين يضطرونه إلى كسر باب الإسطبل حتى يفيقوا من نومهم . . . وأعادت هذه النظرة إلى عوض النادي ثقته في الشلبي وقدرته فقال:

ـ يا معلم عقيرب، هذا الأمير يريد منك خدمة .

وابتسم المعلم عقيرب وهو يقول في سخرية .

ـ خدمة بالدبوس يا عوض، أم خدمة بالفلوس . . . ؟

وكأنما ضاق الشلبي بكل هذا الحوار الذي لا يكاد يفهم كل ما يدور فيه من كلام، فقال:

ـ اسمع معلم . . أنا أريد سايساً يكون مخصوصاً بخدمتي، حتى إذا ركبت يكون دائمًا معي يعتني بالجواد، والركاب، وأدوات الصيد والسلاح . .

وقال الأسطى شلضم:

ـ تابع يعني . .

ـ وأنا جئت هنا لأعرف أين تباع السياس . . .

ووجم الجميع حتى عوض النادي ، فلم يكن يعرف حين طلب منه الشلبي أن يدله على أحد السياس الكبار ، أنه يريد شراء آدمي ، كاد يتدخل في الحديث ليسكت هذا الشلبي المندفع الذي يكاد يوردهم إلى المهالك ، ولكن قبل أن يفتح فمه بكلمة ، جاء صوت عم داود السروجي هادئاً ، مليئاً بالسخرية يسأل الشلبي :

ـ ماذا تحب يا شلبي . . ؟ ، سايس خشب أم قزاز أم طين . . ؟

ولم ينبس أحد ، وقد أحس الجميع أن عم داود السروجي يتسلى على الشلبي . . وقال الشلبي :

ـ يا رجل أنا أريد سايساً مثلك يتكلم ويمشي . .

وابتسم داود السروجي وهو يقول :

ـ أولاً أنا لست سايساً ، أنا سروجي ، أصنع سروج الخيل والركاب واللجام وثانياً يا شلبي أنا بني آدم مثلك . .

واندفع الشلبي في الحوار دون أن يلتفت إلى تحذيرات عوض النادي الذي أخذ يحاول أن يلفت أنظاره بحركات يديه ووجهه وعينيه :

ـ وأنا أريده من بني آدم . .

وهنا تدخل المعلم عقيرب سائلاً . .

ـ وهل بنو آدم يباعون يا شلبي؟

وعقب الأسطى شلضم قائلاً :

ـ بنو آدم خلقهم الله أحراراً لا يباع منهم إلا العبيد . . .

وبصوت هادىء قال عم داود السروجي

ـ والمماليك يا أسطى شلضم، المماليك أيضاً يباعون.

وقال المعلم عقيرب:

ـ إنما السياس أحرار يا عم داود لا يباعون ولا يشترون.

وضحك الشلبي ضحكة عصبية وهو يتلفت حوله في قلق، وقد أدرك أنهم يسخرون منه، ثم نقل اللت من يد إلى يد، وقال:

ـ يا معلم عقيرب، أنا لما حضرت إلى مصر من بلاد الشام لم أكن أعرف كيف تسير الأمور في مصر، وأنا لم يمض علي يومان هنا، وأنا أردت واحداً يكون سائساً لي وحدي كما يفعل كل الفرسان، فقلت في عقلي أشتري واحداً لا يفارقني أبداً..

وتقدم عوض النادي، وقد وجد في حديث الشلبي تخاذلاً يضعف من موقفه هو، وموقف كل من تبعهما من أبناء الحسينية وقال:

ـ يا أمير قيمق، بالمال يخدمك أي سايس خدمة العبد للسيد..

ـ المال موجود...

ـ المال هو مفتاح كل شيء في مصر، أبدر مالك تجد مطلوبك، وتحصل على نوالك،

ـ حتى السياس يا عوض يا نادي..

ـ حتى السياس يا أمير قيمق..

ـ وهذا الكلام الذي يقوله المعلم عقيرب..

ـ كلام يا أمير، كلام من كلام أولاد مصر، الذين يبيعون كل شيء ويشترونه بالكلام...

وصاح الأسطى شلضم:

ـ اخرس يا ولد.. من أنت تتكلم عنا كلنا، أنت عبد الدرهم، تجري وراء كل من يكفل لك حتى اللقمة والمزاج.. مثلك يتحدث عن نفسه فقط..

وارتفع صوت عوض النادي صارخاً وهو يقول:

ـ يا أسطى شلضم لو خرجت لي أريتك قيمة كلامك، وقيمة نفسك..

وجاء صوت عم داود السروجي الهادىء مقاطعاً اندفاع عوض وهو يقول:

ـ من أنت يا عوض يا نادي، أمك ما زالت تجلس عند مدخل حارة (على لوز) وأمامها سبت فوقه بعض قطع قصب السكر والليمون الفاسد، والحلوى التي يقف عليها الذباب، وأبوك يا عوض يا نادي، يحمل العصاة الطويلة المغطاة بالبفتة البيضاء وفوقها الأجراس، ويدور في الموالد، وبين المقابر، صائحاً حلاوة زمان يا ولاد، عصفور حصان للولد..

وبرز علاء الدين من بين الأقدام وهو يصيح:

ـ أنا أشتري منه حلاوة زمان، عصفور حصان..

وتقدم عوض النادي فصفعه، وأسرع عقيرب يضرب عوض النادي بيده فوق وجهه، واندفع أولاد الحسينية فلوح لهم عم داود السروجي بالمذراة المدببة الأطراف، فتراجعوا إلى وراء، وصرخ الشلبي وهو يرفع اللت في يده وقد تطاير الشرر من عينيه، فدفعه الأسطى شلضم فسقط فوق أولاد الحسينية الذين يقفون وراءه،

وسقط الجميع كومة ككومة تبن تلقى على جانب الإسطبل، وصهل الحصان الأبيض، واندفع علاء الدين يصرخ ملء فيه:

- الشلبي ضربني على وجهي، وضربني في جنبي، وعوض ضربني على وجهي، هذه ناس مفترية.. عياق لا يعرفون الله ولا الرحمة، وهاهم كومة جميعهم ومعهم الشلبي، الأحمر الوجه، مارداً كان حين استيقظت ولكنه لا شيء الآن كومة من ثياب ولحم وصراخ...

ومد يده إلى جواره فأمسك بالعصا المعقوفة التي يستعملها الأسطى، شلضم في تقليم حوافر الخيل، وهجم عليهم وهو يصرخ:

- أغراب ملاعين، مشاديد ملاعين، عياق ملاعين، كفانا منكم ومن كلامكم وتبجحكم..

وحاول عم داود أن يمنعه فدفعه واندفع نحو الكومة التي أخذت تصارع لكي يقف كل منهم على قدميه، ووقف الشلبي بصعوبة فوق قدميه، واندفع الأسطى شلضم يحاول أن يمسك بعلاء الدين، وخرج عوض النادي من وسط الكومة وهو يصرخ:

- نحن هنا حتى على الصبيان، لا بد من تأديبك يا علاء الدين يا بن حفيظة.

وصرخ علاء الدين

- لا تنطق اسم أمي يا كلب..

وصهل الحصان الأبيض، وأخذ يموج داخل مكانه محاولاً أن يمزق القيد الذي يربطه بالمرود، وصرخ المعلم عقيرب.

- ارجع يا علاء الدين..

ولكن علاء الدين رفع العصا المعقوفة في يده واندفع نحو عوض النادي، ولكن الشلبي كان هو الذي تلقى الضربة فوق اللت فأبطلها، ثم رفع اللت في يده، وصرخ داود السروجي، وكسر الحصان الأبيض قيده وانطلق وسطهم، وصاح الشلبي صيحة القتال ثم هوى باللت الحديد فوق رأس الصبي . . ووسط السكون المفاجيء ارتفع صوت تحطم جمجة الصبي تحت وقع اللت الحديد، واندفع الحصان الأبيض خارجاً من الإسطبل، وقفز الأسطى شلضم فوق الشلبي فأوقعه هو واللت الحديد إلى الأرض، وتدفق الدم مختلطاً بمزق العظام والمخ، وبكى المعلم عقيرب، وهاج داود وسطهم بالمذراة المدببة الأطراف، وصاح عوض النادي.

ـ مات الولد . . .

ومن بعيد جاء صهيل الحصان الأبيض، وصرخة عباده من وسط الحارة.

ـ يا جعيدي النار حامية يا جعيدي . .

وصرخ داود السروجي . .

ـ علاء الدين تمزقت رأسه . . مات . . .

وعباده يصرخ من وسط الحارة

ـ تكون نار تصبح رماد لها رب يدبرها . . .

وبكاء الأسطى شلضم . .

ـ يا عيني عليك يا علاء . .

وصوت عباده الروتيني الصارخ المخيف:

ـ مدد يا مبرقعة يا أم الأنوار . . . يا رفاعي مدد . .

وصياح عوض النادي.

ـ أسرعوا بنا من هنا، لو تجمع علينا الناس قتلونا..

وصرخات وضربات، واللت سقط من يد الشلبي، والكل يهرول ناحية الباب المكسور وصوت المعلم عقيرب يصيح.

ـ فداك روحي يا علاء الدين..

ويلطم عم داود حول جثة علاء الدين الملقاة فوق الإسطبل وهو يصرخ..

ـ ضاع الولد.. ضاع الولد يا ناس.. ضاع الولد

وصيحة عباده الطويلة المعذبة الحزينة من وسط الحارة

ـ حسي

وأخذ الجميع يعدون وأمامهم قيمق يحمل (لته) الدامي في يده ووراءه عوض النادي يتعثر في جلبابه الطويل، وباقي أبناء الحسينية يتدافعون وقد أحسوا جميعاً بالفاجعة المخيفة التي حدثت..

وتحرك الحصان الأبيض بعلاء الدين من فوق أرض الحارة إلى سماء القاهرة، وصفق أبناء الحارة وناحوا... ولوحت زينب بيدها المحناة وبكت دموعاً دامية، والحصان يلعب على وقع التصفيق والنداء. ويهتز ويهتز، وعلاء الدين يعلو ويعلو... ومن بعيد تأتي إليه أصوات الإسطبل والحارة، وحي الحسينية، وأصوات القاهرة كلها.. ومضى الحصان الأبيض بعلاء الدين وهو يتحرك نحو مئذنة الإمام الشافعي، ثم السيدة، ثم الأزهر، ثم يخبط المقطم ليتحطم صخره وتتثال حجارته كلها من حوله...

* * *

وبكى المعلم عقيرب والجسد الصغير يدخل وسط الحفرة في مدافن الإمام . . .

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون . .

وناحت أم علاء الدين، وملأ صوتها المقبرة، وكل ما حولها، وأخذ كريم الدين ينظر إلى الجسد الذي يختفي في الحفرة ويبكي في صمت، بينما قال الأسطى شلضم . . .

ـ دمه في رقبة الشلبي . . .

وعاد صوت أم علاء الدين يملأ المقبرة والرجال يهيلون التراب فوق الحفرة الصغيرة وعاد كريم الدين يبكي في حرقة، وصوت عم داود السروجي يقول في خفوت وقوة:

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون . .

وصاح التربـــي:

ـ وحـــدوه . .

ومن بعيد صهيل الحصان الأبيض، وبكاء رجال لم يجدوا في الدموع ما يخفف سخطهم، وشهقات صبي ضاع صاحبه، وكريم الدين ينظر كالمذهول ولا يتحرك ، والتربي يصرخ:

ـ وحـــدوه . .

وعند حافة المقبرة وقف عباده يصيح في صوت أســيان . . .

ـ يا جعيدي النار حامية يا جعيدي . . .

ويرتفع صوات النساء مختلطاً بنشيج الرجال، وأصوات تقرأ القرآن في رتابة وإصرار، وصهيل حصان من بعيد . .

ـ تكون نار تصبح رماد لها رب يدبرها . .

ويبكي المعلم عقيرب ويشرق بدموعه، ويهمس

ـ لا إله إلا الله.. إنا إلى الله وإليه راجعون...

ويهمس الأسطى شلضم بين شهقات دموعه

ـ ضيعنا الولد.. لأننا خفنا من الشلبي...

ويعود صوت عباده يملأ المقبرة والمكان كله صائحاً...

ـ مدد يا مبرقعة يا أم ا لأنوار... مـــدد

وتصرخ أم علاء الدين، وتصرخ جاراتها في صوات يهز المكان كله، ويعود صوت عباده:

ـ يا رفاعي مـــدد..

.ويردد عم داود السروجي:

ـ يا أولاد الحسينية يا أولاد الحسينية، يومكم قريب، والله أعلى، الله أعظم، هو القادر فوق كل قادر، هو القوي فوق كل قوي... ليس لنا إلا هو... نقول يا رب..

ومن وسط المقابر يندفع صوت عباده بكلمته الدائمة:

ـ حـــي..

ممدودة طويلة.. معذبة..

والصراخ، والتراب ينهال، والحصان الأبيض يسقط من حالق، والمقطم يتمزق وينهال تراباً، وصخوراً تملأ القبر... والصمت يحيط بعلاء الدين ثم لا شيء إلا الصمت...

ـ ٤ ـ

ملأ صوات حفيظة الحارة كلها.. وحمل الرجال الجسد الممزق

الرأس إلى المندرة في أسفل بيت المناديلي حيث تسكن حفيظة وأولادها ودجاجها وبطها، وتفرق البط والدجاج مذعورة هائمة، والرجال يضعون الجسد عند حافة المندرة، وفي وسط الحوش، وصاحت أم فكيهة..

- يا ولداه، في زهر الصبا يا ولدي...

وتركت الست نعيمة الأوزة التي كانت تمسكها تحت فخذها لتلقمها حبات الذرة، فاندفعت الأوزة تكاكي وسط الجميع، بينما ظلت الست نعيمة شاخصة البصر في بلاهة إلى المشهد المخيف الذي يتكون في وسط الدار... ونزلت زينب مهرولة من الدور العلوي وهي تصرخ صراخاً هستيرياً لا معنى له.. وارتفع صوت الشيخ زكي الهادىء وسط جميع النساء ويقول:

- وحــدوه.. لا إلة إلا الله.. سبحانه الحي الدائم...

وتذكرت أم فكيهة أنها تركت (المحشي) على الكانون يغلي، وهو يكاد ينضج فأسرعت إلى داخل المندرة لكي تطفىء النار ولا يتلف (المحشي)... وحفيظة تهيل التراب على وجهها ورأسها وجسدها وتصرخ...

- ولدي.. ولدي.. قتله الشلبي، ولدي ولدي خصيمي الشلبي خصيمي الشلبي.. أقاضيه يوم القيامة، أمام القاضي العادل، أمام الله...

ثم صوتت، فصوتت وراءها كل نساء الدار.. وأخذت زينب تلطم خديها وهي تقف أمام جثة علاء الدين... ولم تكن تدري ماذا تفعل، فلم يكن علاء الدين إلا أحد الصبيان الذين لا يرفعون

أبصارهم عنها أبداً، وهي تبتسم لهم كلهم ومنهم علاء الدين، ولكنه كان أكثرهم جمالاً بشعره المجعد، وابتسامته العذبة وحركاته الهادئة، وكان أكثرهم رقةً في حديثه وفي لفتاته، أبداً لم يقل كلمة نابية، وأبداً لم يتحرك حركةً تنفرها منه، كما فعل عليوة يوم انفرد بها عند الفرن، وأبو سريع عندما هجم عليها وهي نائمة على سطح الدار. . أبداً لم يفعل علاء الدين أي شيء من هذا ، بل هو كان ينظر إليها وحسب، وفي عينيه شيء غريب ملتهب ولكنه نقي أبداً . . وها هي نظراته تختفي إلى الأبد، وها هي عيناه تنطفئان إلى الأبد . . واندفعت الدموع إلى عينيها فغامت الرؤى، ولم تعد ترى من كل ما حولها شيئاً إلا وجه علاء الدين وسط غلالة الدموع وستارها المتكاثف. . . وأحست أن النظرات تتجه نحوها. . وتراقبها وهي تبكي فانخرطت في بكاء متشنج عنيف، وصاحت الست حفيظة وهي تحتضنها في شغف. . .

ـ حبيبة يا ابنتي حبيبة. . ياما كان في نفسي أن يكبر ويتزوجك. . . أحعلى البنات لأحلى الشبان. . .

وأحست زينب بالخجل ولكنها أيضاً أحست بالزهو، فها هي أم علاء الدين نفسها تعرف أنه كان لها. . . ولها وحدها. . وأن نظراته وكلماته كلها لها . . . وأمه كانت ستوافق، وأمها صديقتها وتحبها. . . وعلاء الدين كان أحسن من في الدوار من صبيان، بل كان أحسن من في حارة على لوز كلها من فتيان، وكان سيصبح أحسن من في الحسينية كلها من جدعان. . وتلبس الطرحة التل. . وأمه تزغرد وعم داود السروجي يغني وسط صهبة الرجال. .

والدفوف تدوي والزغاريد. . واندفعت النساء في صوات حـاد . .
قطع أفكار زينب وأعادها إلى دنيا الحوش، حيث وصل حماد الحانوطي ووراءه صبيه زغلة فحملا الجثة المسجاة إلى داخل المندرة حيث سيتم الغسل والصوات يتعالى ويشتد، ويتعالى ويشتد. .
واندفع الشيخ زكي وفي يده مبخرة يطلق البخور في صحن الدار. .
وحول المندرة وهو يصيح:

ـ الله أكبر. . . الله أكبر. . . إنا لله وإنا إليه راجعون. . أذكروا الله، أذكروا الله. . .

وجفت الدموع في عيني زينب، فقد أحست أن يداً حديدية تقبض على قلبها وتعصره عصراً وقد تسمرت عيناها على وجه الست حفيظة أم علاء الدين. . هل يمكن أن يتجسد الحزن كله في هذا الوجه المتقلص المليء بالفجيعة والأسى إلى هذا الحد. . . وجه تجمد على معنى ألم لا يطاق، ورفعت عينيها إلى رأسها وأحست بالدهشة حين رأت الشعرات البيضاء التي ظهرت من تحت (الطرحة) التي سترت بها الست حفيظة رأسها. . تكاد تقسم أن هذه الشعرات البيضاء لم تكن موجودة بالأمس، ولا منذ ساعات فقط، ولكن ها هي موجودة وواضحة وتحتها هذه النظرة الصارخة باليأس والمرارة، وهمست الشفتان المتقلصتان

ـ ولـدي. . ولـدي. . قتله الشلبي. . ولـدي ولـدي. . .
خصيمي الشلبي، خصيمي الشلبي أقاضيه يوم القيامة أمام القاضي العادل، أمام الله. .

وانهارت تبكي في حرقة. . بينما اقترب منها الشيخ زكي وفي يده

المبخرة يهزها ويقول:
ـ وحدي الله، إنه قدر الله يا أم علاء...
وصرخت كأنها لسعتها عقرب..
ـ علاء راح، يا ولداه، في زهر الصبا يا ولداه..
ولم تستطع زينب أن تكتم دموعها، فانهارت تبكي إلى جوارها.. والشيخ زكي يبسمل ويحوقل وهو يدور في فناء الدوار ويردد..
ـ لا حول ولا قوة إلا بالله... لا حول ولا قوة إلا بالله...

* * *

منعوا النساء عند حدود المقابر، ولكنهن وقفن عند حافة (القرافة) يهلن التراب فوق رؤسهن ويصرخن، وقد ملأت الست حفيظة (طرحتها) ووجهها وشعرها بالنيلة، وغدا صراخها عويلاً، وحركة يديها بطيئة، الذعر في عينيها مخيفاً، وتضاءلت زينب إلى جوارها تنظر إليها في ذعر، وفي تعاسة، وهي تصرخ لصراخها وتبكي لبكائها...
وحين خرج الرجال من المقابر من غير علاء الدين تشنجت الست حفيظة وانهارت واضطر الرجال إلى حملها حملاً، وأسرع الأسطى شلضم يستعير حماراً من السوق ويضع عليه الست حفيظة، وتبعه يسوقونه وسطهم إلى الحسينية وحارة على لوز الحزينة وقد ابتدأت الشمس تصفر وهي تحتضر عند حافة الصحراء، ثم تكتسي بلون العذاب الأحمر وتذوب داخلةً قطعةً قطعة، وليس في

قلب واحد من العائدين منكسي الرؤوس إلا الإحساس بالفجيعة والمرارة واليأس. .

- ٥ -

مد الأسطى رجب يده بالمناشف إلى حميد الدين وهو يقول:

- أسرع بهم إلى القاعة يا حميد الدين فالحاج محمد أبو الأنوار أوشك أن يخرج من المغطس وأسوي أنا المخدات على المصطبة، وقل لسيد الأعرج أن يخرج من الكرار الصابون الجديد فقد نفد كل ما في المغطس من صابون. . .

وهرول حميد الدين يحمل المناشف إلى المغطس لتلقاه موجة من البخار ورائحة الصابون والعرق والبخور، وتلفحه حرارة الحجرة المغلقة المليئة بالماء الساخن يملأ المغطس حتى الحافة، وصاح وكأنما يخشى أن يحجب البخار الذي يملأ الحجرة صوته:

- يا حاج محمد يا أبو الأنوار. . يا حاج محمد. .

ومن وسط البخار تحرك رأس نحوه، ولم تكن بالرأس شعرة واحدة، كانت تلمع فوقه قطرات الماء وسط النور الضعيف الذي يأتي من الفانوسين المعلقين إلى الحائطين المتقابلين يرسلان ذبذبات ضوء ضعيفة لا تكاد تخترق حجب البخار. . . ثم ظهرت وراء الرأس كورة ضخمة كان حميد الدين يعرف أنها بطن الحاج أبي الأنوار، وقال صوت أجش. . .

- مالك يا حميد الدين. .

- المناشف يا حاج. .

وبدأ الحاج يسعل بشدة ، فلوح بيده، وأخذ يقترب من حافة المغطس في بطء وهو يلمس بقدميه العاريتين أرض المغطس الصخرية الحارة في حذر. . وظهر إلى جواره رأس مغطى بمنشفة معتمة اللون، ويصق صاحب الوجه الماء المتجمع في فمه، وقال:

ـ أخرج معك يا حاج محمد فإني أحس بالجوع، فهذا المغطس يغسلني من الداخل ومن الخارج معاً. .

وعرف حميد الدين صوت المعلم عقيرب، وتعجب كيف يجوع بعد أن دفن في مغرب اليوم صبيه علاء الدين، وهو الذي كان يحبه كإبنه. . ولكن المعلم عقيرب رجل لا ككل الرجال، صلب كالصخر، لا يهتز لشيء، ولا يترك لشيء أن يجرفه في تياره. . . وصاح المعلم عقيرب:

ـ يا حميد الدين، هل معك مناشف تكفينا معاً. . ؟

فقال حميد الدين:

ـ نعم يا معلم. .

وكان الحاج محمد أبو الأنوار قد وصل إلى حافة المغطس، وأخذ يصعد في حذر حتى وقف كله عند الحافة الصخرية وقدماه تتلمسان مكان (القباقيب) الخشبية، حتى عثرت على قبقاب فلبسه وهو واقف، وبدأ بخار المغطس ينقشع من حوله تدريجياً فمد حميد الدين يده إليه بالمناشف وهو يقول:

ـ نعيمًا يا حاج. .

قال الحاج وهو يلف وسطه بمنشفة بيضاء ناصعة:

ـ أنعم الله عليك يا حميد الدين، هل (الفطير) جاهز يا ولد. . ؟

ـ طبعاً يا حاج . . والأسطى رجب يعد لك المساند والعلى لوز والقرفة والفطير والعنب والماء الممزوج بالماء ورد، طلبك كله يا حاج . .
وقال المعلم عقيرب وهو يخرج من المغطس بدوره، ويأخذ منشفة من حميد الدين يغطي بها نصفه الأسفل:
ـ وكنت تريد أن يفوتني كل هذا يا حاج . .
قال الحاج أبو الأنوار، وهو يلف (بشكيراً) ضخماً حول بطنه المترهلة:
ـ الخير كتير يا معلم عقيرب، ولا يحلو الطعام إلا مع الندماء . . .
قال عقيرب، وهو يمد يده إلى حميد الدين يأخذ المنشفة الثانية:
ـ أنت أبو الكرم يا حاج محمد يا أبو الأنوار . . .
ولف نصفه العلوي بها، ومد يده ينزع المنشفة الصغيرة التي تحيط رأسه والتي بللها الماء والبخار، ورمى بها إلى جوار المناشف المستعملة على جانب المغطس وقال لحميد الدين وهو يتحسس (قبقاباً) خشبياً يدخل فيه قدميه:
ـ منشفة صغيرة يا حميد الدين يا ولدي . . .

وأحب حميد الدين لهجة المعلم عقيرب الحانية، كلهم يعاملونه كأنه قطعة من الحمام، دون أهتمام أو حب، هات (اللوفة) يا حميد الدين، كثير من الماء الساخن يا حميد الدين، أين الطاسة يا حميد الدين، المناشف يا ولد . . . أسرع وهات الفطير من عند المعلم سعيد الفطاطري، أو أين الماء المعطر بالماء ورد يا حميد . . ألم يرسل

الشيخ يحي الشماع العرقسوس. . . أنا طلبت منه طبق على لوز الليلة، أسرع قبل أن يغلق الدكان يا حميد. . ولد. . (القبقاب) سيره مقطوع، حميد الماء برد، هل الكلب سيد الأعرج نام، أم ماذا؟ أين معلمك يا حميد الدين، هذا لم يعد حمام الأسطى رجب المناشفي، هذا مستوقد فقط، نعم مستوقد فقط. . ولكن المعلم عقيرب شيء آخر. . وأحس في هذه اللحظة لماذا كان علاء الدين يحبه ويتحدث عنه دائمًا كأنه بطل أسطوري. . . وحين تذكر اسم علاء الدين ملأت عينيه دموع كادت تطفر. . الآن يرقد علاء الدين تحت التراب، وسط التراب، وتزحف نحو جسده الهوام ثم يأكله الدود. . . أم لعله الآن يواجه الملكين، كل يمسك نبوتاً، لعله (لتاً) كذلك الذي أمسكه (الشلبي) الذي حطم الاناء الزجاجي الكبير للعرقسوس في الصباح في دكان الشيخ يحي الشماع، أو كذلك الذي حطم رأس علاء الدين عصراً في إسطبل المعلم عقيرب فأسكنه القبر قبل أن يكتمل النهار. . وسمع وكأنما من بعيد صوت الحاج محمد أبو الأنوار وهو يقول:

ـ يا حميد منشفة الرأس يا ولد. .

وأفاق حميد الدين على صوته الآمر، ومد يده ينتقي منشفة صغيرة يقدمها إلى الحاج محمد أبو الأنوار وهو يهمس:

ـ تحت أمرك يا حاج. .

فالحاج هو صاحب أكبر تجارة في حارة على لوز، وكلمته هي التي تسمع في كل الحارة، بل أن كلمته تسمع في الحسينية كلها، وهو وحده الذي يستطيع أن يدخل السراية على قوبلاي آغا ليحمل له

شكاوى الحسينية من مظالم رجال قوبلاي وعسفهم، ولكن الحسينية كلها تعرف أن «زلع» السمن والعسل، و (أشولة) الفول والعدس والسكر، تخرج من مخازن الحاج محمد أبو الأنوار إلى السراي رأساً، في كل أسبوع، وكل مناسبة، وكل عيد.. وقال الحاج وهو يلف المنشفة الصغيرة حول صلعته المنداة بالماء والبخار...

ـ من يجلس في المصطبة يا ولد..؟

وقال حميد الدين في أدب:

ـ الشيخ يحي الشماع..

وقال المعلم عقيرب:

ـ الشيخ يحي خسر اليوم إناء العرقسوس الكبير بما فيه..

وضحك الحاج أبو الأنوار فاهتزت بطنه تحت المنشفة وهو يقول:

ـ وخسر ايراد الدكان ليوم كامل، فهذا الشلبي لن يعطيه دانقاً

فأطرق المعلم عقيرب برأسه وهو يقول:

ـ ما يجيء في الريش بقشيش يا حاج، أما خسارتي أنا في علاء الدين فلا تعوض

وفارقت الضحكة شفتي الحاج محمد أبو الأنوار، وهو يقول في صوت جاد:

ـ خسارة حارة على لوز اليوم لم تحدث من قبل أبداً...

وغادر الإثنان حجرة المغطس إلى قاعة المصطبة، بينما صاح حميد الدين في الرأسين الأخرين الذين كانا يبرزان وسط دخان المغطس..

ـ هل ستخرج الآن يا عليوه . . وأنت يا أبا سريع . .
وجاء صوت عليوه حزيناً أسياناً :

ـ أتركنا في حالنا يا حميد الدين . . سنخرج وقت ما نخرج . . .
وقال أبو سريع :

ـ لن يسمح لنا الأسطى رجب المناشفي أن نجلس مع الأكابر . . مالنا نحن وجلسة الحاج أبو الأنوار والمعلم عقيرب ، والشيخ يحي الشماع . . اتركنا في حالنا يا حميد الدين . .

وهز حميد الدين كتفيه ، ووضع المناشف على المصطبة البعيدة إلى جوار الباب وهو يقول :

ـ المناشف النظيفة عندكم ،وسأحضر لكم الصابون الجديد بعد قليل . .

وعندما غادر حميد الدين المغطس ، قال أبو سريع وهو يخرج من الماء ويجلس على الحافة الحجرية :
ـ ضاع والله علاء الدين يا عليوة . .

وخرج عليوة ليجلس إلى جواره وهو يقول :
ـ نحن نعمل كل شيء ولا يصيبنا شيء ، وهذا الوديع الحالم ينزل على رأسه لت هذا الشلبي المجنون . .

ـ الغلطة غلطة عوض النادي والحثالة التي تسير وراءه . . لو لم يذهبوا بهذا الشلبي إلى الإسطبل وفي عز القيلولة ما حدث ما حدث . .

وساد الصمت بينهم لحظات والبخار يتصاعد من المغطس يغلفهما، وقد غرق كل منهما في أفكاره، ثم تنهد أبو سريع وهو يهز ساقيه في الماء الساخن وقال في بطء:

ـ لم أبك في حياتي كما بكيت، حتى عندما مات أبي لم أبكه كما بكيت علاء الدين..

وخرج عليوة من صمته ليقول:

ـ لقد خرجت الحارة كلها وراءه اليوم، الرجال والنساء على السواء...

ورفع أبو سريعَ رأسه فجأة وهو يقول:

ـ هل رأيت زينب وكيف كانت تحتضن الخالة حفيظة كأنها هي الأم والخالة حفيظة هي الابنة..

ـ لم أكن أعرف أن زينب تحب علاء الدين كل هذا الحب...

تنهد أبو سريع وهو يقول:

ـ كلنا كنا نحب علاءالدين يا عليوة..

ـ ولكن زينب

ـ مالها زينب.. أصيلة وبنت ناس، وما فعلته اليوم في المحزنة والجنازة جعلها تكبر في نظري كثيراً.. فعلاء الدين مات وراح ومع هذا فقد أعلنت تعلقها به كما لم تعلنه له هو نفسه في حياته، ولا يفعل هذا إلا أبناء الأصول..

ـ صدقت، فما كنت أنظر إلى وجهها وهي تلطم خديها إلا وبكيت، لو أخته ما فعلت هذا أبداً

ـ منذ اليوم هي أختنا كلنا يا عليوة، ومن اقترب منها بسوء، أو

حاول أن يضايقها فلن يتصدى له سواي . .
ـ وسواي يا أبا سريع . .

* * *

رشف الحاج أبو الأنوار رشفة من كوب القرفة الساخنة ، وقال وهو يعتدل في جلسته على المصطبة وهو يعدل بيده التي لا تمسك الكوب، المنشفة التي أدارها حول رأسه :
ـ لم نرك من زمن يا شيخ يحي يا شماع
أطرق الشيخ الشماع وكأنما يحاول أن يختار الألفاظ التي يرد بها على ملحوظة الحاج أبو الأنوار، ثم رفع رأسه وقال:
ـ مشاغل يا حاج . .
وقال الأسطى رجب المناشفي وهو يصب قدحاً من القرفة يمد به يده إلى المعلم عقيرب :
ـ أصبحت الأيام صعبة يا حاج . .
ورشف المعلم عقيرب رشفةً من القرفة ثم قال:
ـ كأننا آخر زمن يا ناس . . . كل شيء يرتفع ثمنه من يوم إلى يوم ، وهؤلاء الشلبية معهم نقود ولا تنتهي ، يشترون كل شيء بكل سعر وبأي سعر . . .
وضحك الحاج أبو الأنوار وهو يقول:

ـ كله مكسب لك يا معلم عقيرب ، فهم يحبون الخيول أكثر من حبهم لأي شيء آخر في الحياة . . . وما يخسره الشلبي يكسبه السايس . .

ـ الرزق على الله يا حاج، وبهم وبغيرهم كانت الحياة تسير، وما يأتي النسيم يأخذه الريح، فكأننا لا رحنا ولا جينا. .

وتنحنح الشيخ يحي الشماع وهو يتدخل في الحديث قائلاً:

ـ ما كان في رمضان الماضي بجديد أصبح اليوم بعشرة، ومن يوم ليوم وكل شيء يزيد.

وتدخل الأسطى رجب المناشفي قائلاً وهو يستريح في جلسته إلى جوارهم:

ـ الذي زاد وغطى أن الصبيان لم يعودوا يرضون بما كنا ندفعه لهم من أجور، فلم يتعب نفسه طول النهار في العمل والعرق، وهو يستطيع أن يسير في ركاب أي شلبي عاطلاً عن أي عمل ويحصل على أجر أعلى من كل ما يمكن أن يعطيه أي واحد فينا. . .

وقال المعلم عقيرب في مرارة:

ـ هذا غير ما يحصلون عليه بالخطف والنهب في ركاب الشلبية. .

اعتدل الحاج محمد أبو الأنوار في جلسته ووضع قدح القرفة الخالي إلى جواره وهو يقول:

ـ الغلطة غلطتكم، فهؤلاء الأولاد لم يجدوا من يربيهم. .

ثم قطع حديثه ليلتفت إلى الأسطى رجب المناشفي قائلاً:

ـ أين الفطير الساخن يا أسطى رجب. .؟

وهب الأسطى رجب من جلسته وهو يصيح:

حميد الدين، أين الفطير والعلى لوز يا ولد. .؟

وهرول حميد الدين من جلسته فوق الدكة عند باب الحمام، وأسرع يحضر لفة الفطائر ويفردها فوق صينية ويسرع بها إلى

المصطبة وهو يقول:

ـ ما زال الفطير ساخناً يا أسطى . . لحظة واحدة وأسرع بالعلى لوز الذي أحضره سيدي الشيخ يحي الشماع . .

وابتسم الشيخ يحي الشماع وهو يقول لحميد الدين وعلى فمه ابتسامة شكر:

ـ لا سيد لنا إلا الله يا حميد الدين يا أبني، أسرع وأحضر العلى لوز لعله يعجب الحاج محمد أبو الأنوار . . فقد صنعته ومزاجي غير رائق من حادثة الشلبي النحس هذا الصباح . . .

واستدار الحاج محمد أبو الأنوار في غضب حقيقي ناحية الشيخ يحي الشماع وقال في رنة حادة مرتفعة:

ـ يا شيخ يحي، ما حدث لك مجرد حادثة، وما حدث للمعلم عقيرب، والغلام المسكين علاءالدين مجرد حادثة، المسائل ليست بهذا السوء . . . هذا كلام يدسه عملاء الفرنجة بيننا ليفرقوا صفوف المسلمين، أما الحقيقة فهي أننا نحتاج لكل (شلبي) جديد، فهو يحمينا، ويحمي مالنا من المعتدين الآتين من الغرب . . ألستم مسلمين . . ؟

ووجم الجميع، وانسحب حميد الدين في صمت ليحضر العلى لوز، بينما مد الحاج محمد أبو الأنوار يده إلى صينية الفطائر، فمزق فطيرة بيديه، ثم كور نصف فطيرة كاملة ودفعها إلى فمه والعسل والسكر يتساقط منها، وقد مد يداً تحت اليد التي تحمل نصف الفطيرة إلى فمه يتلقى ما يتساقط من عسل وسكر ونقل، وما أن اختفت نصف الفطيرة في فمه المنفوخ حتى مد يده الأخرى إلى فمه

بما يتساقط فيها. . من عسل وسكر ونقل. . ومسح يديه في المنشفة التي تحيط نصفه الأسفل، وعينا الأسطى رجب المناشفي تتعقب يديه في ألم وضيق. . وقال المعلم عقيرب. .

ـ كلنا مسلمون وموحدون بالله يا حاج محمد، ولكن أفعال الشلبية ليست لا في شرع ولا في سنة. .

وعقب الشيخ يحي الشماع بسرعة:

ـ وهل من الشرع أو السنة أن يكسر الشلبي وعاء العرقسوس ويضيع العرقسوس وهو نعمة من نعم الله في الأرض، ويضيع مكسب اليوم كله، يحضر هو ومجموعة من مشاديده ممن لا عمل لهم فيأكلون ويشربون ويخرجون دون دانق واحد. .

وأكمل المعلم عقيرب حديثه بقوله:

ـ وهل من الشرع أو السنة أن يحطم الشلبي باب الأسطبل دون سبب، وفي عز القيلولة فإذا ما اعترضه علاء الدين مزق رأسه بضربة من اللت، هل علاء الدين من الفرنجة أم هل هو من الفرنجة. . .

وبينما كانت عينا الحاج محمد أبو الأنوار ترسل شواظاً من لهب، كان فمه ملآناً بالفطير يمضغه ويبتلعه في سرعة، تحرك حميد الدين من أول الحوش وهو يقول في عنف وألم:

ـ مزقوا رأس علاء الدين، واليوم دفنوه، وكل حارة على لوز تبكيه، وهل هذا من الإسلام والدين ـ حرام. . حرام. . كل ما تقولونه. . . حرام . . حرام. .

وابتلع الحاج محمد أبو الأنوار ما في فمه من فطير بصعوبة ثم صاح:

ـ أخرس يا ولد . . أبعدوا هذا الصبي من هنا . . ما الذي أدخله في حديث الكبار؟

وقال الأسطى رجب المناشفي :

ـ أخرج من هنا يا حميد الدين، وأسرع إلى المستوقد وقل لسيد الأعرج يخرج الصابون الجديد، وأسرع إلى المغطس . .

ووقف حميد الدين عند الباب في عناد، وهو يتمتم لنفسه كلمات غاضبة، ولكن الحاج أبو الأنوار تجاهل وجوده، واتجه إلى من حوله وهو يقول :

ـ البلد تواجه الأعداء، ولا مجال لكل هذا الكلام الذي لا معنى له . . أعداء الإسلام يقفون على الأبواب ولا بد من حربهم، وقد علمت من السراي أنهم يتوقعون هجوم هؤلاء الأعداء على مصر المحروسة بين لحظة وأخرى، وساعتها هل سينفعنا حميد الدين أو علاء الدين أو أمثالهما . . لا، لا بد من الجنود والمقاتلين الذين يفهمون في صنعة الحرب والقتال . . . أليس كذلك يا معلم عقيرب . . ؟

قال :

ـ والله يا حاج . .

ثم أرتج عليه وسكت . .

وتنحنح الشيخ يحي الشماع، واستجمع شجاعته، ثم قال :

ـ الحرب على الثغور يا حاج لا في حواري الحسينية . .

وصاح الحاج وهو يمد يده يكور نصف الفطيرة الساخنة في يده . .

ـ الحرب في كل مكان، وكل مكان وقت الحرب يجب أن يكون

في خدمة الحرب وهذا الكلام الذي أسمعه منكم دسه عليكم الفرنجة أو الخونة . .

وصاح الأسطى رجب المناشفي :

ـ خونة يا حاج . . ؟ . . وهل بيننا من يخون الإسلام يا حاج . . ؟

ورفع الحاج الكرة المسكرة في يده ودفعها إلى فمه ومضى يمضغ في هدوء . . . والكل ينظر إليه في صمت، وهو يمضغ في استمتاع، ثم أخذ يبتلع الفطيرة على مهل، وكأنما لذ له أن يستمع أيضاً بتوقعهم لاجابته، وصمتهم انتظاراً لحديثه . . وفي وسط هذا الصمت تسلل حمد الدين إلى خارج الحمام . . وأحس بهواء الليل يملأ رئتيه فتنفس في ارتياح، ثم أسرع نحو المستوقد أسفل الحمام، وهو يصيح :

ـ يا سيد يا أعرج يا سيد يا أعرج . .

ولم يلحظ أحد ممن جلسوا فوق المصطبة خروجه، ولم يسمع أحد صياحه، فقد ظل الجميع ينظرون إلى الحاج أبو الأنوار، وهو يمضغ ويبتلع، ويمضغ ويبتلع، وكأنما تسمرت نظراتهم فوق وجهه المكتنز وفكيه العريضتين والعرق المتصبب فوق جبينه وفوق خديه . . كانوا يعرفون جميعاً أن كلامه صدى لكلام السراية، ولكن أحداً منهم لم يكن يستطيع أن يجهر بهذا الحديث، ولكن أحداً منهم أيضاً لم يكن يستغني عن علاقته بالحاج محمد، فهو صاحب النفوذ والسطوة والمال. وأخيراً ابتلع الحاج أبو الأنوار ما بين شدقيه من فطائر، فتجشأ وقال :

ـ أين الماء المعطر بماء الورد يا أسطى رجب يا مناشفي . . ؟

وصاح الأسطى رجب:

ـ يا حميد الدين.. يا حميد.. يا ولد..

ولم يرد عليه أحد، فقد كان حميد الدين في أسفل الحمام يبحث عن سيد الأعرج، وقال الشيخ يحي الشماع:

ـ لعله مشغول بشيء يا أسطى.. هذه (قلة) مليئة بالماء عند ناحية الجدار هاتها للحاج.. حتى يأتي حميد الدين..

وغضب الحاج وصاح:

ـ الكلب لم يأت بالماء المعطر بماء الورد، يجب أن يؤدب، أسمعت يا أسطى رجب يا مناشفي؟ أين الماء المعطر بالورد..؟ واضطرب الأسطى رجب، ولكنه لمح القارورة المملوءة بالماء المعطر على (رف) بجوار المصطبة فأسرع يحملها إلى الحاج أبي الأنوار وهو يقول:

ـ الولد عذره معه، فالماء هنا، خذ يا حاج..

وملأ له قدحاً مترعاً من الماء المعطر بالماء ورد، ثم التفت إلى الآخرين قائلاً:

ـ هل يريد أحدكم ماءاً معطراً..؟

وأطرق الآخران في صمت، فوضع القارورة أمامه، وأطرق برأسه في صمت، ولم يحس الحاج محمد أبو الأنوار بما دار حوله، إنما أخذ يجرع الماء في استمتاع، ثم تجشأ من جديد ووضع القدح إلى جوراه وهو يقول:

ـ الحال عال، والأسعار ترتفع، ونحن نكسب، وما كان بالأمس

رخيصاً أصبح غالياً ونادراً، والربح جيد، فماذا يريد هؤلاء الكلاب؟

استجمع الشيخ يحي الشماع نفسه، ثم قال:

ـ ولكنك تحدثت عن الأفرنج والخونة يا حاج. .

قال الحاج وهو يتحسس بطنه العريضة من خلال المنشفة الضخمة التي أحاطها بها. .

ـ وهو كلام واضح يا شيخ يحي يا شماع، أما الافرنج فلهم جواسيس عندنا يدسون الكلام حتى ننقلب على الشلبية ونكرههم، والشلبية هم الذين يدافعون عنا وعن حمانا وإسلامنا وأوطاننا، أما الخونة يا شيخ يحي يا شماع فهم الحاقدون، وهم الذين يكرهون لابن البلد أن يثرى وأن يصبح صاحب أموال وضياع، وهم الذين يعترضون على أحكام الله، فالله أراد أن يكون الناس درجات ولكل صنعته ورزقه. .

ويسمل الشيخ يحي الشماع وحوقل، وتضاءل في جلسته، وهو يقول:

ـ اللهم لا اعتراض على حكمك وأمرك. .

وقال المعلم عقيرب في مرارة:

ـ ليس في الحسينية لا خونة ولا افرنج يا حاج محمد، فنحن جميعاً نعيش في الحي منذ طفولتنا، وكل واحد منا يعرف أصل كل واحد وفصله. . فمن أين يندس الافرنج أو الخونة. .؟

وابتسم الحاج محمد ابتسامة الرضا، وهو يجيل نظراته في الجالسين حوله، وقد أحس أنه ألزمهم الحجة، وأن أحداً لم يعد يعارض له

كلمة ثم قال في تؤدة:

ـ يجب أن نحذر الكلام، حقاً كلنا نعرف كل أولاد الحسينية فرداً فرداً، ولكن هناك أغراب يدخلون إلى المقاهي والمحلات ويقولون كلاماً مسموماً، فيلتقطه السذج من أبناء الحسينية ويرددونه، وهذا هو الغلط..

تنهد الأسطى رجب المناشفي.

ـ ألم أقل لكم الأيام أصبحت صعبة، حتى السماع بحساب، وحتى الكلام بحساب

فضحك الحاج محمد وهو يقول للأسطى رجب:

ـ أين العلى لوز..؟

وقبل أن يتحرك الأسطى رجب من مجلسه لاحضار الطبق، اقتحم عليهم القاعة حميد الدين وقد ارتسم الرعب على وجهه وهو يصيح:

ـ الشلبي يا أسطى رجب، الشلبي يا معلم عقيرب.. أين أختبىء.. سيقتلني كما قتل علاء الدين..

وهب الجميع واقفين في اضطراب، وسقط كوب زجاجي على الأرض فتحطم محدثاً صوتاً مزعجاً، بينما ظهر عند مدخل القاعة شاب أشقر كث الشارب، وفي يده اللت الحديد، وخلفه الشيخ محمد الجعيدي، وعوض النادي، ثم مجموعة من أبناء الحسينية ينظرون حولهم في توفز ووقاحة، وأشار الشيخ محمد الجعيدي بيده وهو يقول:

ـ هذا يا أمير طقمق هو الشيخ يحي الشماع الشربتلي الذي اشتكى منه الأمير قبلق..

وانتفض الشيخ يحي الشماع وهو يندفع صارخاً في الجعيدي:

ـ حد الله بيني وبينك يا جعيدي.. أنا لم أر هذا الشلبي ولا رآني من قبل، وليس هو الشلبي الذي كسر إناء العرقسوس في الصباح..

وارتسمت على وجه الجعيدي ابتسامة كئيبة ولم يرد، وبينما اندفع عوض النادي يشير بيده إلى المعلم عقيرب وهو يقول في شماتة:

ـ وهذا يا أمير طقمق هو المعلم عقيرب السايس الذي اشتكى منه الأمير قيمق..

وضرب المعلم عقيرب كفاً بكف، وهو يقول للشلبي:

ـ هل تعرفني يا شلبي.. هل رأيتك من قبل..؟

ولم يرد عليه الشلبي وإنما أشار باللت وهو يقول لمن وراءه:

ـ جروهم إلى السراية ومن اعترض منهم كسرت رقبته باللت...

واندفع أولاد الحسينية يمسكون بالشيخ يحي الشماع المذهول.. والمعلم عقيرب الذي حاول أن يقاوم فتكاثروا عليه، وصاح حميد الدين:

ـ آه يا عوض النحس.. أين تهرب من غضب الله..

وصاح عوض النادي.

ـ أخرس يا ولد..

وتصدى له الأسطى رجب المناشفي وهو يقول:

ـ أما كفاك أن تسببت في قتل علاء الدين اتق الله واسكت

أشار الشلبي باللت وقال:

ـ خذوهما إلى السراي

وصاح الشيخ يحي الشماع:

ـ مظاليم يا عالم. . يكسر إناء العرقسوس ويهرب بما شرب وهو ومن معه ثم يشتكي وأساق أنا إلى السراية. .

وصاح الشلبي وهو يهز اللت:

ـ أخرس فلاح. . .

وقال المعلم عقيرب، وأبناء الحسينية يمسكون ذراعيه ويديه وجسده كله:

ـ نلبس ملابسنا يا عالم، نخرج في الحارة بالبشاكير. . .

وصاح الحاج محمد أبو الأنوار، وهو يتقدم نحو الشلبي:

ـ هذا لا يجوز يا أمير، أترك الرجال يلبسون ملابسهم ثم خذهم إلى السراي بعد هذا. .

وصاح فيه الشلبي:

ـ من أنت حتى تخبرني بما أفعل. . ؟

وشد محمد الجعيدي كم الشلبي وهمس في إذنه، فاحمر وجهه، وقال:

ـ ليس عندي أوامر بشأن الحاج محمد أو حاج علي، أبعد عن طريقي، ولا يقف أحد أمامي وإلا كان لي كلام آخر. .

وتنهد الحاج محمد أبو الأنوار، وهو يتراجع ويقول:

ـ غداً سأقابل الآغا لأشرح له الحقيقة يا شيخ يحي فلا تخشى شيئاً. .

وصاح الشيخ يحي:

ـ وأخرج وسط الحارة بالبشاكير يا حاج..

وقال عقيرب:

ـ هانت الرجال والله في الحسينية..

وقال الأسطى رجب..

ـ خذوا معكم الملابس لترتدوها هناك...

فالتفت إليه الشلبي صائحاً:

ـ وأنت يا حمامي

ـ ماذا يا شلبي؟

ـ تغلق هذا الحمام ولا تفتحه إلا بأمر من السراي، وسأمر بعد ساعة لو وجدت فيه ناراً أو نوراً أو إنساناً حطمته وسويته لك بالأرض..

ـ ولكن هذا خراب ديار يا شلبي..

ـ أخرس فلاح.

وقال الحاج محمد أبو الأنوار وهو يلم المناشف حوله في صعوبة..

ـ الصباح رباح يا أسطى رجب، لن يرضى قوبلاي آغا بهذا فهو رجل عادل، والشلبي لا ذنب له فهو ينفذ الأوامر..

وصاح الشيخ يحي الشماع في يأس:

ـ ألن تأتي معنا إلى السراي يا حاج..؟

وتلفت الحاج أبو الأنوار حوله وعيناه لا تلتقيان بأي عين من العيون الشاخصة إليه، وقال وهو يطرق إلى الأرض:

ـ بعد صلاة الفجر مباشرة سأكون عند آغا الحسينية يا شيخ

يحي، توكل على الله . .

ورفع الشيخ يحي الشماع كفه إلى السماء، وهم يدفعونه بغلظة إلى خارج الحمام وصاح:

ـ حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل

أما المعلم عقيرب فقد التفت إلى من أمسكوا به وهو يقول:

ـ سأسير وحدي، ارفعوا أيديكم

ورفع الجميع أيديهم وهم يطأطئون رؤوسهم، ولم يفت هنا الشلبي فقال:

ـ سر أمامي أنت يا سايس . .

والتفت إلى الأسطى رجب قائلاً:

ـ ساعة واحدة يا حمامي . . ساعة واحدة . .

واتجه الحاج محمد أبو الأنوار إلى حيث علقت ملابسه فجعل يرتديها بسرعة، وقد خلت القاعة إلا منه ومن الأسطى رجب وحميد الدين، وقال الأسطى رجب دون أن ينظر إليه:

ـ أسرع يا حميد الدين وأخبر سيد الأعرج أن يطفىء النار ثم تعال نخلي المغطس ونرفع المناشف والمساند، قبل أن يخرب هذا الشلبي الملعون بيتنا . .

وقال الحاج أبو الأنوار:

ـ يا أسطى رجب يا مناشفي، في الصباح ستعود بإذن الله إلى فتح الحمام فلا تقلق.

ولم يرد الأسطى رجب، بينما خرجت كلمات حميد الدين متعثرة مذعورة . .

ـ كانوا سيقتلونني كما قتلوا علاء الدين . .

وصاح فيه الحاج محمد أبو الأنوار وهو يسوي جلبابه الفضفاض:

ـ أخرس يا ولد، وإياك أن تجري تحكي الحكاية في الحارة لكل من هب ودب . .

وفي مرارة قال الأسطى رجب:

ـ يا حاج محمد يا أبو الأنوار، ليس مثل ما حدث يمكن أن يكتم عن أحد، لا بد أن الحارة كلها قد عرفت كل ما حدث . . .

فصاح الحاج محمد أبو الأنوار وهو ينقل قدميه من (القبقاب) إلى (المداس) اللامع . .

ـ هذا هو الكلام الفارغ . . هذه الحارة تريد أن تؤذي نفسها . . ألا يكفي ما حدث حتى الآن . .

ثم خرج وجسده الضخم المترهل يهتز كله . . وقال حميد الدين . .

ـ يا أسطى رجب . . لماذا يغضب الحاج محمد أبو الأنوار من كلام الحارة، ولا يغضب مما فعله الشلبية بأهل الحارة . .

وهز الأسطى رجب المناشفي رأسه في حيرة، ودعك كفيه بعضهما ببعض وهو يقول:

ـ أمر ذلك عند ربي . . من يدري . . الناس أسرار يا حميد الدين . . الناس أسرار يا حميد الدين . . .

* * *

قال أبو سريع وهو يخرج من المغطس، ويتجه إلى ناحية المناشف التي وضعها حميد الدين إلى جوار باب المغطس:

ـ من يصدق هذا، لولا أنني سمعت كل شيء بأذني لظننت أنني أحلم . .
وحبط عليوة بيده على حافة المغطس حيث يجلس وقال:
ـ وظللنا هنا كالفئران المحبوسة لا ننطق بل ولا نتنفس، ما المسألة يا أبا سريع هل فقدنا رجولتنا لنختبيء هكذا في المغطس والشلبي يسوق الشيخ يحي الشماع، والمعلم عقيرب بمناشف الحمام إلى السراي؟
وقذف أبو سريع المناشف التي كانت في يده إلى الأرض، وقال:
ـ وماذا كنا نستطيع أن نفعل أنا وأنت وقد عجز المعلم عقيرب نفسه عن مواجهتهم وكان معه الأسطى رجب والحاج أبو الأنوار . .
وضحك عليوة ضحكة كئيبة وهو يقول:
ـ هذا الحاج أبو الأنوار، دنيا غريبة لم أفهمها . .
ـ ولا أنا . . ولا الأسطى رجب المناشفي ألم تسمع اجابته على سؤال حميد الدين . .
ـ كاد حميد الدين يضيع كما ضاع علاء الدين . . وكنا سنمشي في جنازته في الصباح، هؤلاء الشلبية لا تهمهم حياة الناس . .
قال أبو سريع . . وهو يتناول جلبابه المعلق على مسمار في الحائط:
ـ ولا أقدار الناس
وصرخ عليوة، هو يسرع ناحية أبي سريع:
ـ يخرجون الشيخ يحي الشماع والمعلم عقيرب عرايا في الحارة . .
قال أبو سريع وهو يضع يده على كتف عليوة.

ـ أهدأ يا عليوة. . فهذه بداية شيء جديد ستعيشه الحسينية كلها، وقد بدأ في حارة على لوز، ولكنه سيعم على الحسينية كلها. .
وصمت عليوة في وجوم وهو يحملق في وجه أبي سريع، وقد بدأ البخار المتصاعد من المغطس يقل ويتضاءل:
ـ ماذا تعني يا أبا سريع. .؟
ـ عند الشيخ يحي الشماع، قبلق، وعند المعلم عقيرب قيمق، وعند الأسطى رجب المناشفي طقمق. .
ـ هذا صحيح، وكلهم لم يظهروا في حارة على لوز إلا اليوم. .
ـ ومن اليوم لن ينسى أحداً أسماءهم أبداً، فما جاء بهم قوبلاي آغا إلا لأنه يريد بالحارة وبالحسينية كلها أمراً يبيته، وشيئاً يرسمه ويقدره. .
ومد عليوة يده إلى جلبابه يرتديه، وهو ينظر في بلاهة إلى أبي سريع ويقول:
ـ بعض الأحيان تقول ما لا أفهمه، وهذه المرة أنا لا أفهم شيئاً. .
واكمل أبو سريع ارتداء ملابسه وهو يقول:

ـ الأمر واضح، ونحن أولاد الحسينية لسنا أغبياء. . لم يأت قوبلاي آغا بهؤلاء الشلبية إلا لأنه يريد أمراً بالحسينية. . . وكل ما فعلوه طوال هذا اليوم معناه أنهم يريدون إذلال الحارة، وتغيير كل ما تعودنا عليه من قبل، فلا الناس هم الناس، ولا التجار هم التجار، ولا العياق هم العياق، وإنما هو يريد أن يبتلع كل شيء، وأن يسكت كل صوت، ألم تسمع كلام الحاج أبي الأنوار. .لا، هذه المسألة لم تنته وإنما هي تبدأ. .

قال عليوة وهو ينتهي من ارتداء ملابسه:

ـ تبدأ، تنتهي.. ما دورنا نحن يا أبا سريع..

ـ وهل نملك شيئاً، كل أمورنا في أيدي غيرنا.. الآغا، والشلبية، وأبو الأنوار وأمثاله..

ـ وهل نسكت..؟

ـ الحل في أيدينا يا عليوه، هل تعرف الشيخ زكي..

ـ الذي يسكن في دوار المناديلي حيث كان يسكن علاء الدين..

ـ تماماً، عنده في المندرة، بعد صلاة العصر نلتقي أنت وأنا، ولنجد حميد الدين وكريم الدين ليكونوا معنا..

ـ وماذا سنفعل هناك..؟

ـ لا شيء، فقط نلتقي، فالشلبية من نفس أعمارنا، وليسوا أكبر منا ولا أشجع منا، ولا أقوى منا..

ـ هذا حق...

ـ إذن نلتقي ونفكر ماذا سنستطيع أن نفعل في أمر ما يحدث للحسينية ولحارة على لوز.. هيا بنا..

وحين خرجا كانت النسمات في الحارة رطبة وهادئة.. ووقفا لحظات في الظلام يتأملان الحارة الممتدة أمامها، وقال أبو سريع:

ـ كيف تنام الحارة الليلة بعد كا ما حدث في هذا اليوم المقيت..

قال عليوة، وهو يرقب بعض الأنوار تضيء في بيوت متفرقة:

ـ لست أظن الكل نياماً يا أبا سريع..

قال أبو سريع:

ـ هذه ليلة لن تنام فيها حارة على لوز، بل هي ليلة لن تنام بعدها أبداً . .

وفجأةً، ومن وسط الظلام انبعث صوت عبادة، لا يدري أحد أين هو، ولا من أين صدر، فقط كان يملأ ظلام الحارة كلها وهو يصيح :

ـ يا جعيدي النار حامية يا جعيدي . . تكون نار . . تصبح رماد لها رب يدبرها . .

وهمس عليوة في خوف

ـ عبادة يا أبا سريع . .

وهمس أبو سريع . .

ـ أسكت يا عليوة . . هو يعرف، مكشوف عنه الحجاب . .

وجاء صوت عبادة من جديد :

ـ مدد يا مبرقعة يا أم الأنوار . . يا رفاعي مدد . . .

ثم ساد الصمت حارة على لوز لحظات، انطلق بعدها صوت عباده صارخاً في أسى ومرارة :

ـ حسـي . . .

* * *

القســم الثانــي

الفرنجــه

ضربت شهوه هانم كفاً مخضبةً بكف، وقالت وهي تمصمص بشفتيها الملونتين:

ـ كل هذا حدث في يوم واحد يا فكيهة..

وسوت فكيهة جلبابها الاسود تحتها وهي تعتدل في جلستها إلى جوار (شلتة) الهانم أمام (المنقد) في وسط القاعة وقالت:

ـ كله يا هانم كله.. والشيخ يحي الشماع في الحبس، والمعلم عقيرب معه..

وعدلت شهوة هانم السلاح فوق الفحم وهي تقول:

ـ قوبلاي آغا لا يعلم شيئاً عن هذا كله، هم المماليك الجدد، جاءوا بكل عنجهية فملأوا الحارة بقسوتهم وغلظتهم، والآغا لا يعرف كل ما يفعلونه..

ومصمصت فكيهة بشفتيها وعدلت شالها الأسود وهي تقول:

ـ لا يصدق أحد في الحارة كلها هذا، يا ست هانم، الحارة كلها

لم تنم أمس ،فالصوات في بيت علاء الدين، والهم في بيت الشيخ يحي الشماع، والزجال في بيت المعلم عقيرب يتجمعون طول الليل. . هذا حال أسود لا يقدر عليه أحد. .

واعتدلت شهوه هانم في جلستها، وهي تمسك السلاح، وتصب لنفسها قدحاً من القهوة دون أن تعرض على جليستها مثله، ولما امتلأ القدح، امسكته بيده ا البضة الطرية، وأدارته في يدها، ثم زوت ما بين حاجبيها وهي تقول في صوت هادىء:

ـ الرجال يتجمعون يا فكيهة. .

ـ وهل سمع أحد مثل هذا من قبل، الشلبي يكسر إناء العرقسوس، ويشرب ويأكل العلى لوز هو ومن معه ثم يخرج بلا دانق، ثم يشتكي للآغا، فيرسل شلبي آخر ليقبض على من انكسر اناؤه، ومن خسر عرق نهاره. . والشلبي يدخل الإسطبل فيكسر الباب، ويهين الرجال ويقتل علاء الدين، يا عيني عليك يا علاء الدين كان درة صبيان الحارة، وقرة عين كل نساء الحارة، ثم يشتكي. . القاتل يشتكي، هل سمع أحد مثل هذا أبداً. . القاتل يشتكي المقتول. . فيرسل الآغا شلبي يسوق معلم المقتول بالمناشف، يا عيني عليك يا معلم عقيرب، جرجروه في الحارة وسط الليل يا ست هانم، وماء الحمام لم ينشف من فوق جسده هل سمع أحد بمثل هذا أبداً، ولا في حكايات الكفار. . والافرنج. .

ورشفت شهوه هانم قهوتها في صوت واضح، مرة ومرتين، ثم وضعت القدح أمامها على المنضدة، والتفتت إلى فكيهة بوجهها المعروق والتجاعيد تعلو كل جزء من جبينها وجبهتها، وقد أحاطت

رأسها ووجهها طرحتها السوداء، وابتسمت لنفسها في استمتاع داخلي وهي تقول:

ـ وأنت يا فكيهة تصدقين كل هذا . . ؟

ورفعت فكيهة نظرها إلى الهانم، ثم سترت فمها بطرف (طرحتها) وأطرقت وهي تقول:

ـ وهل في كل ما قلته كذب يا هانم . .

وابتسمت شهوه هانم، وعادت تملأ قدحها من (السلاح) الساخن، وتعيده إلى مكانه في روية، وتقول وكأنما تغير موضوع الحديث:

ـ التافتاه الجديد يا فكيهة، هل باع . .

واعتدلت فكيهة في جلستها وهي تمد يدها إلى صدرها لتخرج صرة النقود وتقول:

ـ باع بيعاً جيداً يا هانم، وكذلك الحرير الشامي، كل نساء الحسينية يدفعن ما جمعن في حياتهن ثمناً لقطعة منه، والقطيفة يا هانم . . لقد انتهت كل قطع القطيفة ولم يعد معي ما أبيعه منها . .

ومدت شهوة هانم يدها فأخذت صرة النقود لتضعها إلى جوارها، وهي تصيح بصوت متماوج منغوم:

ـ داده مرجانة . . يا داده مرجانة . .

وظهرت مرجانه من وراء الستار وكأنما كانت تنتظر نداء سيدتها، ووقفت صامتة تنظر، وقالت شهوة هانم، وهي تدير قدح القهوة في يدها:

ـ أين (البقجة) الجديدة لفكيهة الدلالة يا داده . . ؟

وغادرت مرجانة القاعة لثوان، ثم عادت تحمل (بقجة) مليئة

ومحزومة من قمتها، ووضعتها في صمت إلى جوار فكيهة الدلالة، ثم انسحبت في هدوء، وقالت شهوة هانم، وهي تشير بيدها إلى (البقجة):

ـ هذه بضاعة جديدة يا فكيهة، وارد الشام كلها. .

وامتلأت عينا فكيهة بسعادة ممزوجة بشراهة واضحة وهي تقول:

ـ نفس النسبة يا هانم ونفس السعر؟

وضحكت شهوة هانم وهي تقول:

ـ نفس النسبة يا فكيهة ونفس السعر، وكلما أسرعت في بيعها، كلما وجدت هنا بقجة أخرى مكانها. . ملآنة وجديدة. .

وضحكت فكيهة الدلالة بدورها، وهبت واقفة وهي تعدل (ملاءتها) وتحكمها فوق جسدها الممشوق وتقول:

ـ أيام يا هانم، وأعود لك بصرة كالصرة التي جئت بها اليوم. .

قالت شهوة هانم وفي صوتها شيء كالفحيح:

ـ فقط انتبهي كل هذا يزول لو عرف مخلوق مصدر ما تحملينه من أقمشة. .

وصاحت فكيهة في استنكار:

ـ وهل هذا ممكن. . السر في بير يا ست هانم. .

قالت شهوة:

ـ ولا تنسي أن الآغا لا يعرف شيئاً مما حدث في الحارة، وأنه لو عرف فسيسوي الأمر، ويظهر الحق، ويعطي كل صاحب حق حقه. .

وشهقت فكيهة وهي تزيح الملاءة فوق رأسها، وتمد يدها لتحتضن

(البقجة) الجديدة في شراهة وشغف:

ـ وهل ينكر أحد فضل الآغا، وعدل الآغا، وكرم الآغا. . أدامه الله علينا يا ست هانم، وعلى كل حارة على لوز، بل وعلى كل الحسينية، من أولها إلى آخرها فمن أيامه ونحن نعرف المكسب والتجارة والحلال. .

وخرجت فكيهة مسرعة وكأنما تخشى أن تأخذ منها مرجانة (البقجة) وهي تقول:

ـ تركتك بعافية يا هانم.

وما أن اختفت فكيهة حتى أخذت شهوة هانم تضحك في سرور، وهي تهمس لنفسها. .

ـ الآغا لا يعرف شيئاً، وعندما يعرف سيعيد الحق إلى أصحابه. .

خرجت مرجانة عن صمتها، وقالت في صوت خافت:

ـ لو عرف الآغا أن الهانم تشترك في كل تجارة في الحي لغضب. .

ابتسمت شهوة هانم وفردت ساقيها، وهي تقول:

ـ كل هوانم الآغوات يفعلن هذا، ثم من قال لك أن الآغا لا يعرف ويتظاهر بأنه لا يعرف فعلاقاتي بكل هؤلاء النسوة من التاجرات تتيح له أن يعرف كل شيء يدور في كل حارة، وكل زقاق، كما أنه يجعلنا نستند إلى مجموعة ضخمة من أبناء الحي يعيشون بنا، ويكسبون الثروة والسطوة من جراء هذه الشركة السرية يا داده. .

هزت مرجانة كتفيها وهي تقول:

ـ أنا لا أعرف كل هذا، وعقلي لا يستطيع أن يفهم، أنا أعرف أنني أحب أو أكره أما أن أحب وأكره في نفس الوقت فهذا فوق فهمي . .

وسمعت الأثنتان صوت تصفيق عند باب القاعة، فاعتدلت شهوة هانم وهي تقول:

ـ هذه الحاجة بهية، أسرعي بالشال الأبيض، ثم أدخليها . .

وما أن أحضرت مرجانة الشال حتى لفته شهوه هانم حول شعرها كله حتى أخفاه، ثم أسدلت أطراف الشال على كتفيها، وتربعت في جلستها، والحاجة بهية تتدحرج إلى الداخل القاعة بجسدها الضخم المترهل، وكلماتها المتعاقبة تسبقها:

ـ بسم الله ما شاء الله يا هانم . . مال وجمال، وتقوى وصلاح . . أدامه الله عليك وأكمله بزيارة قبر الحبيب الرسول إنشاء الله . . .

وقالت شهوة هانم، وهي تمد يدها من حيث جلستها تسلم على المرأة المكتنزة اللحيمة:

ـ بفضل دعواتك يا حاجة . .

وقالت الحاجة وهي تتكور أمام شهوة هانم، وتدير ملاءتها السوداء حول وسطها:

ـ الحاج أرسل لجنابك مطلوبك من العسل الأسود، أربع زلع كاملة وصلت أمس من الصعيد على أرسالية المراكب التي وصلت أمس إلى فم الخليج . .

لوحت شهوة هانم بيدها وهي تقول:

ـ ثمنهم جاهز يا حاجة . .

وشهقت الحاجة بهية وهي تضرب صدرها بيدها في استنكار وتقول:

ـ ثمنهم واصل من زمان يا هانم، كله من فضلة خيرك، وخير الآغا ولي نعمتنا، ماذا كان الحاج أبو الأنوار يكون لولا حمايته وخيره وفضله.. وهو قاصد اليوم سيدنا الآغا في فضل جديد، يرفع قيمته ويزيد مهابته وسط الحارة والحي كله...

وابتسمت شهوة هانم ابتسامة خفيفة، وقالت:

ـ خير يا حاجة

قالت الحاجة، وهي لا تلاحظ شيئاً من علامات السرور الخبيث الذي يملأ أعطاف شهوه هانم:

ـ سيقصده ليخرج المظاليم يا ست هانم.. عم الشيخ يحي الشماع، راجل أمير وحافظ كتاب الله، ولا يعيب في أحد أبداً، ومن دكانه إلى المسجد، لا يرجو من الله إلا إبنه كريم الدين.. منذ ماتت المرحومة الست أنيسة أم الولد، وهو لم يتزوج غيرها، بل عاش حياته أعزباً حتى لا يحس الولد بعذاب زوجة الأب.. كم عرضنا عليه أجمل بنات الحارة ولكنه رفض أن يذل ابنه أبداً.. رجل ولا كل الرجال... وعم المعلم عقيرب رجل يصلي الفرض في موعده ولا يبغي على حق أحد أبداً يا هانم..

وفي صوت حاد قالت شهوة هانم:

ـ تتحدثين عن الاثنين المحبوسين في سجن السراية يا حاجة..

وأحست الحاجة أن لهجة الهانم قد تغيرت، فنظرت إلى وجهها حيث رأت سحنتها قد انقلبت وملامحها قد تغيرت ووجهها قد أحمر، فتلعثمت وهي تقول:

ـ مالها كفا الله الشر يا هانم . . ؟

اعتدلت شهوة هانم وأخذت تؤكد كلامها بحركة يدها وإشارات وجهها وأصابعها وقالت:

ـ المسألة أبعد مما تظنين يا حاجة بهية ، أو مما يظن الحاج محمد أبو الأنوار، أو مما يظن أهل الحارة الطيبون . . المسألة أبعد . .

ـ لست أفهم يا هانم . .

ـ أنت طيبة يا حاجة بهية، وزوجك الحاج أبو الأنوار طيب مثلك، وكل أولاد الحسينية طيبون، لا يعرفون الشر ولا يتصورونه في أحد . .

كان صوتها قد رق، واستراحت الحاجة بهية لهذه النغمة الجديدة في صوت الست هانم، وقالت شهوة هانم، وصوتها يترك كل خشونة، ويهمس كأنما يدلي بأمر خطير:

ـ اسمعي يا حاجة، اقتربي مني حتى لا يسمعنا أحد من الخونة . .

وتلفتت الحاجة حولها في ذعر، الستائر مسدلة كما هي، والحشايا فوق المقاعد، والنصبة وسط القاعة بمنقدها الفخم وعليه الأواني النحاسية المزركشة، وليس من أحد غيرهما فيها، ولكنها أحست بالخوف يتسلل إلى قلبها، وبحركة لا شعورية ضمت ملاءتها إلى جسدها في عنف وهي تقول:

ـ دستور يا أسيادي . . خونة؟ يسمعوننا، هنا في السراية. كيف . . ؟

وازداد ميل شهوة هانم على الحاجة بهية وهي تقول:

ـ في كل مكان يا حاجة. الافرنج على الأبواب، وهم يرسلون جواسيسهم في كل مكان والخونة يتخفون في كل زي، ويتواجدون في كل مكان. .

ومصمصت بشفتيها وهي تقول:

ـ ألم أحدثك من قبل عن الذين يندسون وسط أبناء الحي في محلات الشربات والحمامات والمساجد والزوايا ليدسوا الكلمات التي يتناقلها الناس دون فهم فينشرون الذعر والخراب بين الناس، ويولدون الاضطراب حتى يتمكن منا الافرنج. .

همست الحاجة بهية مقلدةً شهوة هانم، وهي تضم ما بين حاجبيها، وتشير بأصابعها المكتنزة المحملة بالخواتم ذات الأحجار الثمينة والرخيصة على السواء وقالت:

ـ طبعاً يا هانم، وقلت للحاج محمد أبوا لأنوار، وهو حريص أن يمنع الناس من الكلام فيما لا يعرفون ولا يفهمون، ويحذر كل من يدخل المحل، أو يوجد في جلسته من الخونة و اسمه الله عليك، نسيت ما أسمهم. . .

ـ الحاقدون. .

ـ تمام يا هانم. . والحاقدون. . ولم يدخل بيتنا وحياة المبرقعة أم الأنوار ولا محل الحاج أي واحد من هؤلاء أبداً. .

ـ يا حاجة بهية اسمعيني . .

ـ أسمعك يا ست هانم. .

ـ ينبغي أن يعرف كل من في الحارة والحي أن الأمراء والمماليك لم يظلموا أحداً، بل هم كانوا يحرصون على سلامة الحارة والحي كله

بل والمحروسة كلها بما فعلوا أمس . .
ـ لست أفهم يا شهوه هانم . .
ـ سأفهمك . . الشيخ يحي الشماع هذا ، أليس يفتح دكاناً يجلس فيه الرجال ويتكلمون ، ويشربون العرقسوس ويأكلون العلى لوز . .
ـ تمام يا هانم تمام . .
ـ أي مكان أفضل من هذا لوجود العملاء والخونة والحاقدين ليدسوا سمومهم وليقولوا ما يجب ألا يسمع من أهل الحي الطيبين . .
وفتحت الحاجة بهية فمها في بلاهة ، وقد ارتسم تعبير غريب على وجهها المكتنز وخبطت صدرها بيدها وهي تقول :
ـ يا لهوي . . هذا حقيقي . .
وابتسمت شهوه هانم لنفسها ، وهي تقول في ذلك الصوت الخفيض الذي يوحي بالثقة بل ويخلقها خلقاً . .
ـ هذا المعلم عقيرب ، أليس أكبر سايس في حارة على لوز ، بل في الحسينية كلها
ـ تمام يا هانم تمام ، هو أكبر سايس في البر كله . .
وازدادت شهوة هانم في تقربها للحاجة بهية فربتت على كتفها في إلفة وهي تقول :
ـ ألا تفهمين . . ؟
وقالت الحاجة وهي لا تفهم شيئاً :
ـ نعم أفهم يا هانم أفهم . . .
قالت شهوة هانم :

ـ يا حاجة بهية يا أختي، هؤلاء اشترتهم فلوس الافرنج فباعوا أنفسهم لهم، وأخذوا يروجون الحكايات في الحارة والحي كله مستغلين طيبة الآغا، ولولا أن كشفهم السلطان الملك الصالح أيوب نفسه ما كنا نعرف عنهم شيئاً . .

ووجمت الست بهية، وهي لا تصدق ما تسمع ، ولا تدرك معنى هذا الذي تسمعه ولكنها قالت في همس كالفحيح:

ـ الملك الصالح أيوب نفسه . . يا ست يا أم الأنوار . . مــدد . . بركاتك يا مبرقعة

وعادت شهوة هانم تقول:

ـ والشماع هذا وعقيرب خونة يا حاجة ، تصوري . . .

ولم تتصور الحاجة، وإنما ظلت تحدق في الوجه المبتسم أمامها ولا تتكلم، بينما عادت شهوة هانم تقول:

ـ ولهذا كان لا بد من التحفظ عليهم، وادخالهم سجن السراي حتى يرى فيهم الملك الصالح رأيــه.

وارتج على بهية فلم تتكلم إنما ظلت تنظر إلى شهوة هانم ، وكأنما تسمرت عيناها في مكانيهما لا تطرفان . . ودخلت مرجانة بصينية النقل فوضعتها في صمت أمام المرأتين ثم أجالت بصرها بينهما في هدوء، وانصرفت كما دخلت دون صوت . .

وقالت شهوة هانم:

ـ كلي يا بهية هانم، هذا نقل الشام . .

ونظرت الحاجة بهية إلى النقل في دهشة وشراهة ، ومدت يدها نحو الصينية وهي تتذكر وتستوعب أن شهوة هانم قالت لها يا بهية

هانم، لم تعد تقول لها يا حاجة بهية، هي من طبقة قريبة من طبقة شهوة هانم، أليست زوجة الحاج محمد أبو الأنوار صديق الآغا . . وهي نفسها، أليست صديقة الهانم، والهانم، ألم تقل لها يا هانم . . وأحست أن رأسها يدور . . . وأن كل شيء مختلط، ومع هذا فهي لم تجد حرجاً في أن تمد يدها إلى اللوز المقشر والجوز المقشر تحشو بها فمها دفعةً وراء دفعة، وهي تمضغ وتفكر وتمضغ وتفكر . . ثم رفعت رأسها وهي تسأل:

ـ علاء الدين الذي قتله الشلبي . .

وهنا علا صوت شهوة هانم وهي تشير بأصبعها وتقول: ـ

ـ هو الخائن، هو العميل، ولهذا قتل . .

ـ علاء الدين . . ؟

ـ نعم يا حاجة بهية، أبعد الناس عن الظن والشك، وأي مكان أفضل من مكان صبي الإسطبل، فهو هناك يعرف كل الفرسان، وعددهم ومعداتهم، وكم جاء وكم ذهب ومن أين جاء، وإلى أين يذهب . . .

واستمرت الحاجة بهية . . في المضغ وهي تقول:

ـ تمام يا هانم تمام . . من كان يصدق . . علاء الدين الخائن، يعرف عدد الفرسان، من جاء، ومن راح، تمام فهو في الإسطبل، وأكبر إسطبل في الحسينية أيضاً . .

وابتسمت شهوة هانم، وهي ترقب الحاجة بهية . . تأكل وتبلع، وتأكل وتبلع، ثم صفقت بيديها فدخلت مرجانة، فقالت لها في هدوء . . .

ـ يا داده مرجانة، كل ما على الصينية، ضعيه في لفة لتأخذه الحاجة معها . .

ولم تصدق الحاجة نفسها، ولكن كالحلم أقبلت مرجانة وفي يدها قطعة قماش حريرية فاخرة، من حرير دمشق، وفردتها لتضع فيها كل النقل الذي في الصينية، ثم لتلفها في اتقان وتناولها للحاجة . . .

وقالت شهوة هانم وهي تقف منهيةً المقابلة:

ـ حاجة الحاج أبي الأنوار مقضية يا حاجة بهية . . وزيارتك مرعية يا حاجة، مع السلامة،

وليست تعرف، كيف أخذت (الصرة) ولا كيف خرجت تهتز بجسدها المكتنز وما زال فكاها يطحنان بقايا اللوز والجوز، ولكنها كان تخرج وهي تقول:

ـ نحن خدمك يا هانم، كل الحسينية طوع (أمرك) وهؤلاء الافرنج سنشنقهم ولن يقولوا شيئاً للحارة أبداً . . . أبداً . . .

وحين خرجت الحاجة بهية استلقت شهوة هانم تضحك وتضحك، حتى عادت إليها داده مرجانة بوجهها الأسود الصارم وقالت:

ـ هذا حرام شهوة هانم . . هذا حرام .

وكفت الضحكة من على شفتي شهوة هانم وهي تقول:

ـ هي غبية وأنانية، ولا تنظر إلا إلى ما يهمها فقط، فما الضرر في أن تتحول إلى أداة صالحة في يدي . . فهي تستفيد وزوجها الحاج يستفيد، فلماذا لا نأخذ الثمن يا داده . . .

واعتدلت شهوة هانم وهي تقول:

ـ هل صرر النقود جاهزة يا داده مرجانة؟

سكتت مرجانة لحظات، ثم تنهدت وهزت كتفيها وهي تقول:

ـ الأمر أمرك، نعم صرر النقود جاهزة، ثلاث صرر من الذهب. . .

قالت شهوة هانم:

ـ إذن أدخلي الفرسان واحداً وراء الآخر ليأخذ كل فارس صرته وابتسامته، قبلق ثم قيمق، ثم طقمق. . وحاذري أن يرى أحدهم الآخر أو يراهم أحد فالآغا يظن أنهم في خدمته. . وخدمته هو وحده. .

ـ ٢ ـ

صعق الحاج محمد أبو الأنوار حين أخبره الآغا أن من قبض عليهم الشلبية خونة وعلى اتصال بالافرنج، وخرج مهرولاً من السراية لا يرد على أحد ولا يريد أن يكلم إنساناً من أبناء الحارة الذين كانوا في انتظاره وكلهم أمل في أن يخرج عليهم من السراية وفي يده الحاج يحي الشماع، وفي اليد الأخرى المعلم عقيرب. . . وفي المنزل أخبرته الحاجة بهية بحديث شهوة هانم فانتابه الذعر ولم ينزل إلى المحل هذا اليوم بطوله وهو يحاسب نفسه ويراجع ما قاله أو سمعه أو فعله عند يحي الشماع حين كان يجلس في دكانه، أو عند عقيرب حين كان يسرج له بغلته حين يريد الذهاب لزيارة الإمام الشافعي. . أو معاينة البضائع في فم الخليج أو عند الأسطى رجب في المرات التي كان مزاجه يصفو فيقضي ليله في الحمام. . .

وانتشر الخبر في الحارة كلها، وقال عم داود السروجي للأسطى شلضم:

ـ وهل هذا كلام يصدقه الناس . . . المعلم عقيرب يروج لكلام الفرنجة . . .

وهز الأسطى شلضم رأسه وهو يقول:

ـ الرجل الآغا لم يعد في عقله . .

ـ وهل نسكت يا أسطى شلضم . . ؟

ـ كيف نسكت، هل سنترك المعلم عقيرب في يد هؤلاء الظلمة . . ؟

وضرب عم داود السروجي كفاً بكف وهو يقول:

ـ والحاج أبو الأنوار لا يريد أن يقابل أحداً أو أن يخرج من داره . .

ثم هب واقفاً وهو يقول:

ـ هيا بنا إلى الأسطى رجب المناشفي، نسأله عما سيفعل، فالشلبي أمره ألا يفتح الحمام إلا بأمر السراية ربما كان عنده خبر من السراية

وفي الطريق إلى الحمام أوقفهم أكثر من واحد ليسأل عن المعلم عقيرب، والأخبار التي انتشرت من أنهم عرفوا أنه يعرف الافرنج، وأن علاء الدين كان جاسوساً . . . وكل يقول الخبر بلهجة غير لهجة الآخر . . وعندما اقترب الاثنان من الحمام وجدا جمعاً قد التف حول الأسطى رجب المناشفي الذي جلس إلى جوار الباب المفتوح

بينما وقف حميد الدين إلى جواره شاحب الوجه، وكان يقول لمن التفوا حوله:

- افرنج قال.. اسمعوا يا عالم، هل رأى أحد فيكم هؤلاء الافرنج أو سمع عنهم في الحسينية كلها... من أين لنا بالافرنج وبيننا وبينهم أراضي وبحور.. والذي يريد أن يبيع نفسه للافرنج لماذا لم يبيع نفسه لآغا من الآغاوات...؟

وقال حميد الدين في اندفاع:

- الشلبية هم الذين يباعون ويشترون، أما نحن فلا نباع ولا نشترى...

وقال المعلم داود...

- الكلام لا فائدة منه يا أسطى رجب، هل ستظل مغلقاً الحمام أم ستفتحه؟

فالتفت إليه الأسطى رجب وهو يقول:

- من الصباح وأنا جالس على باب الحمام لا أنا فتحته، ولا أنا أغلقت الباب، ولا الشلبي جاء لي بالأمر من السراية.. ولست أدرى ماذا سأفعل؟

وتدخل الأسطى شلضم في الحديث فقال:

- وهل ستظل تنتظر على باب الحمام... وماذا ستجني من هذا الإنتظار...

- أريد أن أعرف هل الآغا يعرف أم لا يعرف....

قال عم داود:

- طبعاً يعرف، من قال أنه لا يعرف...

ـ أم فكيهة الدلالة، قالت الآغا لا يعرف شيئاً مما حدث في الحارة، وهذه أفعال الشلبية وحدهم، ولو عرف الآغا لما رضي أبداً بالظلم و. . .

وضحك الأسطى شلضم ضحكة عصبية وهو يقول:

ـ وهل هذا كلام يا أسطى رجب، الحارة كلها تعرف أن كل شيء تم بأمر الآغا . .

ـ ولكن أم فكيهة الدلالة سمعت هذا من الهانم نفسها. . وقالت لها بنفسها الآغا لا يعرف شيئاً مما حدث في الحارة، وأنه لو عرف فسيسوي الأمر ويظهر الحق ويعطي كل صاحب حق حقه. . هذا نص كلام الهانم الذي تدور به أم فكيهة تحكيه من بيت لبيت في الحارة بل في كل حارة في الحي كله. .

وضحك عم داود السروجي في مرارة وهو يقول:

ـ وطبعاً حديث لا ينتهي عن فضل الآغا. . وعدل الآغا وكرم الآغا، والخير الذي حل على الحسينية منذ عينه الملك الصالح آغا على الحسينية بكل حواريها ودروبها.

قال حميد الدين؛

ـ لو كان الآغا لا يعلم فلماذا لم يسمع بالأمر حتى الآن، فلماذا لم يسمع للحاج أبو الأنوار هذا الصباح. . ؟

وقال عم داود السروجي:

ـ ماله أول. . . لا بد أن يكون له آخر يا حميد الدين يا إبني. . .

واستمر حميد الدين في اندفاعه قائلاً:

ـ ودم علاء الدين، هل سيروح هدراً. . . هل هو فرخة

انذبحت وانتهى أمره..؟

أخذ الأسطى رجب المناشفي يضرب كفاً بكف وهو يقول:

ـ من قتل قتل ومن دمر محله وكسر بابه، دمر محله وكسر بابه، ومن سجن سجن، ثم هذا الخراب المستعجل آخر الأمر...

صاح الأسطى شلضم:

ـ نذهب إلى الملك العادل...

فقال عم داود السروجي:

ـ بل نذهب قبلها إلى الآغا...

قال حميد الدين في مرارة، وهو يخبط جدار الحمام بقبضته:

ـ وما الفائدة..؟ الحارة كلها تعرف ما قاله الآغا للحاج أبو الأنوار، وما قالته الهانم للحاجة بهية زوجته.. نحن خونة وعملاء الافرنج، وعلاء الدين جاسوس... جاسوس يا عالم.. جاسوس، لأنه كان ينام في القيلولة في الإسطبل ساعة أراد الشلبي أن يشتري سايساً...

وصرخ الأسطى رجب في حنق:

ـ هذه ناس لا تخاف الله...

وقال عم داود السروجي في صوته الهادىء:

ـ كل هذا كلام يملأ الحارة، وينقله واحد إلى الآخر، دون أن نعرف الحقيقة نفسها، فمن أدرانا أن أم فكيهة الدلالة هي الصادقة، أو ما ينقلونه عن الحاج أبو الأنوار والحاجة بهية هو الصدق.. فهذا الكلام غير هذا الكلام.. فمن أين نعرف الحقيقة؟

وصاح صوت عبادة من عند الناصية:
ـ الحقيقة عند صاحب الحقيقة... يا جعيدي النار حامية يا جعيدي..
والتفتت الأنظار كلها إلى حيث وقف عبادة وقد التف حوله جمع من الصبية وهو يرفع رأسه إلى السماء في وقفته المصلوبة... وأسرع عم داود يقول:
ـ صدقت يا عبادة.. الحقيقة عند صاحب الحقيقة.. وقبل أن تفعل شيئاً ينبغي أن تتأكد، ينبغي أن نعرف، أن كلام النسوة، وما تتناقله الحارة من كلام فهو مجرد كلام...
وعاد صوت عبادة يردد من جديد:
ـ الحقيقة عند صاحب الحقيقة... تكون نار تصبح رماد لها رب يدبرها...
ووقف الأسطى رجب المناشفي وهو يقول:
ـ أتركونا من كلام المجاذيب، ودلونا ماذا نفعل؟
صاح حميد الدين:
ـ هو من أهل الكشف يا أسطى...
وقال عم داود السروجي:
ـ نذهب جميعاً إلى بيت الحاج محمد أبو الأنوار ونأخذه معنا إلى السراية...
وعاد حميد الدين يصيح:
ـ هو لا يريد أن يكلم أحداً، أو يقابل أحداً..
صاح الأسطى رجب نافذ الصبر:

ـ أسكت قليلاً يا حميد الدين، وأترك للرجال أن يتدبروا الأمر. . .

وقال الأسطى شلضم:

ـ صدق حميد الدين يا أسطى رجب فالحاج محمد أبو الأنوار منذ عاد من السراية أغلق عليه بابه لا يكلم أحداً ولا يقابل أحداً. . .

قال الأسطى رجب في ضيق:

ـ ليس من حقه أن يغلق بابه عليه، لقد قال أن الآغا صديقه، وأنه يقابله متى أراد، ووعد أمس أنه سيحدثه في أمر المعلم عقيرب والشيخ يحي الشماع، وقال لي بالحرف الواحد: الصباح رباح، وغداً ستفتح الحمام يا أسطى رجب. . . فإما أن يذهب معنا، وإما يقول أنه ليس منا. . .

وصاح حميد الدين في اندفاع:

ـ وهو ليس منا. . ألم تسمع كلامه أمس عن الخونة والحاقدين. . .

وصاح الأسطى رجب نافذ الصبر:

ـ قلت اسكت أنت يا حميد الدين واترك لنا فرصة الكلام. .

وصاح فيه عم داود السروجي:

ـ أتركه يا أسطى رجب، الولد ضاق صدره كما ضاق صدرنا. .

والتفت الأسطى رجب المناشفي إلى عم داود السروجي قائلاً:

ـ ولكنه لا يجعلنا نحسن التفكير بكثرة اعتراضاته وصياحه. .

وقال الأسطى شلضم:

ـ الولد محق يا أسطى رجب. . فلا فائدة في كل ما نقول. . .

اعترض عم داود السروجي قائلاً:

ـ بل لا بد من معرفة الحقيقة أولاً، قبل الاقدام على عمل متهور. .

قال الأسطى رجب المناشفي:

ـ ماذا ننتظر نذهب إلى الحاج محمد أبو الأنوار إذن الآن. . . ليذهب معنا إلى السراية، فإن لم يفعل ذهبنا إلى الملك الصالح أيوب. . .

قال داود السروجي وهو يضحك ضحكة خافتة:

ـ أنت أصابتك من حميد الدين عدوى الحماسة، بل نذهب بعد صلاة الظهر. . .

قال الأسطى شلضم:

ـ نذهب وقت الغذاء. . . هذا لا يجوز. .

فقال عم داود السروجي:

ـ صدقت إذن نذهب بعد صلاة العصر. . .

وهنا قال الأسطى رجب المناشفي:

ـ هذه ساعة القيلولة والراحة، بل نذهب بعد صلاة المغرب. .

وصاح حميد الدين:

ـ ولماذا تذهبون أصلاً. . . هذا أمر لا فائدة منه. . .

وتجاهل الأسطى رجب المناشفي صياح حميد الدين وهو يقول:

ـ نجتمع عندي هنا ونذهب إليه بعد المغرب، ونأخذ معنا كريم الدين إبن الشيخ يحي الشماع، وكل من يريد أن يذهب إليه معنا من أولاد حارة على لوز. . .

وعاد صوت عبادة الأسيان يأتي من عند الناصية في كلماته التي حفظها كل أبناء الحارة:

ـ الحقيقة عند صاحب الحقيقة. . مدد يا مبرقعة يا أم الأنوار. . مدد يا رفاعي مــدد. . .

قال داود السروجي وكأنه لم يسمع صوت عبادة الحزين الصارخ بالألم والتعاسة:

ـ بعد صلاة المغرب موعد ملائم، فقط من هنا وحتى المغرب نخبر كل رجال الحسينية وحارة العلى لوز، حتى نذهب إلى الحاج عزوة كبيرة لا يستطيع أن يتجاهل حجمها.

فقال الأسطى شلضم:

ـ صدقت يا عم داود. . كل الذين يتحدثون ويتناقلون الكلام ينبغي أن يحددوا موقفهم إما معنا أو علينا، ونذهب عزوة بعد صلاة المغرب للحاج أبو الأنوار. .

قال الأسطى رجب:

ـ نقسم الحواري علينا، فأنا عليّ الحواري ناحية الخليج. . .

قال الأسطى شلضم:

ـ وأنا على الحواري ناحية بوابة الفتوح. .

قال عم داود:

ـ وأنا على الحواري ناحية الصحراء. . ونلتقي عند الحاج أبو الأنوار بعد صلاة المغرب ولا وقت أمامنا إن أردنا أن يكون كل أولاد الحسينية معنا عند المغرب. . .

قال الأسطى شلضم:

ـ هيا بنا. . .

وتحرك الثلاثة، وتفرق الجمع، ووقف حميد الدين ينظر إليهم وحوله في ذهول وهو لا يدري كيف يعبر عما في داخله من سخط وتعاسة، وأحس بيد تربت على كتفه، فالتفت وراءه ليرى عليوة يهمس له:

ـ تعال بعيداً عن هذه الزحمة. . .

ولا يدري لماذا انساق إلى لمسات عليوة الذي أخذ يبتعد به عن الحمام إلى داخل الحارة ولكنه انتبه إلى أن عليوة لم يكن وحيداً، وإنما كان معه أبو سريع الذي كان يسير معهما في صمت، وما أن ابتعدا عن الناس حتى قال أبو سريع:

ـ كل هذا الكلام لا فائدة منه يا حميد الدين. . .

وقال عليوة:

ـ ولا ينبغي أن تفقد صبرك معهم، فهذا أقصى ما يستطيعونه. . .

وقال أبو سريع:

ـ هم كبروا. . . من جيل آخر! يفكر وهو يخاف على ما تحت يده من مال ومكسب، ولهذا فهم لن يفهموننا أبداً. . .

وقال حميد الدين وهو يجيل بصره بين الإثنين:

ـ تعنون الأسطوات وعم داود؟

قال عليوة:

ـ هم لا يحسون بما نحس، كل ما تهمهم مصالحهم يا حميد الدين. .

ووجد حميد الدين نفسه يقول:

ـ ولكنهم يفكرون طبقاً للأصول. . .

فضحك أبو سريع ضحكة خشنة وهو يقول:

ـ تعني أنهم يفكرون طبقاً للمصلحة. . ما علينا يا حميد الدين، إنما نريدك لأمر آخر. . .

وقف حميد الدين وقد أحس بجدية حديثهما وقال:

ـ قل . . ماذا عندك. . ؟

قال أبو سريع في صوت خفيض ولكنه جاد:

ـ ليس عندي ما أقوله الآن، ولكن جدعان الحسينية ليسوا أقل من الشلبية فلو كنت معنا بقلبك أخبرك بما أريد. . .

قال حميد الدين وقد أحس بدماء حارة تملأ عروقه:

ـ هذا الشلبي الذي ضربني في الإسطبل لم يكن أكبر مني بكثير، فقد ربى شاربه وأمسك في يده (لتاً) ووقف خلفه مجموعة من (صيّع) الحسينية.

قال عليوه:

ـ إذن فأنت معنا في أنهم ليسوا أشجع ولا أقوى ولا أحسن منا.

وصاح حميد الدين:

ـ طبعاً لأ. .

وقال أبو سريع:

ـ إذن موعدنا الليلة بعد صلاة المغرب عند الشيخ زكي.

ـ الشيخ زكي؟

قال عليوةِ بسرعة:

ـ الذي يسكن في المندرة في بيت المناديلي حيث يسكن علاء الدين.

ـ أعرفه . . .

ـ عنده إذن بعد صلاة المغرب ولا تخبر أحداً . .

فقال أبو سريع :

ـ وكريم الدين؟

قال عليوة :

ـ سأذهب إليه الآن في الدكان لأخبره بالموعد . . .

ومن عند الناصية حيث التف الصبيان والأطفال حول عباده جاء صوته المشروخ الحزين الأسيان يصرخ في عذاب .

ـ وحـــدوه . . .

طويلة ممدودة تعسة .

ـ ٣ ـ

كان قوبلاي آغا في غاية الثورة وهو يواجه مماليكه ورجاله في قاعة الديوان في السراية ، وكان يذهب ويجيء في عصبية ، والكل صامت لا يتكلم ، وقد أحسوا أنهم على وشك مجابهة عاصفة لا تبقي ولا تذر . . .

عند ناحية من القاعة وقف المماليك الثلاثة الجدد . . قبلق وقيمق وطقمق وكل منهم فارد صدره ، مرتفع بقوامه ورأسه ، ممسكاً لته في يده . . وفي الناحية الأخرى وقف لاظ آغا رئيس الحرس وحوله رجاله وهم ينقلون أقدامهم في حيرة وقلق ، وفي عمق القاعة

عند الباب وقفت مجموعة مرتجفة الأوصال، قلقة العيون، مترددة في وقفتها ونظراتها على السواء يتصدرها عوض النادي ومحمد الجعيدي، وكانت هذه المجموعة كلها من أولاد الحسينية الذين يتلقون مالهم من قوبلاي، وأوامرهم من لاظ آغا. . . كان غضب قوبلاي واضحاً، وكان صمت الجميع يعني أنهم يخافون مغبة هذا الغضب وعواقبه، وكان قوبلاي نفسه يستمتع بهذا الاحساس بالقوة والتفوق، وبقلق الآخرين وخوفهم منه، وانتظارهم لكلماته. . . وأخيراً توقف قوبلاي آغا ويداه تمسك كل منهما الأخرى خلف ظهره، وواجههم، وأخذ يدير بصره فيهم، فازدادت حركاتهم قلقاً، ونظراتهم حيرةً وتوجساً، عدا المماليك الجدد الثلاثة، ثم قال:

- ضرب تخويف نعم. . ولكن قتل. . هذا كثير. .

وقال لاظ آغا وهو يتلفت حوله وكأنما يتلمس أن يجد من يؤيده. .

- حتى الأمس يا قوبلاي آغا لم يكن هناك قتل، تخويف نعم، ضرب نعم، ولكن قتل لا. . .

واحمر وجه قيمق واهتز اللت الحديد في يده، وتحرك فى قلق وهو يقول:

- لم أكن أقصد القتل يا آغا، وإنما الولد رأسه هش لم يحتمل ضربة اللت. .

وصاح لاظ آغا، وكأنما وجد ما يزيح عن كاهله أي عبء. .

- هؤلاء المماليك الجدد يا مولاي قوبلاي آغا لا يعرفون

الأصول. وكان صيحة قوبلاي آغا أعلى من صيحته وهو يصرخ في وجهه...

ـ وماذا فعلت أنت بالأصول يا لاظ آغا، التجار يفرضون كلامهم، والأشراف يتعالون على الآغا والعياق يفعلون ما بدا لهم، وأولاد الحسينية لا يعرفون من سيدهم..

ومد لاظ آغا يديه في يأس وهو يقول:

ـ هؤلاء المصريون ليسوا كغيرهم يا مولاي الآغا، فليسوا مماليك، وليسوا عبيداً وليسوا عدداً قليلاً، نقتلهم وننتهي منهم..

وأشار قوبلاي آغا إلى المجموعة التي يقف على قمتها الجعيدي والنادي وقال:

ـ وهؤلاء ألسيوا مصريـين يا آغا؟

وتقدم الشيخ محمد الجعيدي وهو يعدل لاسته ويقول:

ـ خدم مولاي الآغا... وأخلص أعوانه والله...

وقال لاظ آغا في اشمئزاز:

ـ هؤلاء حثالة يا مولاي الآغا، حثالة لا قيمة لهم.. تشتريهم بدرة من المال ويجرون وراء كل صاحب مال، يبيعون أنفسهم لقاء الدراهم والدانق والجديد.. لا خير فيهم لا لك ولا لغيرك..

واندفع عوض النادي إلى الأمام وهو يقول:

ـ نحن أتباع الأمير... ونحن أخلص له من كل هؤلاء الشلبية...

وهز لاظ آغا اللت في يده فتراجع عوض النادي ولكن محمد الجعيدي لكزه بمرفقه فثبت في مكانه، وهو يبادل لاظ آغا النظرات

النارية والملتهبة. . وضحك قوبلاي آغا وهو يفك كفيه من بعضهما خلف ظهره، ويشير بيده إلى لاظ آغا ويقول:

ـ أنت لا تفهم يا لاظ آغا. . هؤلاء هم الذين يمكن الاعتماد عليهم في اخضاع الحسينية كلها، حارة على لوز وغير حارة على لوز. . ولكنك لا تفهم. .

وقال لاظ آغا وهو يزداد غضباً:

ـ ليس لهؤلاء أمان يا قوبلاي آغا، عندما يجد الجد سيهربون، لن يبقى منهم أحد، بل سيقدمون ولاءهم وخدماتهم لأي صاحب سطوة ومال. . هؤلاء نوع أعرفه وأتعامل معه، فهم من ينقلون إليّ الأخبار، وهم من يتجسسون على أمثالهم من أولاد الحسينية، ولكنهم لا يعتمد عليهم أبداً يا قوبلاي آغا، أبداً. . . أبداً. . .

وقبل أن يتكلم أي واحد من أولاد الحسينية قال قوبلاي آغا:

ـ نحن لا نريدهم لحرب أو ضرب يا لاظ آغا، الحرب والضرب عمل الأمراء. . أما هؤلاء فمهتمهم معرفة أخبار، ونشر أخبار، ودخول بيوت ومحلات، وتخويف باقي الناس.

ولكن لاظ لم يكن مستعداً للسكوت فاستمر يقول:

ـ هؤلاء يجعلون أولاد الحسينية يكرهون قوبلاي آغا ومولانا الملك الصالح أيوب.

ـ تقصد يخافون.

ـ لا يا مولاي قوبلاي آغا، ليس خوفاً وإنما كراهية.

صاح قوبلاي آغا:

ـ كراهية كلها خوف، المهم يسمعون الكلام ويطيعون الأوامر ويدفعون المكوس. .
وهنا صاح الشيخ محمد الجعيدي.
ـ الذي لا يدفع لا يفتح دكانه، ولا يجد بضاعته، ولا يسلم من الأذى. . .
وقال عوض النادي:
ـ والذي يتكلم لا يجد أولاده ولا ماله ولا نفسه. . . هذا ما أمر به الأمير قوبلاي آغا، وهذا هو ما نفعله طاعةً لأوامره وتنفيذاً لما يريد. . .
وقاطعه لاظ آغا قائلاً:
ـ وهذا هو الذي يرسب الكراهية في نفوس أولاد الحسينية، من قبل كانوا يقابلوني ورجالي بالترحاب وأهلاً وسهلاً، وتفضل يا آغا، تفضلوا يا شلبية، أما الآن فلسنا نلمح إلا نظرات الحذر والكراهية الدفينة في القلوب.
وتحدث قبلق فقال:
ـ فلاح لا يعرف إلا الكرباج.
وقال قيمق:
ـ اسكت له يظن أنك أضعف منه، وأنه قوي وقادر على عصيان الأوامر. .
وقال طقمق:
ـ والخوف يخلق الطاعة. .
وابتسم قوبلاي آغا وهو يقول:

- لقد ظللت آغا الحسينية فترة جعلتني أفهم أولاد الحسينية فهمًا جيداً. . . ولست أهتم بالكراهية فالكراهية لا تقتل ولا تجرح، اطعم الأغنياء. واضرب الفقراء واستأجر الأشقياء يصبحون جميعاً تحت أمرك وطوع إشارتك. .
تنهد لاظ آغا وهو يقول:

- يا آغا ليس كل أولاد الحسينية تجاراً لا يهمهم إلا المكسب، أو أشقياء يبيعون أنفسهم لقاء المال، ولا عجزة يرهبهم الخوف. .
فصاح به قوبلاي محتداً:
- بل هم كلهم هكذا يا لاظ آغا. . .
وفي عنف قال لاظ آغا:

- أنت يا سيدي الأمير لا تلتقي إلا بالمتزلفين والذين يرجون قرباك، وهؤلاء عندهم أصلاً الاستعداد لشراء رضائك بكل ثمن، فلا تجعل أمثالهم يؤثرون على حكمك على باقي الناس. أما أنا فأعاملهم في السوق والشارع، ودخلت بيوتهم في الأفراح والجنازات وأعرف حقيقتهم، وهم شيء آخر غير هؤلاء الذين يملاؤن السراية حولك.
وفي غضب صاح قوبلاي آغا:

- كلام. . . كلام. . . كلهم واحد. . ضربناهم وأخذنا منهم المكوس، وخوفناهم فلم يفعلوا شيئاً، بل ازدادوا ملقاً وتقرباً لي. .
وصاح قيمق:
- وحتى حين قتلنا علاء الدين هذا، ماذا فعلوا. . يصرخون

ويبكون.. وينظرون إلينا في خوف.. هذا درس علمناه لهم لن ينسوه...

وتنهد قوبلاي آغا وهو يقول:

ـ بل هذا خطأ كان يجب تجنبه.

وفى اندفاع أحمق صاح قيمق:

ـ هذا صبي سايس، ما قيمته وهو حي، ولكنه وهو ميت سيعلمهم الأدب، ولن يرفع واحد رأسه في أي أمير منا بعد الآن أبداً..

وتدخل لاظ آغا في الحديث مرة أخرى قائلاً:

ـ هل لهذا جئنا بهؤلاء الأمراء الجدد يا مولاي.. ليقتلوا الصبية وليثيروا علينا الناس.

وفي سأم أشار قوبلاي آغا بيده وهو يقول:

ـ هذا خطأ صغير، حقاً لم أكن أحب أن يحدث ولكنه حدث وانتهى الأمر، وحذار أن يتكرر مرةً أخرى...

وأسرع قبلق لمساندة زميله قيمق فقال:

ـ هذا الصبي هاجم الأمير قيمق فماذا كان عليه أن يفعل، أيتركه ليقتله.. ثم لقد تعلمنا الحرب لنقاتل، فهذه صناعتنا يا آغا.. ويجب أن يعرف هؤلاء الفلاحون أننا نتقن هذه الصناعة حتى يخافوا الوقوف أمامنا مرةً أخرى.

استمر قوبلاي آغا يشير بيديه في سأم أثناء حديث قبلق، ثم قال:

ـ لا خير في القتل دون داع يا قيمق، والآن اسمعوا، لقد حولنا

ـ لقد ظللت آغا الحسينية فترة جعلتني أفهم أولاد الحسينية فهمًا جيداً. . . ولست أهتم بالكراهية فالكراهية لا تقتل ولا تجرح، اطعم الأغنياء. واضرب الفقراء واستأجر الأشقياء يصبحون جميعاً تحت أمرك وطوع إشارتك. .
تنهد لاظ آغا وهو يقول:

ـ يا آغا ليس كل أولاد الحسينية تجاراً لا يهمهم إلا المكسب، أو أشقياء يبيعون أنفسهم لقاء المال، ولا عجزة يرهبهم الخوف. .
فصاح به قوبلاي محتداً:
ـ بل هم كلهم هكذا يا لاظ آغا. . .
وفي عنف قال لاظ آغا:

ـ أنت يا سيدي الأمير لا تلتقي إلا بالمتزلفين والذين يرجون قرباك، وهؤلاء عندهم أصلًا الاستعداد لشراء رضائك بكل ثمن، فلا تجعل أمثالهم يؤثرون على حكمك على باقي الناس. أما أنا فأعاملهم في السوق والشارع، ودخلت بيوتهم في الأفراح والجنازات وأعرف حقيقتهم، وهم شيء آخر غير هؤلاء الذين يملاؤن السراية حولك.
وفي غضب صاح قوبلاي آغا:

ـ كلام. . . كلام. . . كلهم واحد. . ضربناهم وأخذنا منهم المكوس، وخوفناهم فلم يفعلوا شيئاً، بل ازدادوا ملقاً وتقرباً لي. .
وصاح قيمق:
ـ وحتى حين قتلنا علاء الدين هذا، ماذا فعلوا. . يصرخون

ويبكون.. وينظرون إلينا في خوف.. هذا درس علمناه لهم لن ينسوه...

وتنهد قوبلاي آغا وهو يقول:

ـ بل هذا خطأ كان يجب تجنبه.

وفى اندفاع أحمق صاح قيمق:

ـ هذا صبي سايس، ما قيمته وهو حي، ولكنه وهو ميت سيعلمهم الأدب، ولن يرفع واحد رأسه في أي أمير منا بعد الآن أبداً..

وتدخل لاظ آغا في الحديث مرة أخرى قائلاً:

ـ هل لهذا جئنا بهؤلاء الأمراء الجدد يا مولاي.. ليقتلوا الصبية وليثيروا علينا الناس.

وفي سأم أشار قوبلاي آغا بيده وهو يقول:

ـ هذا خطأ صغير، حقاً لم أكن أحب أن يحدث ولكنه حدث وانتهى الأمر، وحذار أن يتكرر مرةً أخرى...

وأسرع قبلق لمساندة زميله قيمق فقال:

ـ هذا الصبي هاجم الأمير قيمق فماذا كان عليه أن يفعل، أيتركه ليقتله.. ثم لقد تعلمنا الحرب لنقاتل، فهذه صناعتنا يا آغا.. ويجب أن يعرف هؤلاء الفلاحون أننا نتقن هذه الصناعة حتى يخافوا الوقوف أمامنا مرةً أخرى.

استمر قوبلاي آغا يشير بيديه في سأم أثناء حديث قبلق، ثم قال:

ـ لا خير في القتل دون داع يا قيمق، والآن اسمعوا، لقد حولنا

المسألة كلها لصالحنا، فعلاء الدين خائن، وعقيرب ويحي الشماع عملاء للافرنج وسأحكم عليهم بتجريدهم من أموالهم وجلدهم وسط ميدان الحسينية، وطردهم من الحي. . وعندما يعرف الملك الصالح أيوب أنني أكتشفت خائناً في الحسينية وقتلته، وأنني أمسكت بإثنين من عملاء الافرنج ستزداد مكانتي عنده. .
قال لاظ آغا. . :
ـ لن يصدق أحد هذا. .
فصاح قوبلاي آغا في ضيق.
ـ لن يكذبني أحد، أنا قلت هذا وأنا صادق.
ـ سينكرون. .
ـ كلمتي أهم من كلمتهم لاظ آغا. . .
ـ ولكن الملك الصالح أيوب. .
وعاد قوبلاي آغا يقول في عصبية:
ـ أترك لي أمر الملك الصالح فهو مشغول هذه الأيام بالفرنجة التي نزلت البر الشمالي، ويحشد الجيوش لصدهم فليس لديه من الوقت ما يستمع فيه إلى وشاية ضدي، وهو في نفس الوقت لا يريد مني إلا المال والمؤن للجيوش المحاربة، وأن يظل أهل الحسينية على ولائهم له ولعرشه، ولهذا فأنا جئت بالأمراء الجدد ليؤكدوا الخوف في قلوب أهل الحسينية ليظلوا على الطاعة والولاء، لا أريد بعد هذا أحداً يقول لي أنا شريف، أو أنا تاجر يا آغا، وأنا شيخ حافظ القرآن يا آغا، لا الكل يدفع، والكل يورد ما نريد. . مفهوم. .
وتقدم طقمق الذي لم يشارك في الحديث من أوله ليقول:

ـ من الآن آغا، أنزل وأجبي النقود:

فابتسم قوبلاي آغا لحماسه وقال:

ـ نحن نجبي النقود بطريقة شرعية، بطريقة عادلة.

فقال لاظ آغا الذي لم يكن يستطيع أن يخفي قلقه:

ـ كيف يا مولاي نحن نحصل الضرائب والمكوس بالفعل، فكيف سنجبي نقوداً جديدة، يسمون عملنا اغتصاباً وقهراً . .

ـ لا يا لاظ آغا لا . . سنحصل ضريبة الجهاد، وهي واجبة على كل مؤمن ومؤمنة وطفل، مفهوم . .

وابتسم مسروراً بنفسه ثم قال:

ـ ونحصل ضريبة الدفاع وهي واجبة على كل بيت ودكان وصناعة وتجارة، مفهوم . .

وازداد إعجاباً بنفسه وهو يقول مبتسمًا:

ـ ونحصل ضريبة الأمن . . وهي واجبة على كل حارة وكل زقاق وكل درب . . مفهوم . .

وصاح لاظ آغا:

ـ هذا كثير يا مولاي . . .

فقال قوبلاي وهو ينظر إليه بحدة:

ـ لماذا كثير الحرب تكلف، وأنا أريد أن أرضي الملك الصالح، وأرعى مصالحي أيضاً، تمام . . . ؟

ـ تمام يا مولاي، ولكن الناس ليس لديهم ما يدفعون . .

ـ غير تمام يا لاظ آغا، الناس عندهم أموال كثيرة يجب أن نأخذها ، فهم لا يعرفون قيمة المال . . . أنا أريد نقوداً، ولا بد أن

أحصل على النقود، فشراء المماليك مكلف، وأنا أريد مزيداً من الأمراء الشجعان فكل أمير جديد يعطي قوبلاي آغا قوة جديدة. . أفهمت لاظ آغا أم أنت لا تريد أن تفهم أبداً. .

وتراجع لاظ آغا قائلاً:

ـ أنا خادمك المطيع يا مولاي، ومن واجبي أن أخبرك برأيي. .

وفي عصبية قال قوبلاي آغا:

ـ من الآن رأيك لك، لا أريد أن أسمعه. . أنت مهمتك تحصيل المكوس القديمة وحفظ الأمن في الحسينية، أما قيمق فمهمته جباية ضريبة الجهاد ويجعل من دكان الشماع مركزاً له في حارة على لوز، وكل رجل أو إمرأة أو طفل لا يدفع الضريبة خائن لواجب الجهاد ويجلد ويحبس إلى أن يدفع الضريبة، مفهوم. . قيمق. .

وهز قيمق اللت الحديد في يده وهو يقول:

ـ مفهوم آغا. . .

والتفت قوبلاي آغا إلى قبلق وهو يقول:

ـ أما أنت يا قبلق فمهمتك تحصيل ضريبة الدفاع ومركزك وكالة الليمون في حارة الليمون عند مدخل الصحراء وكل بيت أو دكان أو صناعة أو تجارة لا تدفع الضريبة، خونة تغلق وتصادر وتصبح كلها ملكاً للسراية للصرف منها على الدفاع. . مفهوم قبلق. .

وابتسم قبلق وهو يتحسس ذقنه ويقول:

ـ مفهوم آغا مفهوم. .

ثم التفت قوبلاي آغا إلى طقمق وهو يقول:

ـ أما أنت يا طقمق فمهمتك تحصيل ضريبة الأمن، وكل حارة

وكل درب وكل زقاق لا يدفعها يغلق على سكانه حتى يدفعون، ومركزك مغلق الخشب في حارة الفراخة عند مدخل باب الفتوح . . مفهوم طقمق . .

قال طقمق وفي الوجه صرامة وجدية .

ـ مفهوم آغا مفهوم . . .

وهنا قال الجعيدي وهو يجيل بصره بين أولاد الحسينية الواقفين حوله :

ـ ونحن يا آغا . . .

ـ أنتم عيوني وآذاني، لا أريد همسة تقال أو حدثاً يحدث إلا وأعرفه، كما أنكم تعاونون الأمراء في مراكزهم من يعص أمراً تتولون أنتم مع الأمراء تأديبه . .

وقال عوض النادي :

ـ ولكن يا آغا نحن أولى بتحصيل المكوس الجديدة .

وصاح قوبلاي آغا في غضب :

ـ تعترض على كلامي يا فلاح، الأمراء يحصلون المكوس أما أنتم فخدم، مفهوم خدم، والآن اخرجوا جميعاً، اخرجوا . . . ورائي أعمال كثيرة . . .

قال لاظ آغا :

ـ والأحكام على الشربتلي والسايس . .

فقال قوبلاي :

ـ يخرج بها المنادي بعد صلاة العصر وينادي في الحسينية كلها بالأحكام . . وتنفذها بعد صلاة الجمعة في الميدان الكبير . . .

ـ من الذي سينفذها..؟

ـ أنت لاظ آغا، أنت تنفذ أحكام الجلد والطرد.. أنت تحب أولاد الحسينية وأنت الذي ستجلد أولاد الحسينية.. تمام لاظ آغا...

وأطرق لاظ آغا وهو يقول في صوت مقهور:

ـ تمام قوبلاي آغا... تمام...

ـ ٤ ـ

قالت الست حفيظة لزينب وهي تربت على كتفها:

ـ حرام يا ابنتي البكاء والقرآن يقرأ في البيت... حرام..

وكفكفت زينب دموعها وهي تشهق وتقول:

ـ أليس حراماً أن يكون علاء الدين الآن في التراب يا خالتي...؟

ولم تتمالك الست حفيظة نفسها فنسيت ما كانت تقوله لزينب وانطلق صوتها في صوات مؤلم مفجوع، وتبعتها كل النساء اللآتي لبسن السواد وتجمعن هذا الصباح في دوار المناديلي.. وتوقفت الشيخة زهيرة عن تلاوة الآية التي كانت تتلوها وقالت:

ـ صدق الله العظيم...

ثم التفتت إلى النساء المتحلقات حولها وهي تقول:

ـ حرام يا ستات حرام.. القرآن الكريم يقرأ، ولا بد أن تلتزم كل واحدة بأدب الاستماع إلى القرآن الكريم فهو رحمة ونور

للمتوفي، اقرأن الفاتحة على روحه وقولوا يا سبحان الله العظيم عشر مرات.. والله يضع رحمته وهدوءه في قلوبكن..

ورفعت النساء أيديهن يقرأن الفاتحة وهن يحركن شفاههن في صمت، وقالت الست نعيمة:

ـ صدقت الشيخة، ماذا حدث يا ست حفيظة، القرآن رحمة ونور يا سبحان الله العظيم، يا سبحان الله العظيم.

وسكت الكل وكأن على رؤوسهن الطير، وقالت أم فكيهة الدلالة:

ـ وحدوه يا هوانم وحدوه...

وصمت الكل بينما انطلق صوت الشيخة زهيرة الجميل الرائق يتلو آيات القرآن الكريم. وأحست زينب أن شيئاً يستلب منها، لعله حنقها العنيف، لعله حزنها الكبير، لعله إحساسها بأنها شيء مهم في بيت علاء الدين، ولكنها كانت تحس أن المجال ليس لها وإنما لهذه الكلمات التي تتلى في خشوع، وتسمع في خشوع وصمت حيث تطرق الأنظار إلى الأرض، وحيث تتحجر النظرات فلا ترى إلا ما أمامها، ولم يكن أمامها إلا من عرفتهن من نسوة الحارة وبعض النساء اللاتي أتين من الحارات المجاورة لحارة على لوز من حارات الحسينية الكثيرة... ومرت زينب بيدها على كتف الخالة حفيظة في صمت، فمدت الست حفيظة يدها تضغط على أصابعها وكفها وكأنها تفهم الرسالة التي تريد أن تنقلها إليها.. هما وحدهما دون كل هؤلاء النسوة من يحس بالفجيعة في علاء الدين.. ما علاء الدين بالنسبة لكل هؤلاء النسوة إلا مجرد صبي مات.. وهن يقمن بواجب المجاملة.. مشكورات.. ولكن كل امرأة هنا إنما تبكي

فقيداً لها هي نفسها.. لا علاقة له بعلاء الدين، وموت علاء الدين، إنما هو الموت جمعهن من كل مكان ليسمعن القرآن ثم بعد هذا المعددة، ولتبكي كل امرأة ميتها القابع في أعمق أعماق ضميرها، أما علاء الدين فليس باقياً إلا في أعماق أمه الست حفيظة، وأعماقها هي زينب التي لم تكن تعرف قبل موته المفاجىء هذا، أنه يعني لها أي شيء على الاطلاق.. كيف أصبح علاء الدين كل شيء، كيف غدا وجهه الباسم أبداً لا يفارق عينيها إن نامت وإن استيقظت، وإن تحدثت وإن بكت، وهي منذ موته لا تعرف إلا البكاء، والبكاء الدائم أبداً... هو لن يعود، وهي تعرف أنه لن يعود، وكيف يعود من تحطمت رأسه وتمزقت كل معاني الحياة فيه، ثم أوسدوه قبره وأهالوا عليه التراب ثم جاءوا اليوم يقرأون على روحه القرآن... ما أتعس هذا الصباح، وما أبشعه.. استيقظت على صوات الخالة حفيظة ثم فتحت عينيها وهي تذكر أن علاء الدين مات بالأمس، وأنه ضاع، ثم جاءت الخالة أم فكيهة الدلالة لتقول كلامها الغريب وغير المفهوم عن علاء الدين، ولم تملك نفسها فقالت بصوت عال وسط سكون النساء بين آيتين من آيات القرآن الكريم..

ـ ولكن علاء الدين ليس خائناً ياخالات...

وتصدت لها أم فكيهة بسرعة وهي تلوح بيديها:

ـ ما فات مات يا ابنتي يا زينب، وأذكروا محاسن موتاكم..

وصرخت الست حفيظة وهي تمسك بطرفي الطرحة السوداء التي أحاطت بها رأسها وعنقها.

ـ وابني آخر الأمر خائن. . . خاين لمين؟ خائن لماذا، الولد خائن، سمعتن يا ستات، علاء الدين الزهرة المنورة، الولد المؤدب الذي عمره ما عاب في أحد. . . خائن، وجاسوس للافرنج. . .

وعلا صياح النسوة، وصواتهن، وغطى على كل صوت، وحاولت أم فكيهة أن تتكلم ولكن صوتها ضاع وسط اللطم والصراخ والصوات، وقالت زينب:

ـ أين هؤلاء الافرنج، نحن لم نشاهد في حارة العلى لوز سوى الشلبية يحملون اللت الحديد، ويكسرون الأواني ويحطمون الرؤوس ويمزقون كرامة الرجال، فأين الافرنج. . أين الافرنج يا عالم، لعلهم يكونون أكثر رحمة من هؤلاء الملاعين الذين يتهادون وسط الحارة كأنهم يملكون الأرض ومن عليها، ويقولون علاء الدين خائن، خائن لماذا ولمن. ؟

وصاحت أم نعيمة وهي تضرب خديها بكفيها في رتابة تتنسق مع كلماتها:

ـ ضاع الولد يا عين. . والشلبي قتله يا عين، والأغا دفنه يا عين. .

وصاحت النسوة صياحاً يمزق الأكباد ويفتت القلوب وأم علاء الدين تصيح:

ـ يا ولدي. . . قتلوه الشلبية. . . ولدي

وتصرخ النساء وراءها ويرتفع صوت أم نعيمة الهادىء الحزين:

ـ كفى يا أم علاء ، كفى يا زينب، اسمعوا القرآن. . .

وقالت أم فكيهة. .

ـ ظلم يا ناس ظلم، لو علم الآغا لأقام الحدود ووضع الحق في نصابه . . .

وصرخت زينب . . .

ـ أخرسي يا وليه . .

وصاحت الست حفيظة . .

ـ من لا يحترم حرمة الموتى يخرج من المعزى . . .

وقالت الشيخة زهرة . . .

ـ وحدوا الله

وصاحت زينب . . .

ـ تخرج الدلالة من المعزى، لسنا هنا نبيع ونشتري . . .

وقالت الست حفيظة . .

ـ ابني ليس جاسوساً ولا خائناً، وكل كلبة تقول هذا الكلام تخرج من المعزى ولا تعود إلى هذا البيت أبداً . .

وصاحت الست نعيمة . . .

ـ يا أم فكيهة ليس مكانك هنا، فاخرجي ووحدي الله .

ولملمت أم فكيهة ملاءتها، وهي تحس أنها عريانة رغم كل ما يسترها من ملبس، والعرق يتصبب على جبينها وجبهتها، وقال متلعثمة . . .

ـ الهانم قالت أن الآغا لا يعرف، لو عرف . .

وصاحت فيها الست نعيمة في قسوة . .

ـ اسكتي يا أم فكيهة، ولا تزيدي الجرح اتساعاً، واخرجي في سلام . .

وتلفتت أم فكيهة حولها، فلم تجد وسط كل من ارتدين السواد إلا وجوهاً مكفهرة، وعيوناً متهمة، لاعنة، قاسية عنيفة. . كان الكل يلعنها كما لم يلعنها أحد أبداً من قبل، كانت متهمة في تهمة لا تعرفها، هي فقط حاولت أن تعزي في علاء الدين، وهي فقط حاولت أن تقول الكلمات التي سمعتها من الهانم في السراية، ومع هذا فكلهن ساخطات عليها حانقات على كلماتها، بل على تواجدها بينهن. . . ولملمت ملاءتها حول جسدها، وهي تجيل نظرةً مذعورة بين النسوة اللابسات السواد والمتحلقات حول الشيخة زهيرة، وقالت وهي تتحرك نحو باب المندرة:

ـ تركتكن بعافية، ورحم الله علاء الدين.

وفاجأها صوت الصراخ من كل مكان، وكأنهن يصرخن في وجهها هي، كأنها سبب موت من مات، كلهن يصرخن في وجهها، وجوههن متقلصات، السحنات غاب عنها كل ود وكل معرفة، عشرات النسوة ينظرن إليها، عيونهن متقلصات ثابتات المحاجر، ولا تحيد عنها ولا تتركها. . . كلهن شاخصات إليها في نظرة ثابتة أليمة قاسية. . وقالت:

ـ تركتكن بعافية يا ستات. . .

ولم تجبها واحدة على تحيتها، وحين خرجت كانت تحس بالصمت الثقيل يحيط بها ويغلفها إلى باب الدوار، وعند الباب قابلتها قامة عبادة الفارهة المصلوبة وعيناه الثابتتان بلا حركة في محجريهما. . ودفعته في صدره وهي تجري وتصيح:

ـ حد الله بيني وبينك يا حفيظة، حد الله بيني وبينك يا حارة على لوز. . .

وظلت تجري وتجري ومن بعيد تتبعها كلمات الله تتلوها الشيخة زهيرة بصوتها الهادىء الحلو الوقور. . .

وقالت حفيظة وجسد أم فكيهة يختفي خارج الباب:

ـ الريح التي تودي يا ليت لا تجيب. . .

وقالت زينب:

ـ كأنها بومة.

وقالت أم نعيمة:

ـ في وسط كل ما نحن فيه لا تجد حديثاً إلا عن الست هانم وقوبلاي آغا والجواسيس والخونة.

وصاحت الست حفيظة:

ـ إبني أنا خائن، اسمعن يا ستات الحسينية، علاء الدين بن الشيخ محي الدين الذي هو من نسل علي بن أبي طالب، أي من نسل سيدنا محمد رسول الله. . . كامل الأنوار. . . وآخر المرسلين. . .

وصاحت الست نعيمة:

ـ كفى يا ست حفيظة لا تقطعي قلبنا، هل أحد يصدق أن علاء الدين خائن، لقد ربيناه بيننا، فكان خير شباب الحسينية كلها. . بل ربما خير شباب المحروسة من أولها إلى آخرها. . .

وصاحت زينب:

ـ فداك أنا يا علاء الدين. . فداك أنا يا حبيب الكل.

وصاحت النسوان وصوتن، ووسطهن صراخ الست حفيظة التي كانت تنوح وتقول:

- دمه ضاع هدراً يا ناس. . دمه ضاع هدراً، حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل. .

وانطلق صوت الشيخة زهيرة في آية جديدة من آيات الله فصمت الحديث حتى انتهت المقرئة من الآية، لتعود الست حفيظة فتقول:

- لو كان أبوه حياً. .

ثم انخرطت في البكاء وهي تقول:

- رحمك الله يا شيخ محي الدين، قم من قبرك لترى ما حل بابنك. . .

ثم صاحت بصوت مولول عال:

- يا ضيعتك وحدك يا حفيظة يا عديمة الرجال. . .

وصاحت الست نعيمة:

- كل أولادنا أولادك يا ست حفيظة، كل أولاد الحارة أولادك. .

وعادت الشيخة زهيرة تتلو آية جديدة فصمت الحديث من جديد، بينما انخرطت الست حفيظة في بكاء يهز جسدها كله هزاً. . وزينب تمسك بيدها وفي عينيها دموع متحجرة، وما أن انتهت الشيخة زهيرة من الآية حتى قالت زينب هامسة:

- الأمر لله يا خالة حفيظة. .

وفي استسلام كامل، طأطأت السيدة حفيظة رأسها وهي تقول:

- وانعم بالله يا ابنتي، وانعم بالله. .

واندفعت الشيخة زهيرة تنهي التلاوة وما أن أنهت.

ـ صدق الله العظيم . .

حتى انطلق الصوات في الدار من جديد . . فقالت في صوتها الهادىء العذب :

ـ يا ستات هذا حرام . .

وصمتن جميعهن ، وقد شخصت أبصارهن إلى المقرئة الضريرة التي مضت تقول :

ـ أولاً تحدثتن أثناء تلاوة القرآن وهذا حرام ، وإثم يعاقبكن الله سبحانه عليه يوم القيامة ، وثانياً رفعتن أصواتكن بالصوات والعديد ، وهذا حرام يأتي للميت بالسيئات التي لا ذنب له فيها . . المسلمات يترحمن على موتاهن ويقرأن الفاتحة رحمة ونوراً لأرواح موتاهن . . اقرأن معي الفاتحة على روح الفقيد وأرواح موتانا وموتى المسلمين . .

ثم رفعت كفيها ، وانطلقت تقرأ سورة الفاتحة بصوت مرتفع ، وقد رفعت النساء في الدوار أكفهن ورحن يقرأن الفاتحة في صمت وخشوع . . وأخذت كل واحدة تنهي قراء ة سورة الفاتحة تمسح وجهها بكفيها . . وكانت آخرهن الشيخة زهيرة التي ما أن أنزلت كفيها حتى عادت تقول :

ـ الله موجود يا ست حفيظة ، وإذا كنت قد عدمت الرجال فأنت لم تعدمي رحمة الله . .

ـ وقالت ألست حفيظة في مرارة :

ـ ماذا أفعل ياشيخة زهرة والولد مات مقتولاً ، ودمه ضاع هدراً ، والمفترون يقولون عنه وفي حقه ما لا يعلم إلا الله كذبه وافتراءه . .

فقالت الشيخة حفيظة بنفس صوتها الهادىء:

ـ وماذا كان الرجال سيفعلون يا ست حفيظة؟

ضربت الست حفيظة كفاً بكف، وأدارت بصرها في النسوة من حولها وقالت:

ـ يأخذون للولد حقه يا شيخة زهيرة..

ـ كيف؟

ـ يشكون إلى السلطان، يطالبون بدية الولد ودمه..

فقالت الشيخة حفيظة:

ـ ولماذا لا نشكو نحن إلى السلطان...

فقالت الست حفيظة في استنكار:

ـ نحن حريم يا ست الشيخة..

فقالت الشيخة زهيرة:

ـ وحريم المسلمين ليسوا ككل الحريم يا ست حفيظة ولنأخذ الأسوة الحسنة من الست خديجة والست عائشة والست فاطمة والست حفصة، ما كانت المرأة المسلمة يا ست حفيظة إلا امرأة كاملة لها رأيها ولها فعلها ولها مشاركتها في أمور الحياة..

وصاحت الست حفيظة وهي ترفع ذراعيها إلى أعلى، وتحرك جذعها كله مع حركة الذراعين.

ـ مدد يا مبرقعة يا أم الأنوار.. مدد يا آل بيت رسول الله..

ـ وهذا هو المدد يا ست حفيظة..

وقالت الست نعيمة، وهي تشير إلى باقي النسوة ليسكتن إذ تعالت تمتماتهن ولغطهن:

ـ أتريدين منا يا ست الشيخة أن نذهب إلى ديوان الملك الصالح أيوب . .

قالت الشيخة زهيرة:

ـ لماذا لا نذهب إلى الملك الصالح أيوب نفسه . .

فقالت الست نعيمة:

ـ ولكن لم تفعل امرأة من المحروسة هذا من قبل . .

وقالت الست حفيظة:

ـ وهل الملك الصالح أيوب لديه من الوقت ما يقضيه في مقابلة أم قتل ولدها على يد أحد مماليكه؟

فقالت الشيخة زهيرة:

ـ نقصِد الآغا . . آغا الحسينية . .

قالت حفيظة في مرارة . .

ـ تقصدين قوبلاي آغا . . ؟ ألم تسمعي ما قاله عن ابني، والقاتل أليس واحداً ممن اشتراهم بماله ليفتروا علينا في الحارة . .

قالت الشيخة زهيرة:

ـ نقابل الهانم . . شهوة هانم سيدة مثلنا وتفهم مشاعرنا، وتعرف معنى أن يموت لأم ولد هو قرة عينها.

وصرخت الست حفيظة فجأة:

ـ ولدي . . يا علاء الدين . .

وصاحت الشيخة زهيرة قبل أن يتعالى صياح النساء؛

ـ لا . . هذا حرام . . كفى يا ست حفيظة، لا تورطينا في الإثم، نحن اتفقنا أن نذهب إلى قوبلاي آغا.

ماذا قلتن يا ستات؟

وصاحت الست نعيمة:

ـ لماذا لا. . الست الهانم تقابل نساء الحي وتسمع لشكاتهن، فلماذا لا نذهب إليها بشكاتنا هي تستطيع أن ترفع هذه الشكاة للآغا، وهو يرفعها إلى السلطان. .

قالت الست حفيظة:

ـ هو يستطيع أن يبت في أمر شكاتنا من غير أن يرفعها إلى السلطان. .

وقالت الشيخة زهيرة:

ـ إذن نقصد بابه عن طريق الست شهوة هانم، ماذا قلتن يا ستات. . ؟

اندفعت زينب صائحة في حماس:

ـ أنا سأذهب مع من يريد أن يذهب. . .

قالت الست نعيمة:

ـ لماذا لا. . هي امرأة مثلنا وستسمع لنا. . سنذهب كلنا يا ستات حارة على لوز. . ماذا قلتن؟. .

وارتفعت الأصوات من هنا وهناك في تأييد لاقتراح الست نعيمة، وقالت الشيخة زهيرة في صوتها الهادئ الحلو:

ـ نلتقي غداً هنا من مطلع النهار، ثم نقصد إلى السراية نرفع شكايتنا كلنا إلى شهوة هانم لترفعها إلى الإغا.

قالت زينب:

ـ فإذا لم تسمع لنا؟

قالت الشيخة زهيرة:

ـ نذهب بشكوتنا إلى السلطان الملك الصالح أيوب نفسه..

قالت الست نعيمة:

ـ هذا كثير يا شيخة زهيرة، ولكن نبدأ بالست شهوة هانم، وقبل هذا علينا أن نعرف من الذي سيذهب معنا إلى السراية غداً..

قالت الست حفيظة:

ـ أنت حددت الغد لنذهب إلى السراية يا ست نعيمة؟

قالت الست نعيمة:

ـ لماذا لا.. نلتقي هنا جميعاً، وبدلاً من إقامة يوم الجنازة الثاني نذهب كيد واحدة إلى الست شهوة هانم..

قالت الشيخة زهيرة:

ـ هذا كلام معقول، نحضر هنا مع الضحى، وبعد تلاوة القرآن الأولى نجمع بعضنا ونذهب جميعاً إلى الست شهوة..

قالت الست حفيظة:

ـ جميعاً.. من؟

قالت الشيخة زهيرة:

ـ كل نساء حارة العلى لوز، وكل من تريد أن تأتي معنا من نساء الحسينية....

صاحت زينب:

ـ أنا أول من يذهب معكن..

وقالت الست نعيمة:

ـ هذا أمر يهم الكبيرات يا زينب، أما البنات الصغيرات فليس هذا من شأنهن. .

قالت زينب:

ـ والحزن على علاء الدين ألم يكن من شأني، والحسرة على ضياع دمه هدراً أليس من شأني؟ فكيف لا يكون من شأني أن أفعل كل ما أستطيع للإقتصاص من قاتله والدفاع عن اسمه؟. .

قالت الست نعيمة:

ـ أنت لا تفهمين يا زينب، هذا ليس مكان من هم في سنك، ثم فينا الكفاية. .

صاحت زينب:

ـ لا، أنا سأدخل كل بيت في الحارة وفي الحي كله، وسأحكي القصة كاملة، قصة المظلوم في موته، والمتهم بعد موته. . قصة الإفتراء ثم الكذب، وسأجعل كل امرأة وكل بنت في الحسينية كلها تحضر هنا غداً لتذهب أكثر مجموعة من النساء إلى السراي، وليعلموا أن كل امرأة في الحسينية ترفض أن يكون القتل شيئاً حياً بينهن، وأن يكون الكذب سلعة مطروحة في بيوتهن وحواريهن. .

قالت الست حفيظة:

ـ هذا حقك يا ابنتي؛ ولو كانت له أخت ما فعلت كل هذا من أجله أبداً. .

قالت الست نعيمة:

ـ ولكن. .

فقاطعتها الست حفيظة قائلة:

ـ لا لكن ولا غيره يا ست نعيمة، زينب بنت أصول، وما ستفعله هو ما كنت أرجوه من أخته، وهو يا حبة عيني. . لم يكن له أخوة ولا أخوات. . أكرمها الله وزادها جمالاً وشباباً، وسترها دنيا وآخرة. .

ثم ضمت زينب إلى صدرها وقبلتها. . وقالت الشيخة زهيرة:

ـ ما دمنا قد اتفقنا فليكن موعدنا غداً إذن، وسأدور أنا الأخرى على البيوت التي أعرفها لتحضر كل من تستطيع من النساء إلى الدوار غداً فنذهب جميعاً إلى الست شهوة هانم.

ومن عمق الحارة ارتفع صوت عبادة صائحاً:

ـ مدد يا مبرقعة يا أم الأنوار مدد. . مدد يا رفاعي مدد. .

ثم. .

ـ حي. .

فقالت الشيخة حفيظة:

ـ مدد يا أم هاشم، بركاتك يا طاهرة. .

ـ ٥ ـ

ـ الرجال في القاعة يا حاج، وهم ينتظرون نزولك إليهم من مدة. .

قال الحاج محمد أبو الأنوار في ضيق:

ـ لماذا لم تقولي لهم أنني نائم، أو أنني في الحمام، أو أنني مت.

وشهقت الحاجة بهية، ثم ضربت على صدرها بكفيها وهي تقول:

ـ كفاك الله الشر يا حاج . . أنشأ الله أعداءك وحسادك، أبقى الله حسك في الدنيا . .

قال الحاج محمد أبو الأنوار ونبرات الضيق تزداد في صوته :

ماذا سأفعل لهم . . لماذا يلجأون إلي؟ . . إنهم يريدون خراب بيتي، يريدون لي الدمار وقلة القيمة . .

ـ لا عاشوا ولا كانوا يا حاج . . أرسل لهم مصيلحى يقول لهم أنك لا تريد أن تراهم .

ـ لا . . لا بد أن أراهم بنفسي وأمري إلى الله . . أين مداسي . .

وأسرعت الحاجة بهية تحضر المداس من تحت الدولاب وهي تقول :

ـ خذ عباءتك يا حاج . . وسأرسل لهم مصيلحي بالقرفة في القاعة بعد قليل .

مد الحاج أبو الأنوار قدميه إلى المداس وهو يمسك العباءة بين يديه ويقول في حنق :

ـ لو أرسلت السم الهاري يكون أحسن . .

ووقفت الست بهية تنظر إليه في ذهول وبلاهة وهو يلبس عباءته، ويتجه إلى السلم لينزل إلى القاعة، وهي تضرب كفاً بكف وتقول :

ـ يا قاعدين كفاكم الله شر القادمين ما لنا نحن ومال كل هذا الهم، ولكنهم كما قالت الست شهوة هانم جواسيس الإفرنج، والكلمة الثانية . . إسم الله عليك يا بهية، الحاقدون، فكلهم أفقر من سي الحاج . . كلام الست شهوة هانم لا ينزل الأرض أبداً .

. . .   .

وفي القاعة هب كل الرجال المجتمعين واقفين لحظة نزول الحاج إليهم وهو يلملم عباءته حول جسده المترهل، ويعدل (الطاقية) باليد الأخرى فوق رأسه الملساء، وقال:

ـ السلام عليكم يا جماعة.. خيراً إنشاء الله..

ولم يتحدث أحد حتى جلس وجلسوا جميعاً، وتنحنح عم داود السروجي، ثم قال:

ـ يا حاج محمد، أنت الكبير في حارة على لوز، ونحن نلجأ إليك لأنك أكثرنا حكمة ومعرفة، ثم أنك مقرب إلى قوبلاي آغا وصاحب كلمة لا ترد عنده..

اندفع الحاج محمد يقول قبل أن يستأنف عم داود السروجي حديثه:

ـ أصبحت أنا الكبير الآن يا أهل على لوز..؟ في كل مشاكلكم لا يلجأ أحد إلي، وكل ما أقوله لا ينفذه أحد، والآن أصبحت الكبير..

وكاد الأوسطى يتكلم، ولكن عم داود السروجي أشار إليه بيده ليسكت هو، وقال:

ـ حلمك يا حاج محمد يا أبا الأنوار حلمك.. ماذا قلت أنت ولم ننفذه على العين والرأس. وتدافعت كلمات الحاج محمد تخرج من فمه كالسهام المسمومة وهو يقول:

ـ قلت لا تتكلموا فيما لا تعرفون، فإذا بالحارة كلها تتناقل حديث القبض على المعلم عقيرب والشيخ يحيى الشماع.. قلت لكم الكلام يضركم ويضرهم، فأذا بالحارة كلها تتحدث عن

الشلبي الذي ضرب علاء الدين باللت فقتله.. أنتم الذين أضررتم الجميع بكلامكم فيما تعرفون وفيما لا تعرفون..

أعرفت يا داود السروجي ماذا قلت أنا ولم ينفذه أحد من أهل الحارة..

ولم تستطع إشارات عم داود السروجي أن توقف الرد المتدافع على لسان الأسطى شلضم الذي وقف منفعلاً يقول وهو يلوح بيديه في عصبية:

ـ وهل قالت الحارة غير ما حدث يا حاج محمد، هل كذبت الحارة في شيء ألم يخرب الشلبية بيوتنا ويقتلوا علاء الدين ويمسكوا بالمعلم عقيرب والشيخ يحيى، أم هذا كذب وافتراء.. قل أنه كذب، قل أننا نكذب يا حاج..

وامتلأت الوجوه في القاعة كلها بانفعال غاضب، وأدار الحاج محمد أبو الأنوار عينيه فلمح في كل عين الثورة التي تملأ النفوس حوله، وأحس لأول مرة في حياته بالخوف.. ولكنه تماسك وضبط الإنفعال في نبرات صوته وهو يقول:

ـ يا جماعة هل أنا أقل منكم غضباً لما حدث، أنا لا أنكر ما حدث، ولكني أقول أن تناقله من فم إلى فم أضرّ بنا جميعاً.. إفهموني يا عالم..

قال الأسطى رجب المناشفي:

ـ يا حاج محمد، أنت لا تنكر ما حدث، ولا تنكر أنهم أخذوا المعلم عقيرب والشيخ يحيى الشماع من الحمام أمام عينيك، وأنت

قلت الصباح رباح يا أسطى رجب، وأنت سمعتهم بأذنيك وهم يقولون لي لا تفتح الحمام، وأنت قلت الصباح رباح يا أسطى رجب. . والصباح فات والظهر والعصر، وكأن ما كان فات. . ولم يخرج المعلم عقيرب ولا الشيخ يحيى الشماع. . وأنا لا أعرف هل أفتح الحمام أم أغلقه. . قل أنت يا حاج يا أبا الأنوار. . . قل. .

ومر الحاج أبو الأنوار بيده فوق بطنه العريضة، وهو يقول:

ـ يا رجب يا مناشفي أنا لم أقصر، بل منذ الفجر أنا كنت في السراي، دون أن أدري بأمر المصائب التي تفعلونها، وتريدون إيقاع الحارة فيها، بل والحسينية كلها ومن فيها. .

ـ وصاح الأسطى رجب في ذهول:

ـ مصائب؟. .

وقال عم داود السروجي:

ـ نحن الذين جئنا بالمصائب يا حاج محمد يا أبا الأنوار. . . سامحك الله. .

فصاح فيه الحاج محمد وكل جسده يهتز:

ـ أسكت يا داود يا سروجي، يا من يعلم هل كنت تعرف أم لا تعرف. . ولكن لا بد أنك تعرف فأنت تعمل معه في نفس الإصطبل ليل نهار فكيف يغيب عنك هذا. . ومن يدري ربما كنت مثله. .

ولم يتمالك الرجل الهادىء نفسه فصاح في الحاج محمد:

ـ تعرف، ولا تعرف. . ما الأمر. . قل يا حاج. . قل. .

وفي نفس الإندفاع العصبي الغاضب أخذت كلمات الحاج محمد أبي الأنوار تتدفق وهو يقول:

ـ ألم تكن تعرف أن عقيرب عميل للإفرنج، يأخذ منهم المال لينقل لهم أخبار الأمراء الفرسان، كم جاء، ومتى جاء، وكم ذهب وأين ذهب؟ وإنه كان ينقل أخبارنا أول بأول إلى الإفرنج، وأن علاء الدين كان جاسوساً وخائناً، وأن يحيى الشماع كان يتجسس هو الآخر على أخبار الحسينية لينقلها إلى الإفرنج وهو في دكانه يعرف كل الأخبار التي تحدث في حارة على لوز.. قل أنك لم تكن تعرف..

ووجم الجميع، وأخذوا يتبادلون النظرات في صمت.. ودار الحاج محمد أبو الأنوار بعينيه الضيقتين في الوجوه المصفرة حوله، وابتسم ابتسامة كريهة وهو يقول في حزم:

تظنون أن عيون السلطان لا تراكم.. لا أفيقوا.. وتحسبون أن يده لن تطولكم.. لا استيقظوا السلطان يعرف كل شيء، والآغا يعرف كل شيء، وستضرب قبضته القوية كل الخونة والعملاء والحاقدين أم تظنون أن الدنيا سايبة؟..

ولم يجب أحد فقد ران الوجوم فوق الرؤوس حتى ملأ القاعة كلها، وصمت كل شيء حتى من بالدار أنفسهم صمتوا، وحتى الأصوات المتقطعة التي كانت تأتي من الحارة سكتت.. وفجأة عوى كلب من بعيد، وكان صوت عوائه يصل إليه داخل القاعة، لم يكن ينبح كما تنبح الكلاب، وإنما كان في نباحه عواء أقرب إلى أصوات الذئاب منه إلى أصوات الكلاب.. وكانوا ينظرون في صمت إلى

الأرض مرة، وإلى وجوه بعضهم البعض مرة، وإلى آيات القران المعلقة فوق حوائط القاعة مرات، ولكن أحداً منهم لم ينظر ناحية الحاج محمد أبو الأنوار..

ووقف عم داود السروجي، فوقف الجميع لوقوفه، وقال:

ـ سامحك الله يا حاج محمد.. الأمر كله لله وحده..

وسكت لحظات مطرقاً، ثم قال وهو يرفع رأسه:

ـ سلام عليكم..

ووقف الحاج محمد أبو الأنوار مسرعاً وهو يقول:

ـ إلى أين.. نحن لم نتفاهم بعد..

قال عم داود السروجي في صوت خافت هادىء:

ـ لم يبق ما نتفاهم عليه يا حاج..

صاح الحاج محمد وفي صوته نبرة ذعر:

ـ كيف...

فقال الأسطى شلضم:

ـ ليس بعد حرق الجرن جيرة يا حاج..

وازداد صوت الحاج محمد ارتفاعاً وعصبية بل وذعراً وهو يصرخ:

ـ انتظروا.. لا بد أن أعرف معنى هذا؟

قال عم داود السروجي في صوت حزين:

ـ نحن كلنا خونة وعملاء وحاقدون يا حاج محمد يا أبو الأنوار.. بعد كل هذه العشرة، وتدخل بيوتنا ومحلاتنا، وتزور نساؤنا زوجتك، ويلعب أولادنا مع أولادك، وتأكل خبزنا ونأكل

خبزك ثم نصبح خونة وعملاء وحاقدين. . سامحك الله يا حاج محمد، سامحك الله . .

ـ صرخ الحاج محمد أبو الأنوار، وهو يقف أمام باب القاعة يمنعهم من الخروج وقال:

ـ أنا لم أقل هذا لا سمح الله، وإنما من قاله هو الملك الصالح أيوب نفسه. .

قال الأسطى شلضم:

ـ أنت لا تعرف الملك الصالح أيوب ولم تره في حياتك، أنما الذي قال لك هذا هو الآغا، والشلبية الذين أرسلهم من عقالهم فانطلقوا كالمجانين يدمرون كل شيء. .

قال الأسطى رجب:

ـ وأنت تعرف أن هذا الكلام كذب، ليس فينا من يعرف الإفرنج، أو من رأى واحداً منهم في حياته، ولكنك تردد ما قالوه لك. . .

وقال عم داود السروجي:

ـ يا حاج محمد خاب أملنا فيك. . .

ومد يده يزيحه من مكانه أمام الباب حينما دخل مصيلحي يحمل أكواب القرفة وهو يقول:

ـ القرفة بالصلاة على النبي . .

فقال الأسطى شلضم:

ـ اشربها أنت وأبوك ربما أصلحت مزاجكما. .

ووقف مصيلحي محملقاً، والرجال يخرجون من باب القاعة في صمت، وأنظارهم إلى الأرض، والحاج محمد يتعقبهم ببصره وقد شحب وجهه وتندى العرق من جبينه، وأخذ جسدم، كله يهتز. وصاح مصيلحي:

ـ هل أنت مريض يا أبي.. هل أنت مريض..

لم يجبه الحاج محمد وإنما مد يده ليسند جسده إلى جدار وهو يحس أن الدنيا تدور به.

ـ ٦ ـ

وصل حميد الدين إلى مندرة الشيخ زكي بالدوار متأخراً، فقد ظل في الإصطبل حتى عاد عنتر بعربة (الكارو) التي يبيتها إلى جوار الإصطبل، وفك منها الحصانين، وتركهما له يرفع عنهما قطع الخيش والقماش التي يحمي به ظهرهما من وقع عصاتي العربة، ويرفع اللجام، ويدعك جسديهما بالفرشاة ثم يقودهما إلى مكانهما في آخر الإصطبل ويضع أمامهما التبن والعلف.. فلم يكن غيره بالإصطبل، الأسطى شلضم لم يظهر، ولا عم داود السروجي.. وأشعل الفانوس عند مدخل الإصطبل ثم أغلق الباب الثقيل، وتوكل على الله فما كان يمكن أن يرد للأسطى شلضم طلباً حين قصده أن يحل محل علاء الدين هذا اليوم.. ولم يكن يضره شيء فالأسطى رجب المناشفي لا يريده في الحمام هذا اليوم أيضاً، بل هو لم يفتح الحمام أصلاً، وابتسم حين تذكر كلمة عنتر العربجي وهو يترك له الحصانين ويقول:

ـ من حمام الرجال إلى حمام خيل يا حميد الدين. . دنيا لها رب يدبرها. .

كان كل ما يرجوه أن يعطيه الأسطى شلضم (يومية) علاء الدين ليعطيها للست حفيظة حتى لا تشعر أن ابنها قد غاب. . وقال لعنتر:

ـ الحمام شغله في الليل، والإصطبل في النهار. .

هز عنتر رأسه وهو يخرج من الإصطبل وقال:

ـ والله ضاع علاء الدين هدراً يا ناس. .

وفي الطريق من الإصطبل حتى الدوار ظل حميد الدين يردد هذه الكلمات لنفسه في أسى ومرارة:

ـ نعم ضاع علاء الدين بلا سبب وبلا دية. .

حين دق باب المندرة فتح له أبو سريع الباب وهو يقول:

ـ مرحباً بك يا حميد، قلت لهم أنك ستتأخر حين رأيتك في الإصطبل. .

ولم تكن الغرفة الصغيرة مضاءة إضاءة جيدة، فلم يكن فيها من مصدر للنور إلا (لمبة) صغيرة علقت بمسمار على الحائط وترسل دخاناً يغبش زجاجها المغبر اللون، ولكن حميد الدين استطاع أن يميز الشيخ زكي وعليوة، وشابين آخرين لم يكن يظن أنه سيلتقي بهما هنا، كان أحدهما عوض صبي الفران، وكان الثاني صيام ابن الشيخ زكي والذي كان يعمل صبياً لعم عفيفي النجار على باب حارة الفراخة. وقال الشيخ زكي:

ـ إجلس يا حميد الدين يا ابني، خيراً فعلت حين ملأت مكان

علاء الدين اليوم، رحمه الله . .

قال حميد الدين وهو يجلس على حشية إلى جانب الباب:

ـ لن يحل أحد محل علاء الدين يا سيدنا الشيخ . .

ـ صدقت يا بني، هو عند أمه لا بديل له، وهو عند أحبابه لا بديل له . . رحمه الله وجزى القتلة شر جزاء . . فالله لا يحب كل معتد أثيم . .

وانسابت كلمات الشيخ زكي إلى نفس حميد الدين كالبلسم الشافي، أحس أنه يسمع صوتاً أليفاً يحمل إليه ترجمة كاملة لكل ما في نفسه، وعاد الشيخ زكي يقول:

ـ كيف ستجمع يا حميد الدين بين عمل الحمام ليلاً، والإصطبل نهاراً، هذا كثير يا بني، ولا يكلف الله نفساً ألا وسعها . .

قال حميد الدين في هدوء:

ـ يا سيدنا الشيخ، يومية علاء الدين لا بد أن تصل إلى أمه الست حفيظة، فليس لها بعد الله غيره، والآن وقد ضاع علاء الدين من أين ستعيش؟ . .

قال الشيخ زكي وفي صوته هزة تأثر واضحة:

ـ أكرمك الله يا بني، لمثل هذا كانت تعاليم الإسلام، وتعاونوا على البر والتقوى . .

ـ قال عليوة الذي كان يجلس في الناحية المقابلة لحميد الدين:

ـ نتبادل كلنا انعمل في الإصطبل مكان علاء الدين حتى يخف الضغط على حميد الدين . .

قال ابو سريع :

ـ أنا معك في هذا ومنذ الغد نقسم وردية الإصطبل إلى أقسام، كل واحد منا قسمًا . .

ونظر إليهما حميد الدين في دهشة وهو لا يكاد يصدق أذنيه، فلم يكن أحد يعرف لهما عملاً مستقراً أو ثابتاً، كانا قلقين باستمرار، ما أن يدخلا دكاناً لأسابيع حتى يتركانه إلى الحارة والعبث إلى أن تفرغ نقودهما فيحاولان العمل من جديد، وابتسم الشيخ زكي كإنما كان يقرأ أفكار حميد الدين، وقال:

ـ لا تعجب يا حميد من قول عليوة وأبي سريع، فالهداية من الله . . والله يهدي من يشاء، سبحانه . .

وأطرق حميد الدين في

صمت، فقد كان صوت الشيخ زكي يحمل له نسمات الفجر حين يخرج إلى الصلاة على آذانه في زاوية سيدي الأربعين، أو عطر الجمعة يصليها وراءه في المسجد، وصوته الهادىء الصادق يحمل أرق الكلمات إلى قلبه أثناء الخطبة . . كان يحس دائمًا في حضرته بمزيج من الرهبة والراحة، وكان يحس دائمًا في كلماته بمزيج من الصدق والقوة . . وقال الشيخ زكي مخاطباً الجميع :

ـ هل تعشيتم أم أقدم لكم العشاء، لقد تركت خالتكم أم صيام طعام العشاء جاهزاً، وهو يكفينا ويفيض، فمن كان جائعاً منكم فلا حرج عليه . .

وقال حميد الدين :

ـ الحمد لله ، لقد أكلت قبل أن أجيء . .

وقبل أن يرد أحد من الباقين طرق الباب، فقال أبو سريع:

ـ لا بد أن هذا هو كريم الدين، فقد قال أنه سيذهب إلى السراية يحاول أن يقابل أباه قبل أن يأتي إلى هنا. .

وأسرع عليوة إلى الباب ففتحه، وعند مدخل (المندرة) وقف كريم الدين (يبربش) بعينيه ودهش حميد الدين من شحوب وجهه وتقلص عضلات هذا الوجه الذي عرفه سمحاً طلقاً فإذا به الآن متجهمًا مكفهراً، كما دهش من نحول جسد كريم الدين، هل يكفي يوم واحد لينحل الجسد كل هذا النحول. . وأغلق الباب خلفه، واستند بجسده إليه وهو يجيل بصره في كل الجالسين، ويقول وكأنما يحدث نفسه:

ـ سيجلدونه بعد غد الجمعة بعد الصلاة. .

وهب الجميع واقفين في دهشة مذعورة، وصاح أبو سريع:

ـ يجلدون من؟

قال كريم الدين وهو يتهالك على حشية إلى جوار الباب ويضع رأسه بين كفيه:

ـ أبي الشيخ يحيى الشماع، طول النهار أحاول أن أصل أليه، أن أسمع منه كلمة، والحراس يطردونني دون كلمة، لاظ آغا قال لي: أخرج من هنا ولا تعد وكان في صوته حنان لم أجده عن الباقين، كان كأنما يعطف علي ويرثي لي. . وعدت مرة أخرى. . وتصدى لي قيمق وأشار «بلته» إشارة تهديد فمشيت، ولكني عدت مرة ثالثة، فتصدى لي قبلق، وقال لي: أخرج من هنا شربتلي، وهزّ «لته» في يده فمشيت، ولكني عدت مرة جديدة فتصدى لي طقمق، ونظر إلي

بعينيه الناريتين وهو يمد بيده على شاربه، وصاح في: أبعد فلاح، فبعدت، ولكني عدت، كان لا بد أن أرى أبي، كان لا بد أن أعرف ماذا حل به، كان لا بد أن أعرف، كان لا بد..

وانخرط في بكاء مر... وهو يدفن رأسه ووجهه بين ساعديه، وقد تكور إلى جوار الحائط وصمت الجميع وهم ينظرون إليه في وجوم، بينما تقدم الشيخ زكي ووضع يده على كتفه وقال:

ـ تماسك يا كريم، وقل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، صدق الله العظيم..

ورفع كريم الدين وجهه مبللاً بالدموع، وقال والكلمات تخرج مختلطة بشهقاته ودموعه:

ـ وفي المرة الأخيرة تصدى لي أولاد الحسينية، محمد الجعيدي وعوض النادي..

وأختنق صوته، فاندفع يبكي والشيخ زكي يربت على كتفيه، والكل صامت متطلع إلى كريم الدين في صمت، وقد بدأ الجميع يحس بالتعاسة والضيق والحنق في مزيج مختلط غريب، وقال حميد الدين:

ـ لا تقل عنهم أولاد الحسينية..

وقال أبو سريع:

ـ صدقت يا حميد الدين، هم ليسوا منا..

وقال عليوة:

ـ هما من الكلاب التي تلعق يد من يلوح لها باللقمة..

وقال الشيخ زكي في صوته الهادىء، وأن كان هدوؤه يشوبه

انفعال واضح:

- اسكتوا جميعاً، واتركوا كريم الدين يكمل حديثه..

وجفف كريم الدين دموعه، ثم رفع وجهاً معذباً إليهم وهو يقول:

- لطمني محمد الجعيدي على وجهي، وقال لي عوض النادي في تشف: الحارة كلها ستعرف غداً أن أباك وعقيرب خونة وأن علاء الدين جاسوس، وسيجلد أباك وعقيرب في الميدان وأمام الجميع جزاء خيانتهما، والآن أجر وإلا حبستك معه.. ولم أجر، ولم أتحرك، فدفعني بيده، وظل يدفعني إلى أن خرجت من السراية وظللت هائماً على وجهي لا أعرف أين أنا.. حتى تذكرت موعدكم الليلة فجئت..

وظل ينشج، والشيخ زكي يربت على كتفيه إلى أن هدأ قليلاً، فقال الشيخ زكي لابنه صيام:

- يا صيام هات كوباً من الماء لأخيك كريم الدين أكرمك الله..

ثم التفت لباقي من بالحجرة وهو يقول:

- أجلسوا، فلا شيء يحل بانفعال اللحظة، وثورة الإندفاع، اجلسوا لنفكر فلهذا جئنا الليلة من كل حارة من حواري الحسبنية..

وتحدث عوض الفران لأول مرة فقال:

- نحن في درب شكمبة لم نكن نعرف شيئاً مما يجري في حارة على لوز، وهو شيء مخجل أن يقبل أبناء الحسينية هذا الهوان، لو حدث نصف هذا في درب شكمبة لطارت رؤوس

وصاح عليوة:

ـ ليس أبناء شكمبة بأجدع من أبناء على لوز. .

قال الشيخ زكي بصوته الهادىء:

ـ لا نتعارك فيها بيننا فما درب شكمبة وما حارة على لوز إلا شيء واحد فكلنا أولاد الحسينية، إياكم أن تنسوا هذا. .

وكان صيام قد جاء بكوب الماء وتقدم به نحو كريم الدين، فتناوله منه الشيخ زكي وقال:

ـ إشرب يا كريم الدين يا ابني إشرب. .

وتناول كريم الدين الكوب بيد مرتعشة ومضى يشرب. . بينما قال حميد الدين:

ـ جاءت حكاية كريم الدين فاسودت الدنيا في أعيننا، ألم يكف موت علاء الدين ولا تحطيم آنية محل أبي ولا سجن المعلم عقيرب والشيخ يحيى الشماع! لتصل المسألة إلى الجلد في الشوارع والميادين. .

صاح أبو سريع:

ـ ماذا يظنون، هل يحسبون أننا عبيد؟

وصاح عليوة:

ـ أو نسوة عاجزات. .

وقال عوض الفران في استهتار:

ـ سكتم لهم فطمعوا فيكم، هم لهم حق. . الشلبية لا يعرفون إلا «اللت» «باللت» والسيف بالسيف والنبوت بالنبوت، اما أن يضربوا لتسكتوا أنتم فما أطيب هذا لهم. .

وصاح صيام وهو يعود إلى مكانه حاملاً الكوب الفارغ:

ـ وهل هذا كلام يا عوض.. هم يشترونهم ليعلموهم الحرب والقتال، أم انحن فلسنا أهل هذا.. نحن نحفظ القرآن ونخاف الله، ونتوكل على الله، وكل واحد منا يتعلم مهنة يعيش منها ويفيد ويستفيد..

قال عوض الفران مستمراً في اندفاعه:

ـ ويركبون رقابنا ويستذلونها.. هذا لا يرضاه أحد.

وجاء الشيخ زكي الهادىء، وهو يقول:

ـ لا ذل مع الإيمان يا أولادي، ولهذا تحدثت إلى بعضكم من قبل، فقد كنت الملح نذير العاصفة التي تريد أن تسلبنا كرامتنا.. من قبل أطمعهم صمتنا في القوت فاشركناهم فيه.. في العرق والجهد، فبذلنا من أجلهم، في خير البلد، وخصبها فافسحنا لهم مكاناً وسطنا، أما اليوم فهم يطمعون في كرامتنا نفسها، يريدون أن يكونوا سادة يأخذون كل شيء، وأهل البلد عبيد لا يأخذون شيئاً ويسكتون ويدفعون عرقهم وكدهم من أجل من لا عرق لهم ولا كد.. من أجل هذا جمعتكم لأنه آن الأوان أن يقف كل شيء عند حده وأن يعرف كل واحد منا مكانه، وأن يلزم هذا المكان لا يتعداه..

صمتوا جميعاً، وتطلع حميد الدين إلى وجه الشيخ زكي المختنق وهو لا يصدق نفسه، هذه النبرات وهذا الصوت شيء آخر تماماً غير النبرات والصوت، بل والوجه والقسمات التي عرفها عن الشيخ زكي من قبل.. كان هذا الذي يتحدث متصلب العود، رجلاً آخر

تماماً لا ينقصه إلا أن يمسك في يده اللت الحديد ليغدو أكثر شراسة من أي شلبي، وقال الشيخ زكي مكملاً حديثه:

ـ ليس الشلبية الذين جاء بهم الآغا بأكبر منكم سناً، ولا أكثر فتوة، وإذا كانوا يستطيعون حماية الآغا ومصالحه وأغراضه فإن دوركم هو حماية الحسينية ومصالحها، ومنع المساس بكرامتها.

قال أبو سريع في صوت خفيض مليء بالمرارة:

ـ تأخر هذا الكلام كثيراً يا شيخ زكي..

وقال عليوة:

ـ تعودنا أن ينصرف كل منا إلى عمله أو لهوه ومتعته أو دينه وعبادته، وتركنا أمر الحرب من زمن لغيرنا..

فقال عوض الفران في شراسة:

ـ هذا الكلام لا يأتي منك أنت يا عليوة، ولا منك أنت أيا أبا سريع.. فقد ربتكما حارة على لوز على الشقاوة حتى تجاوز حديث شقاوتكما الحارة إلى غيرها فبلغنا في درب شكمبة..

ابتسم أبو سريع في خجل وهو يقول:

ـ الشقاوة والمجدعة شيء يا عوض، والحرب شيء آخر..

وقال عليوة:

ـ ما تتحدث عنه يا عوض مجرد تنافس ومباريات لنعرف الأقدر على التحمل والأقوى في المصارعة أو التحطيب أو غير هذا من مجالات العبث الذي لا خطر منه على أحد.

قال صيام الفران وهو ينظر إلى والده كأنما يستأذنه في الحديث:

ـ ماذا نريد أن نفعل يا أبي؟

وتنهد الشيخ زكي، وهو يمر براحته على وجهه وذقنه، وعيناه تدوران بهم.. مجموعة من الشباب الغض الذي لم يعرف طوال حياته إلا الرعاية والإهتمام، والذي لم تقم بينه رغم المنافسات البريئة، إلا المحبة والصداقة، ووحدة الإنتماء.. فكلهم أيا كانت الحارات التي ينتمون إليها أبناء لحي الحسينية، الحي الذي يضم آباءهم وثرواتهم، ومراتع لهوهم، ومستقبل أيامهم الآتية كلها.. ولكن ما هو قائم شيء.. وما يجب أن يحدث شيء آخر، كان يعرف أنه ربما كان يسوقِ بعضهم أو كلهم إلى حتفه، وربما إلى السجن والآلام الطويلة، ولكن إرادة الله لا بد أن تنفذ، وهذا لا شك أمر قدرته إرادة الله، أن يتصدى هؤلاء الفتية، رغم صغر أعمارهم لما لا يجرؤ أن يتصدى له الرجال الناضجون وعاد يتنهد من جديد، وأطرق برأسه لحظات، ثم بدأ يتحدث في صوت مهتز بعض الشيء، ولكنه يستقر ويهدأ كلما استمر في الحديث، وقد بدأ قلبه وضميره يستقران على أن هذا هو ما يجب أن يكون، وأن الله لا شك سيكون إلى جوارهم فيما يدفعهم إليه دفعاً.. قال:

ـ غفر الله لي ولرجال الحسينية كلها هذا الذي نلقيه على كواهلكم، وهي بعد غضه..

وسكت فاندفع حميد الدين يقول:

ـ يا مولانا لقد علمتنا الحب والتسامح، وعلمتنا الهدى والطاعة، فأي شيء يغفره الله لك وما أردت بنا إلا الخير طول العمر..

قال الشيخ:

ـ صدقت يا حميد الدين يا بني، وهذا الذي ذكرت الآن، يصعب علي الأمر ولا يسهله . .

واندفع كريم الدين يقول:

ـ وهل أمامنا إلا الصعب يا مولانا، فقل، وستجدنا عند ظنك بنا . .

كإنما كانت الكلمات تجد مشقة في خروجها من شفتي الشيخ المسن، ولكن كان يحاول دائمًا أن يلتزم الهدوء وهو يقول:

ـ لا علاج للنار إلا بالنار، ولا علاج للحرب إلا بالحرب . .

وصمت . . ولكن أحداً لم يتكلم من أصحاب الوجوه الشابة التي تحملق بعيونها فيه . .

فاستمر يقول:

ـ ولكننا وحدنا لا نكفي، لا بد لأولاد الحسينية الذين تمرسوا بالصراع والضرب والحرب أن ينضموا إلينا، فنحن نملك السواعد والإرادة والرغبة وهم يملكون الخبرة والمعرفة والدراية.

وقال أبو سريع:

ـ تعني عياق الحسينية يا مولانا . .

وقال عليوة:

ـ لم نأخذ من العياق إلا كل الأذى والضرر فهم يسيرون خلف الشلبية وفي ركاب الآغا . .

قال الشيخ زكي وقد اكتسى صوته هدوؤه المعتاد:

ـ لست أعني أمثال الجعيدي أو النادي فهؤلاء ليسوا عياقاً وإن أدعوا «العياقة» هؤلاء لا يعرفون انتماءاً إلا لمن يعطيهم المال الأكثر

والعمل الأقل، ولا حرمة عندهم لقرابة أو جوار، بل هم يبيعون أقرب الناس إليهم من أجل المال والمزيد من التقرب إلى الآغا. .

قال صيام وقد توهجت عيناه في حماس:

- فمن تعني يا أبي إذن؟

عاد الشيخ زكي يقول:

- أنا يا بني علمت في الكتاب جيلاً وراء جيل من أبناء الحسينية، وأعرف من ظل منهم في الحي أو في الحارة لا يغادرهما، ومن خرج منهم يسعى إلى رزقه خارج الحارة والحي، بعضهم نجح وغدا من كبار التجار أو كبار المثقفين في الدين والعلم، والبعض شق طريقه بساعده وقوته وقدرته على تحمل الصعاب وقهر الرجال. .

صاح عوض الفران:

- هؤلاء من نريد الآن. .

قال الشيخ زكي:

- صدقت يا عوض يا بني، وهؤلاء من سنقصد إليهم الآن، في الغد بعد صلاة الفجر في الزاوية سينطلق كل منكم رسولاً مني ومن الحسينية كلها إلى واحد من هؤلاء أسميه له، ولو جاء نصف من سنرسل إليهم لما وقف أمامنا قوبلاي أو شلبيته أبداً. .

قال صيام:

- ولكن من أدرانا يا أبي أنهم سيتركون ما هم فيه ليدخلوا في شيء قد يؤذيهم في معاشهم أو في علاقتهم بالأغوات أو السلطان نفسه. .

- هناك دية يدفعها الإنسان للأرض يا صيام يا بني، وهو دين

يظل في عنقه إلى أن يموت.. يوماً ما مهما طال بعده عن أرضه، تطالبه هذه الأرض برد دينها عليه، يوم صنعته من طينها، ويوم احتوته في أمانها، ويوم أورثته أصل ما فيه أعماق..

وفي إصرار قال صيام:

- هذا قولك أنت يا أبي، ولكن كيف تعرف أنه قولهم هم..

تنهد الشيخ زكي وهو يقول:

- لا أعرف.. ولكن علينا أن نجرب لنسمع قولهم هم من أفواههم هم..

قال عوض الفران..

- صدقت يا سيدنا الشيخ، أنا متسعد للذهاب إلى حيث تأمر لأحمل رسالتك إلى من تشاء..

- عظيم.. والآن أنت يا عوض تذهب إلى عليوة الفار في بولاق..

- عليوة الفار.. عايق بولاق يا شيخ زكي؟

- نعم هو من أعنيه.. وأنا أريده هو وكل مشاديده من العياق..

قال أبو سريع:

- وأنا يا شيخ زكي؟

قال الشيخ زكي:

- أنت تذهب إلى الساحل، وهناك تسأل عن شعبان أبو ضفر، شيخ العتالين هناك وأنا أريده وكل من معه من الصعايدة العتالين والمراكبية..

والتفت الشيخ زكي إلى عليوة وقال:

ـ أما أنت يا عليوة فستذهب إلى الإمام الشافعي، وتسأل هناك عن الشيخ أبو المكارم وستجده مجاوراً لمسجد سيدي الإمام، وقل له أن الوقت قد جاء، وأنني أريده وكل تلاميذه في الطريقة فهذا يومهم..

قال عليوة:

ـ لست أفهم يا مولانا..

قال له الشيخ زكي وهو يشوح بيده في ثقة:

ـ هو سيفهم يا عليوة، فقط بلغه الرسالة..

والتفت إلى كريم الدين وقال:

ـ أما كريم الدين فسيذهب إلى السيدة أم الأنوار، وتسأل هناك عن عثمان رزة..

صاح كريم الدين في دهشة:

ـ خطاف العمايم..

ابتسم الشيخ زكي وهو يقول:

ـ لقد هداه الله الآن، وهو من مشاديد الأمير بيبرس البندقداري وأحسن أعوانه

فقال كريم الدين:

ـ عثمان رزة هداه الله.. هذا شيء لا يصدقه عقل أو يقبله فهم..

فقال الشيخ زكي:

ـ هداية الله تحل فيمن تشاء يا كريم الدين، أذكر الله يذكرك، وعثمان كان في أعماقه مؤمناً بالله موحداً مطيعاً كريم النفس، أنا بنفسي علمته القرآن في الكتاب. .

فصاح كريم الدين في دهشة:

ـ وهو من أبناء الحسينية:

واستأنف الشيخ زكي قائلاً:

ـ لقد علمته بنفسي يا كريم الدين، وأمه السيدة فاطمة ما زالت تسكن في حارة العتريس إلى الآن. . وأنا أعرف أنه لن يتأخر في تلبية الدعوة. .

وهنا قال أبو سريع:

ـ ولكنك قلت يا مولانا أنه من مشاديد الأمير بيبرس البندقداري، فهو تابع لواحد من الشلبية، وقد جربنا أتباع الشلبية وفعلهم فينا. .

وفي ضيق شوح الشيخ زكي بيده وهو يقول:

ـ ليس عثمان مثل الجعيدي أو النادي، أن فضله على بيبرس، ومن يدري ربما جعل بيبرس نفسه ينتصر لقضيتنا. .

وصاح أبو سريع في حماس:

ـ لو معنا عثمان رزة، فلا خوف من الآغا وكل الشلبية وكل عياقه ومشاديدهم. .

قال الشيخ زكي:

ـ سيكون معنا بإذن الله. .

هناك قال حميد الدين؛

ـ وأنا يا شيخ زكي إلى من تريدني أن أحمل رسالتك. . ؟

قال الشيخ زكي:

ـ أنت ستحمل الرسالة لمحمود المصارع في الـرميلة وقرة ميدان. .

وتردد الإسم في دهشة بين الأفواه الشابة المتحلقة حول الشيخ زكي، ودارت الهمهمات.

ـ محمود المصارع؟

ـ هلْ هو من أبناء الحسينية؟

ـ ولكنه أشهر مصارع في الرميلة؟

ـ لم يغلبه أحد أبداً. .

ـ هو الذي يدرب الشلبية على المصارعة. .

وعلا الشيخ زكي بصوته على الضجة التي أثارها إسم محمود المصارع وقال:

ـ الحسينية أرض معطاء يا أولاد، ولو قلت لكم عن أسماء علماء الدين والأدب والطب الذين خرجوا من الحسينية لذهلتم، ولكن هذا ليس وقته. .

قال حميد الدين:

ـ وماذا أقول لمحمود المصارع يا سيدنا الشيخ؟

قال الشيخ زكي:

ـ قل له يأتي معه بكفتة البهلوان. .

كما أثار إسم محمود المصارع همهمة ودهشة واضطراباً، أثار إسم كفتة البهلوان نفس الإثارة بين النفوس الشابة، وأسرع الشيخ زكي

يقول:

ـ كفتة البهلوان ابن الحسينية، ومهما ارتفع اسمه بين أبطال الرميلة وقرة ميدان فهو لا ينسى أنه تعلم كل حرفته على يد أولاد الحسينية. .

واندفع صيام يقول:

ـ كلهم عرفوا رسالاتهم إلا أنا يا أبي. .

قال الشيخ زكي وهو يبتسم ابتسامة مبهمة:

ـ لقد خصصتك أنت برسالة لن يعرفها غيرك ولن أخبرك بها إلا بعد أن ينصرف الجميع.

قال صيام وقد احمر وجهه:

ـ ولكن يا أبي. .

فقاطعه قائلاً:

ـ لا تتصور أنك لأنك ابني أبعدك عن المشقة، بالعكس لـ اخترت لك أخطر الرسائل وأهمها، فعليها يتوقف نجاح كل مـ نسعى إليه، ولولا أنها تحتاج رسالة إلى السرية الكاملة لقلتها أمام باقي إخوانك. .

هب أبو سريع واقفا وهو يقول:

ـ عرف كل منا رسالته، وسنلتقي في صلاة الفجر في الزاوية، والآن لننصرف. . .

قال عليوة:

ـ مشواري طويل ولا بد آن أستعد له بالنوم مبكراً . .

وقال حميد الدين:

ـ أنا متعب من العمل طول النهار، فأستأذنكم.

وقال كريم الدين:

ـ الوقت تأخر بنا، وأخشى أن تقلق أمي . .

وقام عوض الفران من مجلسه وهو يقول:

ـ تركناك بخير يا سيدنا الشيخ . .

ووقف الشيخ زكي يصافحهم، ويرقبهم وهم يتركون المندرة والدار واحدا أثر الآخر.

قال صيام في حنق:

ـ لقد صغرتني أمامهم جميعاً . .

قال الشيخ زكي وهو يغلق الباب ويتجه نحو (اللمبة) عند الجدار البعيد:

ـ بل أنا فضلتك عنهم في أكبر المهام سرية يا صيام . .

قال صيام وفي صوته حنق وثورة:

ـ بل أنت تجعلني أصغر الفتيان وأقلهم شأناً . . دائمًا . . دائمًا.

ـ يا بني إسمع . .

ـ بل إسمع أنت يا أبي . . أنا لا أريد معاملة خاصة لأنني ابنك، ولقد رفضت زمناً طويلاً أن تتركني أذهب إلى عم متولي النجار لأتعلم عنده صنعة النجارة، حتى هربت منك ومن دروسك، والآن أنت تمنعني من جديد أن أؤدي دوري كأي واحد منهم، تمنعني أن أكون رجلاً كأي رجل منهم . .

وصاح الشيخ زكي في انفعال حقيقي مقاطعاً صيام:

ـ أنت تقفز إلى النتائج وهذا خطأ . .

وصاح صيام حتى غطى صوته على صوت أبيه:

ـ بل اسمعني أنت: ياماكم سمعتك، معلمًا في الكتاب، وخطيباً في المساجد وواعظاً في الزاوية.. كلمات، وكلمات.. كأنك تحفظها عن ظهر قلب، كأنها شيء متكرر منحوت في داخلك.. ولكنك أبداً لم تحاول أن تعرف ما يجول في خواطر ونفوس الفتيان من عمري وهم يقفون أمامك معلمًا في الكتاب أو خطيباً في المسجد، وواعظاً في الزاوية..

صاح الشيخ زكي:

ـ وهل هذا وقت الحديث عن كل هذا يا صيام؟

قال صيام:

ـ وأي وقت أصلح من هذا، وأنت ترسل كل فتى منهم لأداء مهمة شاقة وخطيرة، ولو انكشف أمره فيها لكانت العاقبة سيئة له ولأهله، وأنا.. أنا وحدي لا مهمة لي تتركني أمامهم بلا رسالة، وكأنك تخشى عليَّ هبات النسيم، أو أن تدركني صيحات الديكة.. أي شيء عاجز أنا تخاف من ضعفه وتريد حمايته..

قال الشيخ زكي في اندفاع وانفعال:

ـ يا بني.. إن كنت تظن أنني لا أعرف كل ما يعتمل في صدرك فأنت واهم، إن كنت تحسب أنني لم أرقب إحساسك التدريجي بالإستقلال والرغبة فيه، فأنت واهم. أنا أحسست بهذا ورعيته، وحينما اخترت أنت معلمك ومهنتك تركتك لما اخترت.. أنا ما كنت أريد أن يكون ابني نجاراً، كنت أتمنى أن يكون مثلي رجل دين ومعرفة وتطلع دائم إلى كليهما.. ولكنك كنت تريد أن تعمل

بيديك، لم تجد أي محاولة مني لتغيير هذا، فماذا كان أمامي إلا أن أتركك لما قررت وأردت. . وهكذا تركتك تذهب إلى مهنة التجارة وهي مهنة شريفة رغم أني كنت أضعك في أحلامي في مكان آخر تماماً. .

قال صيام في خفوت:

ـ لن تعيش حياتي يا أبي. .

ـ أعرف يا بني أعرف، ولهذا تركتك تعمل نجاراً، ولم أرغمك على أن تكمل طريق العلم والدين. .

ـ والآن. .

ـ الآن أنا أرسلك في أشق مهمة وأصعبها، أرسلك إلى عبادة. .

ـ من؟

ـ نعم عبادة الدرويش هو وحده الذي سيستطيع أن يصلنا بالسراي. .

ـ أي سراي؟

ـ سراي الملك الصالح. .

ـ عبادة. . ؟ كيف؟

ـ عبادة درويش من أصحاب الصوفة، والوزير أيضاً من أصحاب الصوفة، فهما معاً على طريق واحد وإن كان أحدهما وزيراً والآخر صعلوكاً. .

ـ تعني الوزير شاهين وزير الملك الصالح أيوب. .

ـ تماماً يا بني. . أفهمت إذن كيف أنني أدخرتك لأصعب المهام وأشقها، فلو أنني أرسلت أي واحد من شباب الحي إلى عبادة

لأنكره، أما أنت، وأنت ابني فسيفهم وسيعرف أن أمراً عاجلاً وهاماً هو الذي دفعني أن أرسلك أنت، وأنت بالذات إليه.. أستذهب؟

أطرق صيام لحظات، ثم رفع وجهه مبللاً بالدموع ألى أبيه وهو يقول:

ـ هل تغفر لي؟

ابتسم الشيخ وهو يقول:

ـ طبعاً، وهل تفهم الآن..

قال صيام وهو يرفع رأسه في ثقة..

ـ نعم..

ـ وستذهب إليه؟

ـ ما رسالتك؟

ـ قل له، الإناء نضج بما فيه، والليل أقبل بأظلامه ودواهيه.. والآن الآن حان موعد البت في الأمر وما فيه.. أفهمت.

ـ فهمت يا أبي..

ـ إذن فامض على بركة الله، في الفجر بعد الصلاة تبحث عنه، وتبلغه الرسالة وتعود..

ـ أفعل..

وران الصمت بين الإبن والأب، وطال، لم يقطعه إلا صوت المفتاح يعمل في الباب، وتدخل المندرة السيدة أم صيام وهي تقول:

ـ خرج ضيوفك يا أبا صيام..؟

قال أبو صيام:

ـ وانتظرت عودتك يا حاجة. .

قالت أم ضيام:

ـ سمع الله منك، وكتبها لي في حياتك وبعزك يا شيخ زكي.

* * *

القسم الثالث

«العياق والشلبية»

(١)

كان صوت الشيخ زكي يشق صدر الليل بنداء الفجر الجديد، حين فتح باب السراي ليخرج منه المماليك مع أتباعهم من العياق كل إلى المكان الذي حدده له قوبلاي آغا في حارات الحسينية، وقبل أن ينتهي الآذان كان صوت تحطيم باب دكان يحيى الشماع الشربتلي يسمع في طول حارة على لوز وعرضها، وفتحت أم فكيهة مشربيتها مذعورة وهي تصيح:

لصوص.. اللصوص كسروا الباب.. النجدة.

وصاح بها قيمق

- اسكتي يا امرأة.. نحن أمراء الآغا.

وسكتت الست أم فكيهة وهي تحاول أن ترى في الظلام وقالت في صوت حذر:

- أمراء..؟ الباب تكسر وأنا سمعته بأذني.

وصاح بها قيمق من جديد:

- أنا كسرت الباب يا امرأة بأمر قوبلاي آغا، هل عندك

اعتراض . .

وأحست أم فكيهة بلفحة هواء تهب عليها من المشربية المفتوحة فمدت يدها إلى طرحة إلى جوارها تلف به رأسها وهي تستعد لحديث طويل مع هذا الشلبي الذي يعرف قوبلاي آغا، ويكسر الأبواب دون خوف، وبلا استئذان، وقالت:

ـ ولكنِ هذا الباب دكان سي الشيخ يحيـى الشمُاع

ـ دكان سي الشيخ يحـي الشماع ما أجمل هذا . . سيدك هذا يا امرأة خائن ويتعمل مع الفرنجة، ومن الآن هذا مركز الأمير قيمق يجمع منه ضريبة الجهاد التي هي فرض على كل مؤمن ومؤمنة، كل رجل وكل امرأة وكل طفل وكل شيخ . .

وشهقت أم فكيهة الدلالة وهي تحاول أن تخترق غبشة الفجر ببصرها لتميز أفراد هذا الجمع المتحلقين حول باب الدكان المفتوح، ثم قالت:

ـ ما يقوله الآغا يسري على العين والرأس يا جعيدي، ماله ولكن أخبرني ما هو الجهاد الذي له خزينة يا سي الشيخ جعيدي .

وضحك الشيخ محمد الجعيدي، وهو يقول:

ـ الفرنجة يا امرأة يريدون غزو المحروسة، ولا بد من جمع ضريبة الجهاد للدفاع عن المحروسة . . أفهمت؟

ـ فهمت يا سي الشيخ فهمت.

وصاح قيمق:

ـ كفى هذا الصراخ، وتعالوا هنا جميعاً، ارفعوا هذه الأواني

لنحيل هذه النصبة إلى نصبة يدفع عندها كل واحد. . وأنت يا جعيدي هات الأوراق والأقلام وابدأ في كتابة أسماء كلّ من في الحارة إسمًا إسمًا. .

وقالت أم فكيهة:

ـ ولكن يا سي الشلبي.

وصاح قيمق:

ـ اخرسي يا امرأة، وإلا كسرت عليك الدار، ودفنتك تحتها بالحياة.

قالت أم فكيهة مولولة:

ـ أنا من محاسيب الآغا وهانم الآغا، اسألوا الست شهوة هانم تخبرك أنني. .

وصاح قيمق:

ـ لا، هذا كثير، لا بد من قطع لسان هذه المرأة.

وقال الشيخ الجعيدي:

ـ لا يا أمير قيمق هي لا تقصد شراً، فقط هي جاهلة ولا تعرف ما تقول. .

ثم التفت إلى أم فكيهة وهو يقول:

ـ اقصري الشر، وادخلي. . لسانك هذا يأتي لك بالمهالك.

قالت أم فكيهة وهي تمد يدها تنزل المشربية:

ـ ادخل يا سيدي الشيخ، أدخل، وهل أنا قدر غضب سيدي الأمير الشلبي، أدخل يا أسيادي أدخل، واقطع لساني بيدي. . طبعاً أدخل.

وأغلقت المشربية في عنف، وابتسم قيمق وهو يقول للجعيدي:

ـ كله يخاف، كله يغلق المشربية ويدخل.. كله يدفع دون كلام.

تنهد الجعيدي وهو يقول:

ـ كله تمام يا أمير، الكل سيدفع، من الذي سيجرؤ على الإعتراض.

* * *

قبل أن تستيقظ حارة الليمون تمام الإستيقاظ كان كل من فيها قد عرف بأمر ما حدث في الوكالة: الشلبي الذي يحمل اللت ويقف علي مدخل الوكالة التي امتلأت بالعياق من مشاديده وأحدهم يصيح بأعلى صوته:

ـ بأمر الآغا قوبلاي.. ضريبة الدفاع من هذا الصباح فرض على كل دكان وكل صناعة وكل تجارة لا في حارة الليمون وحدها، وإنما في كل حواري الحسينية، وعلى كل تاجر ودكان وعلى كل صنايعي أن يقيد اسمه هنا في وكالة الليمون أمام الأمير قبلق.

قال عنتر وهو يخرج من بيته في حارة الليمون متجهاً الى الإصطبل:

ـ هذا صباح أغبر.. هل سمع أحد بمثل هذا من قبل؟

قال عم أحمد الفوال، وهو يضرب كفاً بكف.

ـ يا فتاح يا عليم، يا رزاق يا كريم.. لم نستفتح بدانق بعد، وهم يطلبون ضريبة غير كل ما يأخذون من ضرائب، ما اسمها يا عنتر يا ابني؟

ـ ضريبة الجهاد يا عم أحمد يا فوال..

ـ أي جهاد يا عنتر . . ؟

ـ اسأل الشلبي يا عم أحمد، أما أنا فقاصد الإصطبل أخرج بالعربة قبل الفجر لأصل إلى بولاق في الضحى، فعندي نقلة عسل من الصعيد لمخزن الحاج محمد أبو الأنوار. .

هز عم أحمد الفوال رأسه، وهو يقول:

ـ لا بد أن أسأله، وكيف لا أسأله.

وتقدم عم أحمد الفوال إلى باب الوكالة بينما انصرف عنتر ليبتلعه غبش الفجر الوليد، وعند الباب امتدت أمام عم أحمد عصاً طويلة، وصاح صوت لزج طري:

ـ مكانك فالوكالة مغلقة إلا أمام من يدفعون ضريبة الدفاع.

أزاح عم أحمد الفوال العصا من طريقه وهو يقول:

ـ ابعد عصاتك يا محمد يا شناوي، فمثلك لا يرفع عصاته في وجه مثلي.

وضحك صاحب العصا ضحكة رفيعة وهو يدفع بطرف العصا في صدر عم أحمد الفوال ويقول:

ـ مكانك يا عم أحمد، إلى أين؟ كيف تدخل الوكالة وكأنها بلا بواب؟

ـ وهل عملك أصحاب الوكالة بواباً لها. . ؟

ـ أصحاب الحل والعقد، وأصحاب الأمر في الحسينية كلها، قوبلاي آغا، والأمير قبلق. .

ـ وأصحاب الوكالة يا محمد يا شناوي. . ؟

وعادت الضحكة الرقيعة تخرق وجه الفجر، وصاحبها المكتنز

المترجرج يقول في استمتاع:

ـ أصحاب الوكالة من يا عم أحمد. . ؟ لقد كبرت وخرفت.

وصاح به عم أحمد الفوال:

ـ أسكتْ يا ولد.

فصاح صوت فتى من داخل باب الوكالة يرطن الكلام ولا يقيم حروفه يقول:

ـ من يزعق بصوته يا محمد. .

قال الشناوي بابتسامة خبيثة:

ـ واحد ممن يظنون أنفسهم أعلى مني ومن أمثالي، وأهم من الأمير، بل ومن قوبلاي آغا نفسه. .

وصاح صوت قبلق في غضب:

ـ من هذا، هل هو السلطان الملك الصالح أيوب. . أم من؟

قال عم أحمد الفوال:

ـ لا سلطان ولا ملك، أنا أحمد الفوال.

وعاد صوت قبلق يزعق من مدخل الوكالة:

ـ وماذا تريد يا محمد يا فوال؟

ـ أريد قدرة الفول. .

ـ قدرة الفول. . ؟ ماذا يعني هذا الفلاح يا محمد يا شناوي. .

ضحك محمد الشناوي في استمتاع حقيقي وجسده كله يهتز ويترجرج، وهو يتأمل في ملامح عم أحمد الفوال المليئة بالدهشة والعجب، وقال وهو يضغط بطرف العصا على صدره.

ـ عم أحمد الفوال، يسوي (قدرة) الفول في المستوقد في آخر

الوكالة، ولا بد له أن يدخل الوكالة ليأخذ قدرة الفول التي يقف بها عند أول حارة الليمون كل صباح يبيع للناس الفول لإفطارهم.

صاح قبلق في دهشة:

ـ الناس تأكل الفول في الصباح:

قال أحمد الفوال في غضب:

ـ قلت لك ابعد عصاك يا محمد يا شناوي، أنا أعرفك وأعرف فضائحك، ما أنت إلا طنجير، أتفهم، طنجير، ومن الذي لا يعرفك في حارة الليمون كلها.

ولم يغضب محمد الشناوي، وإنما ازداد ضغطاً بطرف العصا على صدر عم أحمد الفوال وهو يقول في صوت لزج خبيث:

ـ أسمعت يا أمير قبلق هو يشتم مشاديدك وعياقك.

وخرج قبلق منتفض الشارب، مزمجر الوجه، محمر العينين وهو يصرخ:

ـ فلاح لا يشتم عياق قبلق، فلاح يسكت، يدفع، فلاح يسمع ويطيع.

وفي صوت هادىء قال عم أحمد الفوال وهو يزيح طرف عصا الشناوي الطنجير من صدره:

ـ أنا راجل على باب الله يا عم شلبي، قدرة الفول هي رزقي، أقف بها على باب الحارة ليفطر الناس ويصلون على النبي، صلي على النبي يا شلبي.

ووجد قبلق نفسه يقول دون تفكير:

ـ عليه الصلاة والسلام.

قال عم أحمد الفوال وهو يتقدم إلى داخل الوكالة:

ـ زيد النبي صلاة يا شلبي.

وقال الشلبي:

ـ وعليه السلام.

قال عم أحمد الفوال وهو يواجه الشلبي ويمد يده ليضعها فوق ذراعه المفتول:

ـ يا ابني يا شلبي، أليس الناس يحتاجون إلى الإفطار في الصباح..؟

قال قبلق وهو يهز رأسه:

ـ تمام فلاح تمام.

واستمر عم أحمد الفوال يقول وهو يقود الشلبي من ذراعه إلى داخل الوكالة:

ـ أولست تعرف أننا في المحروسة نأكل الفول والعدس والبصل والثوم..

قال الشلبي:

ـ تمام فلاح تمام، هذا جاء في القرآن الكريم.

وقف عم أحمد الفوال، وأوقف الشلبي معه وقال وهو ينظر إلى عينيه:

ـ الناس لا بد أن يفطروا يا شلبي، وإلاَّ فكيف يذهبون إلى أعمالهم، ويحصلون أرزاقهم ويدفعون الضرائب المقررة عليهم..

قال قبلق وهو يطرق برأسه الشقراء:

ـ تمام فلاح تمام.. الناس لا بد يفطروا، ويذهبوا إلى أرزاقهم.

قال عم أحمد الفوال، وهو يترك ذراع الشلبي.
ـ وإفطارهم الفول، وقدرة الفول في المستوقد، والمستوقد في اخر الوكالة، ولا بد لي أن أذهب إلى هناك لأحضر قدرة الفول وأضعها أمام الحارة لأبيع لهم الإفطار تمام.. يا شلبي.
قال قبلق:
ـ تمام يا فلاح.
وصاح محمد الشناوي في صوته الرفيع:
ـ إسمع يا أمير، هذا الرجل خبيث ويلعب بعقل الرجال.
صاح فيه عم أحمد الفوال:
ـ إخرس يا طنجير..
قال قبلق في حيرة:
ـ ولكن اسمه محمد الشناوي وهو من عياق الأمير قوبلاي آغا يا فلاح.
قال عم أحمد الفوال، وفي صوته صبر عريق:
ـ يا شلبي لا تسمع لهذا الولد، فهو طنجير..
سأل الشلبي:
ـ ما هو الطنجير..؟
قال عم أحمد الفوال:
ـ هو ولد تلفان والسلام ولا تسمع له كلاماً.
صاح محمد الشناوي:
ـ الرجل أكلك يا شلبي.
وفي غضب صاح قبلق:

ـ أمير يا كلب.. أتفهم.. أمير، أنا ولي نعمتك، حذار أن تخطىء في تسميتي مرة ثانية هؤلاء فلاحون جهلة لا يعرفون قدري، مسموح لهم أن يسموني شلبي، ولكن أنت تأكل من يدي، أفهمت يا كلب.

وتضاءل محمد الشناوي، واهتز كرشه، واختلج جسده كله، وهو يحاول أن يختفي خلف بوابة الوكالة وهو يقول:

ـ أنا مشدودك يا أمير قبلق، فلماذا تغضب مني..؟

قال عم أحمد الفوال، وكأن ما دار من شجار بين الإثنين لم يحدث:

ـ لو أنا لم أخرج بقدرة الفول يجوع الناس، وحين يجوع الناس لا يعملون، وحين لا يعمل الناس لا يكسبون، وحين لا يكسب الناس من أين يدفعون المكوس.

هز الشلبي رأسه وقال:

ـ كلام تمام.. ونحن هنا لنجبي المكوس الجديدة.. ضريبة الدفاع يا فلاح..

ـ أي دفاع يا شلبي؟

ـ الفرنجة يريدون النزول إلى البر ولا بد من الدفاع عن البلد، تمام فلاح.

ـ تمام يا شلبي.

ـ كيف ندافع دون أموال، تشتري السلاح.

ـ والمماليك يا شلبي.

ـ تمام فلاح تمام.

ضحك أحمد الفوال، وهو يقول:

ـ لا، لكم الحق كله في ضريبة الدفاع هذه.. ولكن من الذي سيدفعها، والناس تدفع ضريبة المال والعقار من دمها وكما قررها السلطان.

قال الشلبي في عنف:

ـ لا هذه لا تدفع من الدم يا فلاح.. قوبلاي آغا أمر أن تدفع هذه الضريبة على كل دكان وصناعة وتجارة.

هز عم أحمد الفوال رأسه وهو يقول:

ـ رحيم الأمير قوبلاي آغا.. وأنت الذي ستحصل هذه الضريبة.

ـ من اليوم، ومن هذه الوكالة.

تنهد عم أحمد الفوال، وقال وهو يتجه إلى داخل الوكالة دون أن يعترضه أحد:

ـ طبعاً رحيم، ليس من دم وإنما من الدكاكين والصنايع والتجارة.

ثم توقف وهو يلتفت إلى الشلبي:

ـ إسمع يا أمير.

ابتسم قبلق وهو يلتفت إلى عم أحمد الفوال ويقول:

ـ نعم يا معلم.

ـ ما رأيك سأوزع هذا الخبر مع كل طبق فول أبيعه هذا الصباح فأكفيك مؤونة المنادي، وتضمن أن الخبر سيصل إلى كل إنسان لا في حارة الليمون وحدها، وإنما في كل حارات وأزقة الحسينية كلها.

قال قبلق:

ـ عفارم معلم. . .

وصاح محمد الشناوي وهو يتميز غيظاً:

ـ هو يسخر منك يا أمير قبلق.

صاح فيه قبلق منتفخ الأدارج:

ـ إخرس يا طذ. . طذ. . طذ ماذا يا معلم؟

ضحك عم أحمد وهو يبتعد عنهم ويقول:

ـ طنجير يا أمير. . محمد الشناوي هذا طنجير من طناجير الحسينية. . وهو عندي لا يساوي ثمن طبق فول واحد.

* * *

كانت حسنية (تزعد) خالتها أم سلامة الداية النائمة إلى جوارها عند فتحة باب الدار المفتوح دائماً تحسباً لكل طارق أو طارقة يطلب من أم سلامة أن تسرع لنجدة حامل في لحظات وضعها، وتململت أم سلامة وتثاءبت وانقلبت على جانبها الآخر. . (فزغدتها) حسنية مرة أخرى في جنبها الذي أصبح يواجهها وهي تقول همساً:

ـ أصح يا خالة. . أصح يا خالة أم سلامة.

قالت أم سلامة وهي بين النوم واليقظة:

ـ مجبورة بإذن الله. . وتقوم بالسلامة بحق كرامة النبي محمد.

هزتها حسنية وهي تهمس من جديد:

ـ قومي يا خالة. . أفيقي.

أزاحت أم سلامة النوم المتغلب على عينيها ورأسها بصعوبة كما

تفعل عند كل نداء لها يأتي مع الفجر، وانتفضت واقفة وهي تقول:

- أين المداس وأسرعي بالملاءة والشال يا حسنية، وقولي لهم يسخنون الماء واحفظي العنوان وسنكون وراءهم فوراً.

أمسكت بها حسنية وجذبتها إلى الأرض بشدة، فانحطت أم سلامة بعنف في مكانها. وهي تقول:

- خير يا حسنية يا بنتي.. جعله الله صباح خير بإذن الله.

قالت حسنية في لهجتها الهامسة التي تنبهت لها أم سلامة الداية لأول مرة:

- يا خالة لا ترفعي صوتك، انظري ماذا يحدث في مدخل الحارة.

- يحدث..؟ خير انشاء الله.

وحملقت أم سلامة الداية في مدخل حارة الفراخة حيث يتقدم مجموعة من الرجال في أيديهم (الشوم) ناحية باب مغلق الخشب، ثم يتوقفون، ويتقدم إثنان منهما فيبدآن في تحطيم الباب. وصاحت أم سلامة وهي تتجه إلى ناحية الحوش اليمنى وتمد يدها تهز زوجها أبو سلامة:

- أبو سلامة.. أبو سلامة.. أصحَ يا راجل.. إنهم يحطمون باب المغلق قم يا رجل..

وهب أبو سلامة من نومه مذعوراً وهو يتحسس مكان طاقيته، ليضعها فوق رأسه ويقول:

- هات العصا يا حسنية والمداس يا أم سلامة.. أيسرق المغلق ونحن موجودون..

قالت حسنية وما زال صوتها يهمس رغم ارتفاع أصوات من وقفوا عند مدخل الحارة، وتجاوب كل حارة الفراخة بالضربات العنيفة على الباب الخشبي:

ـ يا خالي هؤلاء ليسوا لصوصاً، هل سمع أحد بلصوص يسيرون جماعة، ويكسرون الباب علانية وأمام كل الإسماع.

دقت أم سلامة الداية على صدرها وهي تقول:

ـ هذا صحيح يا أبا سلامة.. أنتظر، فلا يمكن وحياة السيدة أن يكون هؤلاء لصوصاً..

واتجه أبو سلامة إلى فرجة الباب وأخذ ينظر إلى ما يحدث أمامه عند مدخل الحارة وعلى يمينه حسنية وعلى يساره أم سلامة، وقال:

ـ اليس هذا عوض النادي يا أم سلامة؟

قالت ام سلامة:

ـ نعم، هو بعينه، أنا ولدت أمه فيه فكيف لا أعرفه..

وقالت حسنية:

ـ وهذا الذي معه شلبي يمسك لتا.

شوح أبو سلامة بيده وقال:

-؛هؤلاء أتباع الآغا فمالنا نحن ومالهم.

وعاد إلى حيث ينام في جانب من (حوش) المنزل وهو يقول:

ـ مالنا ومالهم، نحن في حالنا وهم في حالهم.

قالت حسنية وما زال صوتها هامساً:

ـ ولكنهم يحطمون باب المغلق يا خال..

قال أبو سلامة:

ـ لا المغلق مغلقنا، ولا ما فيه يصلح للسرقة.

قالت أم سلامة الداية وهي تجلس إلى جوار فرجة الباب:

ـ كسروا الباب يا حسنية، أخرجوا النصبة يا أبا سلامة، واحد منهم يقف إلى جوار الباب يا حسنية.. هو عوض النادي يا أبا سلامة.

وقطع عليها استرسالها في الحديث صوت عوض النادي يشق صدر الفجر وهو يصيح:

ـ بأمر الأمير قوبلاي آغا، آغا الحسينية، يجبي الأمير طقمق من اليوم ضريبة الأمن وهي واجبة شرعاً لتهديد الفرنجة لسواحل المحروسة على كل حارة وكل درب، وكل زقاق.. والحارة التي لا تدفع ضريبة الأمن تغلق على ساكنيها، والدرب الذي يرفض دفع ضريبة الأمن لا يخرج من فيه إلى غيره، والزقاق الذي يتمنع عن سداد ضريبة الأمن، زقاق مسدود إلا لمن دفع الضريبة وأداها ليرضي الدين والشرع والسلطان والآغا..

قالت أم سلامة الداية في انفعال:

ـ هل سمعت يا أبا سلامة؟..

قال أبو سلامة وهو يستلقي في مكانه ويفرد ساقيه إلى آخرهما..

ـ سمعت يا أم سلامة.. اذهبي ونامي.. فنوم الفج موصوف.

قالت حسنية:

ـ سيوقظون كل أهل الفراخة بهذا الصياح.

قال أبو سلامة:

ـ وسينامون بعد أن يستيقظوا، ناما والصباح رباح . .

وقالت أم سلامة:

ـ يا أبا سلامة، ما هي ضريبة الأمن هذه . . ؟

قال أبو سلامة وهو يعدل رأسه فوق الحشية الخشنة :

ـ مولود جديد يا أم سلامة ولدته ليلة الأمس .

قالت أم سلامة وهي تتكور في جلستها على منامها إلى جوار فرجة الباب :

ـ مولود جديد . . إسم الله عليك يا سي أبي سلامة . . لا جاء أحد، ولا نادانا أحد، فمن إين المولود الجديد؟

وضحك أبو سلامة وهو يقول:

ـ من بطن الليل يا أم سلامة . . الليالي حبالى تلد العجائب يا أم سلامة .

قالت أم سلامة وهي تدق صدرها بيدها . .

ـ ماذا جرى لك يا سي أبي سلامة . . تقول كلاماً لا معنى له . . أم أنك تتمسخر علي .

قال أبو سلامة :

ـ لا لا أتمسخر ولا يحزنون، أتركي الخلق للخالق .

قالت حسنية :

ـ ولكن يا خال لقد حطموا باب المغلق، ومن يدري ربما ضاع ما فيه من أخشاب .

أدار أبو سلامة ظهره لها وهو يضع ذراعيه حول رأسه ويقول:

ـ المغلق ملك الحاج محمد أبو الأنوار، والشلبي من أتباع الآغا

قوبلاي، والآغا والحاج أعز أصحاب . . ما لنا نحن ومال الناس.

قالت الست أم سلامة الداية:

ـ ولكن يا أبا سلامة، الحاج مسلم وهذا ماله.

وفي صوت ناعم قال أبو سلامة:

ـ والآغا مسلم وهذا صاحبه.

ثم ضحك وكأنما لشيء في أعماقه هو وحده وقال:

ـ قلت لك دعي الخلق للخالق، مالنا نحن، لا المغلق مغلقنا، ولا الخشب خشبنا، ولا طقمق هذا صاحبنا، ولا عوض النادي من باقي أقاربنا، ولا الضريبة ضريبتنا، على الحارة والزقاق والدرب، ونحن لا حارة ولا درب ولا زقاق. . نامي يا امرأة نامي.

ـ ٢ ـ

ما أن أنهى الشيخ زكي صلاة الفجر، حتى استدار إلى المصلين وجلس. . وواحداً واحداً جلسوا حوله في صمت وترقب. . طوال الصلاة كان اللغط من كل مكان، ففي فجر هذا الصباح استيقظت الحسينية كلها قبل موعد استيقاظها المعتاد بزمان. . وجلس كل من في الزاوية في صمت يتلفتون حولهم عند دخول كل وافد جديد يحمل لهم خبراً جديداً مما يحدث في حواري الحسينية من مدخل الصحراء إلى باب الفتوح إلى حارة على لوز. . وكان كل وافد جديد ما أن ينهي ما عنده من أخبار، يجلس مع المصلين حول الشيخ زكي في رهبة ينتظر هو الآخر الأنباء الجديدة الوافدة من مكان جديد. .

وصاح الأسطى شلضم فجأة:

ـ وحدوه . .

وارتفعت كلمة التوحيد من كل مكان في الزاوية . .

ـ لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وفي هدوء قال الشيخ زكي:

ـ سأغلق الزاوية بعد الفاتحة، وليقصد كل إلى ما رسم له.

قال الأسطى شلضم:

ـ لست أفهم يا سيدنا الشيخ . .

ـ قال الشيخ زكي وهو يجيل بصره بنظرة ذات معنى في وجوه الفتية الذين انبثوا في أرجاء المسجد المختلفة . .

ـ أعني يا أسطى شلضم أن كل فرد فينا عليه واجب يؤديه، فليؤده الآن . .

واخذ فتيان الحسينية يغادرون المسجد واحداً إثر الآخر، وتبعهم آخرون ما أن أحسوا بحاجز الصمت والترقب قد انكسر حتى بدأو يتحركون كل إلى غايته، بينما قال الأسطى شلضم

ـ واجب؟ وهذا الذي يحدث في الحسينية هذا الصباح، وما حدث أمس . . والمعلم عقيرب والشيخ يحيى الشماع . .

بهدوء شديد قال الشيخ زكي:

ـ ياأسطى شلضم هذا مكان للعبادة، وليس مصطبة للحكايات. من لديه حكاية يخرج يحكيها في بيته أو في دكانه، الآن نقرأ الفاتحة، ونغادر المسجد.

ورفع يديه وأخذ يتلو الفاتحة في صوت هامس، وقد تبعه كل من

في الزاوية، يرفعون أيديهم ويتلون الفاتحة في صمت، ووجد الأسطى شلضم نفسه يرفع كفيه الى وجهه مثلهم جميعاً ويتلو الفاتحة بينه وبين نفسه، ولكنه حين انتهى منها أسرع يقول:

ـ يا شيخ زكي أنت أمامنا، ورجل الدين فينا، هل يرضيك ما يحدث، وهل نسكت عليه..

ووقف الشيخ زكي وحمل نعليه بيده وهو يتجه إلى باب الزاوية ويقول:

ـ أمر دينكم أنا أفتيكم فيه، أما أمر دنياكم فهو موكول إليكم، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.. أكرمكم الله.. أخلوا الزاوية حتى نغلقها..

ووقف عند الباب حتى خرج آخر المصلين ثم وضع مداسه على الأرض خارج الزاوية وخرج يرتديه ويغلق الزاوية، بينما وقف الأسطى شلضم عند باب الزاوية يكلم نفسه، ويتلفت حوله في ضيق وقلق.. وقال له الشيخ زكي..

ـ يا أسطى شلضم، الإصطبل يحتاج إليك الآن، وقد مات علاء الدين وسجن المعلم عقيرب..

وكأنما فجر الشيخ زكي بركاناً هامداً، صاح الأسطى شلضم في انفعال:

ـ لجأت إلى الرجال فإذا كل منهم ينصرف لحاله، فلجأت إلى الحاج أبو الأنوار فإذا به يتهم عم داود السروجي ويتهمنا جميعاً بأننا خونة، لجأت إلى بيت الله فإذا به يقول أن الأمر موكول إليكم فماذا نفعل يا شيخ زكي ماذا نفعل؟

ظل الشيخ زكي ينظر إليه لحظات ثم تنهد ووضع يده على ساعده، وساقه أمامه بعيداً عن باب الزاوية وهو يقول:

ـ يا أسطى شلضم، هذا أمر لا يحله الغضب وحده، وفي بيت الله نور لهدايتنا أما في بيوتنا فنحن نتدبر أمورنا بأنفسنا. .

قال الأسطى شلضم وهو يلتفت ألى الشيخ زكي:

ـ ماذا تعني يا مولانا؟

ـ لا شيء يا أسطى شلضم غير ما تعنيه كلماتي، أنتم رجال أنضجتكم التجربة، وصهرتكم الحياة، وتعرفون ما هو أصول، ما هو واجب.

صاح الأسطى شلضم:

ـ وماذا نفعل بهذه المعرفة حقاً نحن نعرف الأصول ونعرف الواجب، بل نحن في الحسينية يا شيخ زكي كما تعلم أهل الأصول وأهل الواجب. .

قاطعه الشيخ زكي قائلاً:

ـ ولهذا من العيب يا أسطى شلضم أن يعلمكم أحد الأصول أو الواجب.

وضرب الأسطى شلضم كفاً بكف وهو يقول:

ـ ماذا نفعل يا شيخ زكي، قل لي ما هو الأصول في مثل ما نحن فيه، ما هو الواجب وأنا أفعله. .

في هدوء شديد قال الشيخ زكي:

ـ ليس مثلي من يعلم أهل الأصول معنى الأصول، ولا أهل الواجب، ما هو الواجب. .

ولملم الشيخ زكي جبته حول جسده وانطلق تبتلعه غبشة الفجر وهو يسبح باسم الله، بينما وقف الأسطى شلضم يتبعه ببصره في صمت ونفسه تجيش بانفعالات شتى لا يستطيع ضبطها أو فهمها، فقط أخذ يضرب كفاً بكف وهو يقول:

ـ والله احتار أهل الأصول والواجب يا شيخ زكي . . والله احتار أهل الأصول والواجب . .

* * *

مع إشعاعات الضوء الأولى وصل أبو سريع إلى الساحل، لم يكن المشوار طويلاً، فقد قطعه غارقاً في أفكاره ومشاعره المتضاربة المتصارعة فلم يكد يحس به . . وكانت النسمات هنا أرق من النسمات في الحسينية وكان النيل ينبسط أمامه ساكناً هادئاً، أحس أنه أخف وزناً من لحظة غادر الزاوية ومن فيها بجلستهم الكئيبة وصمتهم الحزين . . وكان ندى الصباح مختلطاً بروائح الأعشاب وماء النيل وفضلات ملأت شاطئه، كما كان سكون الصباح يشوبه نقيق ضفادع وصرير صراصير لا يراها تجمعت حول الأعشاب النامية عند الحافة، ورجرجات ماء النيل وهو يصطدم بالشاطىء في حذر وهدوء، وصياح عصافير تقفز من فوق أغصان شجيرات عجوز تنام فوق النهر في صمت كئيب حزين، وتمد أغصانها كإنما تريد أن تغوص بها في مائه الساكن يلمع مع أشعة ضئيلة تلوح للصباح الوليد . .

وتلفت أبو سريع حوله في رهبة، وإن ملأ قلبه سكون مريح انتظمت معه دقات قلبه التي لهثت طوال سعيه الحثيث إلى ساحة

النهر. . وملأ رئتيه بهواء النهر الندي، ثم زفر زفرة طويلة وهو يتلفت حوله في فضول. . وصاح به صوت أجش. .

ـ الأخ يبحث عن أحد؟

وتلفت حوله محاولاً أن يحدد مصدر الصوت، وهناك عند حافة أحد المراكب الكبيرة التي تقف عند ناصية المرسى، كان رجل قد مضى يتوضأ من ماء النهر القريب، وكان ينظر إليه وشاربه الكثيف يسيل منه ماء الوضوء. . وكان الوجه مليئاً بابتسامة ترحيب حلوة تشابه الصباح الحلو، وتقدم أبو سريع على استيحاء وهو يقول:

ـ جئت أبحث عن المعلم شعبان أبو ضفر. .

وصاح الرجل وهو يعود الى وضوئه:

ـ طلبك عزيز يا ولد العم. .

واقترب أبو سريع من حافة النهر حيث تقف المراكب ترتفع منها الصواري بلا أشرعة، وعلى سطحها أشياء مغطاة بملاءات ملونة باهتة، ولا أحد فوقها إلا هذا الرجل الذي يتوضأ في صمت عند حافة القارب القريب من الشاطىء، ومضى يرقب في صمت وفضول العضلات البارزة، والمتقلصة من الساعدين المفتولين والصدر العريض المليء بالشعر الأسود الكث، والرأس المجعد الشعر الذي يقطر الشعر فيه ماء كما يقطر الشارب بالماء اللامع مع انعكاسات أشعة الشمس الوليدة الحبيسة التي تزيح الظلام في بطء وثقة، ولكن في استحياء وأدب. . وليس يدري لماذا أحس أن الكون كله حوله ينضح بالأدب والإستحياء. . كما ينضح بالثقة والهدوء. . وأنهى الرجل غسل قدميه، ثم وقف، ودهش أبو سريع

حين أدرك أن الرجل قصير، ليس عملاقاً كما كان يظنه وهو جالس عند حافة المركب، كان في طوله، بل ربما أقصر منه بعض الشيء، وقال الرجل:

ـ هل تحب أن نصلي الصبح جماعة؟

قال أبو سريع ونسمات تداعب شعره وجلبابه:

ـ صليت الفجر حاضر يا ابن العم.

قال الرجل وهو ينزل طيات كمه، ويفرد جلبابه المطوي:

ـ ونعم وأكرم. .

ثم توجه إلى القبلة وهو يبسمل ويحوقل ويدير بصره في السماء، ثم قال:

ـ خادمك هريدي من أبو تيج أعمال أسيوط قبلي ما أسم الكريم؟

وابتسم أبو سريع وهو يقول:

ـ أبو سريع من حارة على لوز من الحسينية.

ورفع الرجل ذراعيه في حركة هادئة، ونوى للصلاة، ثم نسي كل شيء عن أبي سريع وهو يتجه إلى القبلة في صلاة استغرقت كل وجوده وكيانه. . ووقف أبو سريع يرقبه وهو يؤدي صلاته في خشوع، وكل شيء حوله يموج بإشراقة الفجر، وولادة الحياة. . وحين فرغ هريدي من صلاته، قال من مكانه على المركب:

ـ ألا زلت تنتظر أن تجد المعلم شعبان يا ولد العم؟

ولم يجب أبو سريع، فأشار هريدي بيده إلى حافة المركب وهو يقول:

ـ السقالة علي يمينك، تعال إشرب الشاي ثم نتحدث عن زيارتك للمعلم شعبان.

ثم صاح متوجهاً بوجهه إلى وسط المركب.

ـ يا مكادي . . يا مكادي.

وليس يدري أبو سريع من أين ظهر مكادي، رفيعاً معروقاً شديد السمرة، لا تظهر ملامحه الحقيقية عمره، ولكنه برز في وسط المركب كإنما بفعل ساحر، ورد على صياح هريدي بقوله:

ـ صباح الخير يا هريدي، صبحنا وصبح الخلق على فيضه.

قال هريدي وهو يشير إلى أبو سريع الذي كان يتجه ناحية السقالة.

ـ ضيف للمعلم شعبان أبو ضفر، أسرع واخبره فهو يصلي الصبح في التعريشة قل له ضيف اسمه . .

ثم التفت إلى أبي سريع الذي كان ينقل قدميه إلى حافة المركب وهو يحافظ على توازنه

ـ ماذا قلت اسم الكريم؟ . .

قال أبو سريع:

ـ قل له رسول من عند الشيخ زكي أمام زاوية حارة على لوز بالحسينية.

صاح هريدي:

ـ سمعت يا مكادي . ؟

قال مكادي:

ـ سمعت يا ابن العم.

وقال هريدى وهو يمد يده مصافحاً أبو سريع.

ـ مرحباً بك في مركبنا يا ولد العم.. ضيف المعلم شعبان ضيفنا، وسيكون الفطور جاهزاً والشاي معداً قبل أن يصل المعلم شعبان أبو ضفر.

* * *

هز الشيخ أبو المكارم ذقنه المليئة بالشيب، ومد يده يقود عليوة إلى جانب من المسجد الرحب، وأجلسه امامه وهو يقول:

ـ تقول الوقت قد جاء، والشيخ زكي يريدني أنا والتلاميذ؟

قال عليوة وهو ينظر إلى وجهه الهادىء الرقيق الملامح في افتتان...

ـ قال لي أن أخبرك أن هذا يومكم..

هز الشيخ أبو المكارم رأسه في بطء وهو يقول:

ـ انتظرنا طويلاً أن يأتي اليوم.. وكلما تبدت شواهد تقول أنه جاء، تظهر شواهد أخرى تقول أنه ليس اليوم المنتظر، فنسكت من جديد، وتمر الأيام تليها الأيام، واليوم لا يجيء، وكم كنت أخشى أن تنتهي أيامي فوق الأرض ولا أشهد اليوم..

لم يكن عليوة يفهم شيئاً مما يقوله الشيخ أبو المكارم، ولكنه كان يحس أن أمراً عظيًما يتقرر بوجوده، وربما بسبب رحلته هذه إلى مسجد الإمام الشافعي، قاطعاً الأرض الصحراوية الواسعة بين الحسينية والإمام الشافعي.. ووجد نفسه دون أن يدرك ما يفعل يسأل الشيخ الهرم الوقور الذي أجلسه قبالته:

ـ أنا فتى جاهل يا مولانا لم أفلح في الكتاب، ولم أكمل حفظ

القرآن الكريم، ركبتني الشقاوة حتى كنت لا أصبر على عمل، ولا أقوى على المثابرة في دكان واحد ومهنة واحدة، ولكني أجرؤ وأسأل، ما هو الوقت، وما هو اليوم الذي تنتظره وما علاقة هذا كله بما حدث أمس ويحدث اليوم لنا في الحسينية وحاراتها.

تنهد الشيخ أبو المكارم، ونظر إلى عليوة نظرة حانية وهو يربت على كتفه ويقول:

ـ لم يعد في الأمر سر يا بني، فقد يعرف الجميع ما أخفيناه طوال هذه السنين والأيام..

وصمت وقد تاهت عيناه في نظرة لا ترى ما أمامها، وإن كانت ترى وحدها أشياء ما لا مكان لها ولا زمان، ووجم عليوة وأحس بجسده كله يرتجف تحت يد الشيخ المعروقة التي تضغط على كتفه..

وارتفع صوت بالتكبير في أحد أرجاء المسجد الكبير فتنهد الشيخ أبو المكارم وهو يقول في بطء، وعيناه تعودان لرؤية ما حوله تدريجياً:

ـ من سنوات وسنوات جمعنا سيدي الأشرف حوله في نفس هذا الجامع وقال لنا، لا خير في دين لا ينفع دنيا.. حافظوا على أنفسكم ودينكم فيوماً ستحين الساعة التي تريد فيها الدنيا كلمة أبناء الدين، وساعتها اخرجوا بأعلامكم وبيارقكم لنصرة معنى الحق، معنى أن يعيش الإنسان حراً لا عبداً، مريداً لا ذليلاً، قوياً لا ضعيفاً، قادراً لا عاجزاً.. وساعتها ستهتز المحروسة لصوتكم، ومن ساعتها سيسمع كل أبناء المحروسة كلماتكم، ويتوارثونها جيلاً وراء جيل، وعهداً وراء عهد.

وتنهد الشيخ أبو المكارم.. وهو يرقب اقتراب شابين يافعين التفا

في رداء المشيخة ووضعا على رأسيهما عمامات مدورة، ويجلسان أمامه من بعيد ، وقال:

ـ ومن ساعتها ونحن نحافظ على ديننا ونرقب دنيانا ليوم تريده الدنيا ويأمر به الدين. . ماذا قلت اسمك يا بني؟

قال عليوة وهو يطرق إلى الأرض:

ـ خادمك عليوة يا مولانا.

ضحك الشيخ، وربت على كتف عليوة، ثم وقف عليوة لوقوفه، وقال:

ـ شيخك الشيخ زكي كان زميلي، وهو الآن شيخ زاوية الحسينية، وكذلك أخي في الدين الشيخ معروف في اللوق، والشيخ أبو العلا في بولاق، والشيخ محروس في إمبابه، والشيخ صابر في القطائع. . ولكن عزلت بيننا الأيام، وانصرف كل منهم إلى زاويته ومسجده، وظللت أنا هنا أحمل رسالة سيدي الأشرف لأجيال جديدة من التلاميذ أعلمهم، و أتعلم، وأجعلهم يترقبون وأرقب معهم الساعة التي يمتزج فيها الدين بالدنيا، والتي تعلن فيها بيارقنا أننا معشر أهل الدين لنا رأى في المحروسة وما يجري فيها. .

وابتلع عليوة ريقه في صعوبة وهو يقول:

ـ وماذا أقول للشيخ أبو المكارم،

ومر بيده على لحيته وهو يقول:

ـ قل له يا بني. صاحب الوقت لا يهرب من وقته، والله غالب، ومنه وله الأمر.

* * *

كاد حميد الدين ينسى نفسه، وينسى الرسالة التي جاء يحملها إلى الرميلة، وسط زحمة الميدان الواسع وصخبه، فعلى الرغم من الساعة المبكرة التي وصل فيها حميد الدين إلى الميدان إلا أنه كان يموج بالحركة ويصخب بالحياة، ففي كل مكان في الميدان نصبت الخيام والنصبات، وارتفع المزمار من ناحية يرقص الخيل وقد التفُ حول الراقص وحصانه جمع كبير، وفي ناحية أخرى لاح وهج النيران التي تندلع فجأة ثم تختفي وصيحات آكل النيران ترج الميدان وهو يصرخ..

- صلوا على النبي.. صلاة النبي أحسن، صلاة النبي تكسب.

وفي ناحية التف جمع كبير حول ديكين يتصارعان، وقد وقف خلف كل ديك منهما صاحبه يحثه على الهجوم وتمزيق خصمه، وقد نفر عرفا الديكين اللذين امتلأ ريشهما ومنقاريهما بالدماء، وحين مر حميد الدين من أمامهما كان الديك الأسود ينقض بوحشية على الديك الأحمر الذي انصرف بصره لحظة إلى شي في يد أحد الملتفين حول الديكة، وتعالى صياح المشاهدين في نشوة وهم يرقبون هذا الصراع الدموي يبدأ من جديد، والمنتصر يعلو خصمه وهو يضرب بمنقاره الوحشي فوق رأسه الدامي لتفتح جراحاً جديدة، وتسيل دماء جديدة ومال حميد الدين على أحد الواقفين يسأله:

- أين أجد محمود المصارع؟

وأشار الرجل بيده إلى الديك الأسود وهو يقول:

- أمامك يمزق أيبك التركماني بمنقاره.

وأدرك حميد الدين أن هواة مصارعة الديكة قد أطلقوا هذه

الأسماء على الديكين، فقال الرجل:

ـ يا عم أنا أسأل عن محمود المصارع الرجل لا الديك.

فأشاح الرجل بوجهه ولوح بيده إلى نهاية الميدان وهو يعود إلى الإستغراق في مشاهدة صراع الديكة، ويقول:

ـ خيمته هناك.

وجذب حميد الدين الرجل من ذراعه وهو يقول:

ـ هناك أين؟

فشد الرجل ذراعه منه بعنف وهو يصيح:

ـ ألا ترى أني مشغول.. اسأل غيري، أو إبحث بنفسك، ناس مؤذية..

وسرعان ما ابتلعه التجمهر الملتف حول الديكين.. وابتعد حميد الدين متجهاً إلى الناحية التي أشار إليها الرجل وقد اختلط في أذنيه صياح الديكين بضجة الرجال، وأصوات المزمار والطبل وصرخات آكل النار، وصيحات الباعة على الحلوى والفاكهة، ونداءات أصحاب الألعاب على ألعابهم التي تتحدى قوى الشباب واحتمالهم، وتظهر تفوقهم ورجولتهم ودقات الطاسات في يد (السقاء) بائع الماء منحني الظهر تحت القربة السوداء المنداة بالماء وهو يصيح بين الحين والآخر:

ـ يعوض الله.. وخلقنا من الماء كل شيءحي.. يا ساتر أستر.. يعوض الله.

ثم يضرب بالطاسات في يده ويمضي..

واستوقفه حميد وهو يحس بظمأ شديد فملأ له الطاسة النحاسية

الصفراء من الماء المخلوط بماء الورد وهو يقول:

ـ نصف يابني، بالهنا والشفاء.

أنزل حميد الدين الطاسة من فوق فمه وهو يقول:

ـ الحمد الله.

ثم مسح فمه بكمه ومضى يخرج النصف للسقاء وهو يقول:

ـ جزاك الله خيراً أن رويت ظمأي، ويجزيك كل الخير لو هديتني إلى ما أريد.

أخذ السقاء النصف وقلبه ظهراً لبطن وهو يدسه في جلبابه ويقول:

ـ هداك وهدانا الله، قل يا بنيّ، ماذا تريد أن تعرف؟

قال حميد الدين..

ـ مكان محمود المصارع يا والدي..

ـ وهل هناك من لا يعرف خيمة محمود المصارع، أنظر يا بني، هناك عند إخر هذه مجموعة من النصبات أترى الخيمة الحمراء وأمامها، وتد عال مركوز في الأرض:

ـ نعم يا والدي.. هل هذه هي خيمة محمود المصارع؟

ـ نعم يا بني.. ولو أسرعت لاستمتعت بمشاهدة جولة من جولاته، فقد تركت خيمته منذ حين وهو يستعد للخروج لتحدي من ينازله، ولمحت فلاحاً ضخم الجثة مفتول العضل يقف منذ الصباح إلى جوار الخيمة في انتظار خروجه، وأظنه قد جاء من بلدته في الأرياف سعياً إلى منازلة محمود المصارع طمعاً في بعد الصيت وذيوع الشهرة.

ومضى السقاء في طريقه محني الظهر تحت قربته الجلدية السوداء المنداة وهو يضرب بطاساته ويصيح:

ـ يا عوض الله . .عطشان أشرب بإذن الله ماءاً زلالاً طهوراً وأحمد الله . . يا عوض الله . .

وظل حميد الدين يتبعه بعينيه وهو يبتسم لنفسه، وهز رأسه وهو يقول في همس:

ـ رجل طيب.

ثم مضى مسرعاً في اتجاه الخيمة الحمراء، وهو يخترق الجموع الغفيرة التي تملأ الميدان وتتوافد إليه مع كل دقيقة تمضي من عمر الصباح . . وعند باب الخيمة كان فلاح عملاق ضخم الجثة يقف وهو يصيح في انفعال:

ـ ليبرز إلي محمود المصارع لألزمه مكانه وأعلمه قدره . . أم هو لا يريد أن يبرز لي أنا عويس السعران من بنها العسل، يعرفني كل من في بنها وكل القرى المجاورة لبنها، آكل الرجال أكلاً، لم يسموني السعران إلا لأن عضتي تقتل الرجال كقبضتي . . أين بطلكم يا أهل الرميلة . . وقرة ميدان . . أين محمود المصارع لأصرعه أمامكم وأكنس به أرض الرميلة كلها . .

وأخذ الناس يتحلقون حوله وهو ماض في صراخه وباب الخيمة ساكن لا يهتز، وبعض الرجال من أهل الميدان يقفون من بعيد ينظرون إلى الفتى الضخم المتحمس في ابتسامة العارفين الذين رأوا مثل هذا المنظر يتكرر أمامهم كثيراً من قبل . . وسمع حميد الدين صوتاً ضاحكاً يقول إلى جواره:

ـ الفتى طازج من الأرياف، وسيأكله محمود المصارع قبل إفطار اليوم . .

وقال آخر في صوت عال:

ـ لا بد أن محمود المصارع يخشاك يا بلديات، ولهذا فهو يخاف أن يخرج من خيمته هذا الصباح . . ما رأيك لو احتللت مكانه، وعلقت ثوبك على الوتد وطلبت النزال من كل من يجرؤ على مواجهتك كما يفعل هو . .

وضحك المتحلقون، واحمر وجه الفتى الريفي، الذي لم تكن ملامحه الريفية الخشنة تشي بأي ذكاء . . ثم اندفع إلى وسط الحلبة ووقف إلى جوار الوتد الطويل وهو يصيح:

ـ أنا عويس السعران من بنها العسل . . ألم تسمعوا عني يا أهل المحروسة والله إن الواحد منا في بنها العسل يفطر بعشرةمن رجال المحروسة المخنثين، نحن الرجال حقاً وإلا فلا . .

وضحك أحد الواقفين وقال:

ـ اليس اسمه السعران؟

وقال آخر بصوت عال يسمعه كل من في الحلقة:

ـ ومحمود المصارع يخاف كل يوم من واحد أو إثنين من أمثاله يقدمون من الصعيد أو بحري أو من قصور الأغوات حتى مات تماماً من الخوف .

وضحك الجميع، وازداد إحمرار وجه الفتى الضخم الجثة الذي وضع نفسه وسط الحلبة فصاح وهو يخلع جلبابه ويرميه إلى جوار الوتد الطويل:

ـ أنتم لا تعرفون قدري، أنا الذي قهرت أبا محمد سبع الليل، أنا الذي هزمت عبد السميع أبو شنب، أنا الذي غلبت أصلان الدمنهوري . . هاتوا لي بطلكم ليعرف قدره على يدي، ولأعود إلى بنها العسل وأنا قاهر محمود المصارع . .

وسكت الجميع وهم يرقبون العضلات البارزة في زنديه وصدره وقد عراهما إلا من صديري قطني مخطط سرعان ما نزعه عن صدره ورماه، لتقفز الشعرات الكثيفة السوداء التي تغطي صدره العريض مدلة متحدية . . وكان سرواله الطويل يغطي بطنه وساقيه ولكنه كان قد فرد ساقيه في وقفة صلبة تشي بما في هذين الساقين من عضلات وصلابة . . وهمس واحد إلى آخر . . .

ـ هذا ثور لا رجل .

وقال الآخر :

ـ أنظر إلى رسغه، أنه أعرض من وتد محمود المصارع . . .

وقال ثالث :

ـ لو أمسك بين زنديه بلت حديد للواه .

وكأنما كان الفتى الفلاح يسمع لهم، إذ سرعان ما اتجه إلى زاوية إلى جوار الخيمة فأخرج قضيباً من الحديد كان يخفيه هناك وأمسك به بين قبضتيه وقد باعد بين ساقيه والتفت بوجهه المحمر إلى المتجمعين حوله وصاح :

ـ أنظروا هذا اللت الحديد الذي يتباهى بحمله الشلبية :

وأمسكه بين كفيه في عنف، ثم أخذ يضغط ويضغط وعروق رقبته تنفر وهو ماض في الضغط على جانبي اللت، والكل يرقبه في

صمت واحترام، وقد توقفت كل التعليقات، ووجم الجميع وتطلعوا إليه في ترقب. . وقفز بقدميه في الهواء وما زال اللت بين يديه وقد نفرت عروق رقبته، وتقلصت عضلات ساعديه وصدره وصرخ:

ـ مدد يا رفاعي مدد. . مدد يا سيدي الشافعي مدد. . مدد يا ست يا أم الأنوار مدد.

وحلقت كل العيون في اللت الحديد وهو ينحني ويلين بين كفي عويس السعران تدريجياً وفي بطء. . وصاح عويس:

ـ يا قوي.

وانثنى اللت بين الكفين الهائلين، رمى عويس اللت وهو يصيح:

ـ وحدوه. .

وارتفع صوت من باب الخيمة فيه ضخامة وفيه عنف:

ـ لا إله إلا الله يا فتى، والله مثلك قليل بين الفتيان.

وصاح عويس:

ـ محمود المصارع؟

وسرت همهمة بين الجمع المحتشد تردد اسم المصارع الشهير. . والتفت حميد الدين إلى باب الخيمة حيث وقف عملاق ضخم بلا رقبة أو هكذا خيل إليه فقد كانت رأسه ضخمة مركبة فوق كتفيه تماماً، وكانت العضلات الممتدة من الرقبة متصلة بعضلات الظهر كأنها جزء منه. وإلى جواره كان يقف فتى طويل القامة رفيع الجسد

تبرز عضلات ساعديه من قماش الغلالة الرقيقة التي وضعها على كتفيه، وهمس رجل إلى جوار حميد الدين قائلاً

ـ هذا كفتة البهلوان.

بينما ارتفع صوت عويس قائلاً:

ـ لقد رأيت قوتي يا ريس محمود، فهل تصارعني الآن؟

قال محمود المصارع وهو يرفع غلاله عن جسده فبدا عارياً إلا من رداء يستر عورته فتبدو كل تفاصيل جسده المخيف المفتول العضلات حتى لكأن هذا الجسد صنع من صخر لا من لحم ودم..

ـ مرحباً بك يا بلديات... أجئت من بلدك، كل هذا المشوار لتريني براعتك في لي الحديد هذه البراعة لا تجدي هنا يا بلديات..

وبدت الدهشة على وجه عويس السعران، ووقف يحملق في محمود المصارع وهو يتقدم نحوه في بطء ثم قال:

ـ هل تستطيع أن تثني لتا حديداً، كما ثنيته أنا الآن؟

قال محمود المصارع وهو يقف أمام عويس السعران:

ـ هذا عمل هائل يا بلديات يستحق التهنئة، أنا أهنئك عليه.

ومد إليه يده، فمد عويس يده يصافح محمود المصارع وقد علت فمه ابتسامة سعيدة، سرعان ما غاضت عندما لف المصارع ذراعه بحركة سريعة فإذا بعويس يطير في الهواء وينزل إلى الأرض كتلة متداخلة يثور حولها الغبار وضحكات المتحلقين، وصيحة الدهشة التي أفلتت من عويس السعران، وهو يسرع يلملم نفسه من فوق الأرض، وينفض التراب عن جسده، ثم يندفع ماداً ذراعيه نحو محمود المصارع، الذي تحول عن مكانه في حركة سريعة، ثم أمسك

بالذراعين الممدودتين ودار بهما وبالجسد الممدود وراءهما، ثم قذف عويس السعران ببساطة إلى جوار الوتد الطويل في وسط الساحة، ليرقد هناك مضعضع الحواس مشتت الفكر. . ووسط ضجة الميدان وضجة المشاهدين الذين تزايدوا بسرعة، لملم الفتى الآتي من بنها العسل نفسه، ووقف في بطء هذه المرة، وعيناه تطلقان شواظ غضب ملتهب ثم أخذ يتقدم في حذر نحو غريمه الذي استطاع أن يرسله إلى الأرض مرتين دون جهد ودون عناء. . وكان محمود المصارع يقف في مواجهته مفرود الساقين وعلى وجهه ابتسامة هادئة، وهو يقول:

الحكاية ليست حكاية اللت يا بلديات.

وفجأة اندفع عويس السعران إلى محمود المصارع يضمه بين ذراعيه ويلصق ساعديه بجسده ويضغط بكل العنف وقد توترت عضلات ظهره وساعديه ودفن رأسه في صدر غريمه ومضى يضغط كأنما يريد أن يعتصره بين ذراعيه القويتين اعتصاراً. . وسكت الكل وقد حبسوا أنفاسهم، وهم يشهدون مظهر القوة الفتية التي استطاعت لي اللت الحديد وهي تحتوي جسد محمود المصارع الضخم وتحبس ساعديه. . وفجأة تحرك ساعدا محمود والتف كفاه خلف أسفل ظهر الفتى البنهاوي ثم ضغط ضغطة واحدة أخرجت الهواء من جسد عويس في زفرة طويلة سمعها كل من في الميدان ثم ارتفعت الكفان المضمومتان إلى أعلى ثم عادتا إلى أسفل في حركة سريعة سلبت الفتى كل الهواء الذي كان يملأ رئتيه ومال محمود بجسده إلى الوراء رافعاً جسد عويس عن الأرض ثم ترك الجسد

المضموم مرة واحدة، فإذا بالفتى يتأرجح في الهواء وقد انفلت ساعداه من ضمهما لجسد محمود المصارع، وبسرعة طوح محمود يده في الهواء لتستقر أسفل ذقن عويس السعران في لكمة أطاحت به إلى جوار الوتد الطويل، جسداً ملقى فاقد القدرة على الحركة مرة أخرى.

وتعلقت أنفاس حميد الدين، وتوقف بصره عند الفتى المتكوم وسط الحلبة في ترقب وخوف، وحين أحس بأجزاء من جسده تتحرك خرجت من فمه آهة ارتياح وجدت صداها في آهات الإرتياح التي خرجت من كل شفاه المتحلقين حول حلبة محمود المصارع وخيمته الحمراء ووتده الطويل والجسد المرمى تحته كالخرقة البالية.. وفرد محمود المصارع يديه فوق رأسه، وارتفع صراخ المتحلقين في تحية زاعقة للمنتصر الذي أخذ يدور حول نفسه وهو يلوح بكفيه المرفوعيتن فوق رأسه للمشاهدين الذين جن جنونهم فمضوا يصرخون ويهتفون ويضحكون في وقت واحد.. بينما تقدم كفته البهلوان من وسط الحلبة نحو الجسد المتكوم إلى جوار الوتد الطويل.. ووجد حميد الدين نفسه يندفع من وسط الجمع إلى حيث وقف كفتة البهلوان ينظر إلى جسد عويس السعران في صمت.. وقال حميد الدين:

ـ نرش على وجهه ماء لعله يفيق.

ونظر إليه كفتة البهلوان، وقال وهو ينحني فوق عويس.

ـ هات الماء واسرع.

وأسرع حميد الدين يخترق الجموع بحثاً عن السقاء، وإذا به

أمامه يمد يده بطاسة مليئة بالماء وهو يقول:

ـ رأيتك تسرع نحوه، وعرفت أنك ستطلب الماء فخذ واسرع..

ولا يعرف حميد الدين كيف أخذ الطاسة المليئة المقدمة إليه، ولا كيف اخترق الجموع التي تحلقت حول محمود المصارع ليبرز إلى وسط الحلبة الخالي إلا من الوتد العالي وكفتة البهلوان والجسد المسجى بلا حراك.. تقدم نحو عويس وانحنى عليه وهو يملأ كفه من ماء الطاسة ويرش فوق وجهه، والتفت إليه كفتة البهلوان وهو يقول:

ـ اعطني هذه واسند أنت رأسه حتى أبلل شفتيه بالماء فهذا أجدى.

ووجد حميد الدين نفسه يجلس إلى جوار عويس ويحمله بمشقة على صدره، ويسند رأسه الضخمة فوق كتفه، وكفتة البهلوان يمرر الماء على شفتي الفتى الغائب عن الوعي. وكان حميد الدين رغم العبء الذي جثم على صدره مندهشاً من اهتمام البهلوان وعنايته بالفتى الذي ابتدأت قطرات الماء تنساب من بين شفتيه إلى جوفه، وبدأ فمه وجسده كله يهتز، وأنما أدرك كفتة ما يدور برأس حميد الدين وقال:

ـ هو بطل رغم هزيمته يا بني، وأنت شجاع، إذ أسرعت إلى نجدته ما اسمك؟

اعتدل حميد الدين في جلسته قدر استطاعته وهو يعدل رأس عويس، وقال:

ـ إسمي حميد الدين، وقد جئت إلى الرميلة برسالة لك ولمحمود

المصارع، فشهدت هذا الذي حدث رغمًا عني. .

ـ وأسرعت إلى نجدة المهزوم دون أن تخشى غضبة المنتصر. . ؟

قال حميد الدين وهو يمرر يده المبللة فوق جبهة عويس السعران:

ـ لا أنا أعرف المنتصر، ولا أعرف المهزوم، فقط أعرف أن هذا الفتى يحتاج إلى كل رعاية ليعود إلى وعيه، ولم يتقدم أحد إلا أنت، فأحببت أن أشاركك أو أساعدك قدر طاقتي، فأنا جاهل في مثل هذه الأمور.

ضحك كفتة البهلوان فانفردت أساريره وظهرت ملامح وجهه لتشي بسن أصغر بكثير من السن الذي يبدو عليه لأول وهلة، وقال:

ـ إذن فأنت لست بلديات هذا الفتى، لست من بنها العسل؟

قال حميد الدين وهو يحس بالإرتياح لعودة الدماء تدريجياً إلى وجه عويس المصفر:

ـ أنا من الحسينية. .

وصاح كفتة البهلوان فجأة وقد اهتزت الطاسة في يده حتى كاد ماؤها كله ينسكب:

ـ ماذا تقول؟

ـ أقول، أنا من حارة على لوز من الحسينية.

وهدأت ملامح كفتة البهلوان المتقلصه، وعاد يرفع الطاسة إلى شفتي عويس السعران الذي بدأ يرشف الماء في بطء وقال:

ـ كان لا بد أن أعرف أن أحداً لا يمكن أن يجمع بين كل هذه

الشجاعة وهذه الشفقة إلا إذا كان من أبناء الحسينية. . ما اسم الكريم؟

وأحس كريم بحمرة الخجل تملأ وجهه وهو يعدل رأس عويس الذي بدأ يفيق، وبدأت رأسه تعتدل وعيناه تفتحان من جديد، وقال:

- أنت من أبناء الحسينية أيضاً وكذلك محمود المصارع. . وأنا جئت خصيصاً هذا الصباح لألقاكما. فأنا أحمل رسالة شخصية لكما. .

وقطع عليه حديثه تنهيدة حارة من عويس السعران، فالتفت إليه يعدل رأسه، ولكن الفتى اعتدل فجأة وهو يقول:

- أشهد ألا أله إلا الله وأن محمداً رسول الله. . إين أنا؟

وضحك كفتة البهلوان وهو يمد الطاسة وما بقي بها من ماء إليه وقال:

- اطمئن ما زلت في الدار الفانية يا بلديات، إشرب هذا.

ومد يده بالطاسة إلى فم عويس الذي أخذ يشرب في شراهة حتى أنهى ما بالطاسة من ماء فقال حميد الدين:

- هل أملأها لك؟

وهنا انتبه عويس إلى أنه ما يزال يستند الى صدر حميد الدين، فاعتدل وهو يقول:

- عطشان يا بلديات عطشان. .

وابتسم كفتة البهلوان وهو يقول لحميد الدين:

ـ إذهب واملأ الطاسة مرة أخرى، وحين تعود سيكون قد أصبح رجلاً جديداً تماماً . .

وأحس حميد الدين بالراحة وثقل جسد المصارع البنهاوي الشاب ينزاح عن كاهله، وعجب حين وجد صعوبة في القيام من مجلسه، إذ كانت أجزاء جسده تأبى أن تنصاع لرغبته في القيام والإعتدال . . وأخذ ببطء يتحايل على نفسه ويقف فارداً طوله، وأدهشه أن يحس أن الصمت يغلف الحلبة كلها، ولكنه اندفع مسرعاً يبحث عن السقاء . وأدهشه من جديد أن المتجمهرين حول الحلبة يفتحون له طريقاً يسير فيه بسهولة، وتلفت ذات اليمين، وتلفت ذات اليسار . . وطالعته وجوه لا يعرفها، كلها تنظر إليه في تطلع ودهشة، كأنه شيء عجيب شاذ، أو كأنه حيوان غريب لم تره الرميلة من قبل . . وأخيراً لمح وجه السقاء ينظر إليه في حنان ويبتسم ، فأسرع نحوه وهو يمد الطاسة الفارغة في يده ويقول:

ـ طاسة أخرى يا معلم ويبقى لك جديد كامل . .

وأمسك الطاسة منه، وملأها من القربة المنداة على ظهره، وناوله الطاسة وهو يقول:

ـ لك أنت الماء حلال زلال فليس في كل يوم تشهد الرميلة فتى يسرع إلى إغاثة المهزوم مثلك . .

ـ ولكن . . .

ـ أسرع فالفتى ينتظر الماء.

ونظر في العينين الحانيتين في أعماقهما حنان وحب وهز رأسه وهو يقول:

ـ رجل طيب.

ثم أسرع بالطاسة ألى وسط الساحة حول وتد محمود المصارع دون أن يعترضه أحد، ورقد إلى جوار عويس السعران يحمل الطاسة في يده، ومد عويس يداً مرتعشة إلى الطاسة فأخذها في يده ثم ضم يده الأخرى تمنع رعشة الطاسة في يده، ومضى يشرب في شراهة ونهم.. وقال كفتة البهلوان..

ـ أكد لي أنه لا يعرفك، ولم يرك من قبل.

نظر أليه حميد الدين في دهشة وهو يقول:

ـ وهل قلت أنني أعرفه؟

ضحك كفتة البهلوان وهو ينتصب واقفاً ويقول:

ـ كنت أريد أن أتأكد حقاً أنك من أبناء الحسينية، وأنك أيضاً كما قلت من أبناء حارة علي لوز..

وأنهى عويس السعران كل ما في الطاسة من ماء، وناولها لحميد الدين وهو يقول:

ـ أخبرني الأخ الطيب هنا بما فعلت من أجلي.. فالشكر لك يا ابن العم..

قال حميد الدين:

ـ لا شكر على واجب يا معلم عويس، ولا بأس عليك فما هزمك إلا بطل..

وضحك عويس وهو يتحامل على نفسه قائلاً:

ـ تقصد ما مرغني في التراب إلا بطل، فما كنت بالنسبة له إلا أبله، أو طفلاً شقياً ناقص الأدب..

وبادله كفتة البهلوان الضحك وهو يقول:

ـ لا داعي للهجة المرارة هذه، فلست أول من وقع صريع محمود المصارع، وهذه حرفته، أن يهزم الأبطال، وأن يصرع الرجال. .

قال حميد الدين:

ـ وقد كنت بطلاً يا عويس. .

واقترب منهم محمود المصارع دون أن يشعروا به وقال:

ـ لا بأس عليك يا بطل بنها العسل. .

قال عويس في مرارة:

ـ يا خيبة بطل بنها العسل، بل ويا خيبة بنها العسل كلها، ويا شماتتها عندما تعلم ما حدث له.

قال محمود المصارع وهو يربت بيده الضخمة فوق كتف عويس العريض:

ـ المسألة ليست مسألة قوة وفتوة، فلا عيب في قوتك ولا في فتوتك، وأنت شجاع القلب يا فتى، فليس في كل من أطرحهم أرضاً مرتين من يقف لي ويهاجمني إلا القليل الذي لا يعرف الجبن أو الخوف طريقهما إلى قلبه.

ضحك عويس ضحكة بلهاء بينما هز كفتة البهلوان كتفيه في استخفاف بالأمر كله وقال:

ـ المصارعة مهنة يتعلمها الإنسان يا بلديات تماماً كالحركات البهلوانية التي اتقنها ولا يبزني فيها أحد. . فأنا كفتة البهلوان ويسعدني أن أتعرف عليك. .

قال عويس ووجهه قد احمر تأثراً وخجلاً:

ـ أنا عويس السعران . .

وأكمل محمود المصارع قائلاً:

ـ من بنها العسل، وتريد أن تكون مصارعاً يا عويس.

ارتج على عويس، وتلعثمت الكلمات على شفتيه، وأطرق برأسه وهو يقول:

ـ قبل هذا الصباح كنت أحسب نفسي في عداد المصارعين، أما الآن فلست أدري . .

اندفع حميد الدين يقول وهو يمسك بساعد عويس:

ـ بل أنت مصارع مجيد يا عويس، ولا ينقصك إلا المران، ولو قبل محمود المصارع أن يدربك لكنت من خيرة المصارعين لا في بنها ولكن في الرميلة نفسها.

ونظر محمود المصارع إلى حميد الدين لأول مرة وهو يقول:

ـ وهل أنت أيضاً تريد أن تختبر قوتك معي يا فتى؟

احمر وجه كريم الدين خجلاً، ولكنه تماسك وقال:

ـ أنا أعرف قدر قوتي يا سيد محمود، ولست أطمع أبداً في مواجهة مثلك.

وتردد لحظات ثم قال:

ـ ولو أنني أطمع في أن تضعني تحت رعايتك وتعلمني فنون مهنتك . .

ودهش كفتة البهلوان فتدخل في الحديث قائلاً:

ـ ولكنك أخبرتني أنك جئتنا تحمل رسالة لمحمود ولي، ولم تذكر شيئاً عن تعلمك المصارعة . .

واستمر حميد الدين في اندفاعه قائلاً:

ـ لم تكن فكرة المصارعة في رأسي عندما توجهت إلى الميدان، لكن بعد الذي شاهدت الآن ملأني إحساس غامر بأننا نترك فنون الصراع لغيرنا وهي قريبة إلينا يتفوق فيها أبناء حينا نفسه، فلماذا لا نتسلح بما ينفعنا ويرد الأذى عن كرامتنا..

صاح محمود المصارع وهو يضحك:

ـ رويدك يا فتى، ما كل هذا الحماس، والحديث عن نحن وهم، من تعني بنحن ومن تعني بغيرنا..

ـ نحن أبناء المحروسة، وهم الشلبية.

ـ الشلبية.. وماذا جاء بسيرة الشلبية الآن..

قال حميد الدين:

ـ أنا جئت أحمل لك رسالة بشأنهم، لك ولكفتة البهلوان.

أسرع كفتة البهلوان يقول:

ـ سننظر في أمر هذه الرسالة بعد حين، أما الآن فما الأمر بالنسبة لعويس السعران يا محمود، هل تستبقيه وسط مشاديدك أم ينصرف إلى بلدته؟

وصاح عويس:

ـ لو استبقيتني يا معلم محمود لغدوت لك خادماً طول العمر..

قال محمود المصارع:

ـ لن أجد كل يوم مثلك يا فتى، إذهب استرد ثوبك، وعند السبيل أغسل وجهك وتعال إلى الخيمة نتحدث في الأمر.

قال حميد الدين:

ـ إذهب لأعطي الطاسة للسقا .

قال كفتة البهلوان:

ـ سيأتي السقاء بنفسه لأخذ طاسته، الآن تصحبنا إلى الخيمة لتحكي لنا حكايتك.

قال محمود المصارع، وهو يمسك بذراع حميد الدين ويسوقه إلى الخيمة الحمراء:

ـ يبدو أن كفتة يطمئن إليك، فمن أين أنت، ومن أين رسالتك؟

قال حميد الدين:

ـ أنا من حارة على لوز من الحسينية، ورسالتي من الشيخ زكي.

توقف محمود المصارع فجأة وهو يضغط على ذراع حميد الدين الذي كاد يصرخ ألماً وقال في حدة:

ـ الشيخ زكي شيخ الزاوية وواعظها ومعلم صبية الحسينية؟

قال محمود الدين وهو يزيح يد المصارع من فوق ذراعه:

ـ هو نفسه، وقد قال أنك ستستجيب لرسالته.

قال محمود المصارع، وهو يسبقهما إلى الخيمة:

ـ ماذا ننتظر هيا بنا نسمع الفتى القادم من الحسينية.

ـ ٣ ـ

قبل آذان الفجر بزمن كان قوبلاي آغا قد اطمأن إلى خروج المماليك والعياق في المهام التي حددها لهم، كما أنه كان قد اطمأن إلى تقارير حراس الليل العائدين من كل جزء من أجزاء الحسينية،

وجلس هو ولاظ آغا ينظمان دورات الحراسة للغد، ويستعرضان ما تم تحصيله من ضرائب في حجرة قوبلاي آغا التي يصرف فيها الأعمال، ويقابل فيها أعوانه وزواره.. وعلى الرغم من أن هذا الإهتمام المفاجىء بأدق التفاصيل لم يكن من عادة قوبلاي آغا إلا أن لاظ آغا لم يبد أي دهشة لهذا الإستيقاظ المبكر على غير العادة، ولا كل هذه المراجعات والأسئلة التي أمطر بها قوبلاي الحراس قبل انصرافهم، ولا لهذه الدقة في مراجعة كشوف الضرائب المتحصلة والمتبقية دون تحصيل، وظل في مجلسه ينظر إلى قوبلاي آغا في هدوء وهو يجمع الأرقام على أصابعه ويتمتم لنفسه في استغراق كامل.. وأخيراً رفع قوبلاي آغا رأسه وضرب حافة المكتب بيده وهو يصيح:

ـ هذا لا يكفي.. أنت تتراخى معهم يا لاظ آغا..

وتراقصت ظلال ذراعه ورأسه على جدران الغرفة المضاءة بمصباح كبير معلق بالسقف يرسل نوره الأصفر ليغمر الحجرة كلها.. وتنهد لاظ آغا وهو يقول:

ـ هم يدفعون آخر الأمر يا آغا.. هذا يتأخر أسبوعاً، وذاك شهراً ولكنهم يدفعون بانتظام.

ولم يهدىء من ثورة قوبلاي آغا الذي أشار إلى الأوراق أمامه وهو يقول:

ـ لا بد من تحصيل كل المتأخرات لاظ آغا..

قال لاظ آغا:

ـ حتى بعد كل الضرائب الجديدة التي سيبدأ تحصيلها اليوم..

بالطبع . .

ـ ومن أين يدفعون يا جناب الآغا . . ؟

ـ سيدفعون . . أما من أين، أنا لا يهمني إلا المال . . والآن،

ـ ولماذا الإستعجال يا جناب الآغا . . ؟

ـ أنت لا تفهم، تعمل معي كل هذا العمر الطويل ولا تفهم .

ـ بل أفهم وأسكت قوبلاي آغا . . وكل شيء رأيته وفهمته وسكت، أما ما يحدث هذه الأيام فهو ما لا أفهمه، وما لا أفهمه لا أستطيع السكوت عنه لأني لا أعرف له مبرراً .

وفي صوت منذر بالخطر قال قوبلاي آغا . .

ـ وماذا كنت تعرف من قبل يا لاظ، وتسكت عنه .

ولم يلتفت لاظ اغا إلى ما في صوت قوبلاي من نذر تهديد، فقال :

ـ منذ جئت للعمل معك هنا، وأنا أرى وأفهم وأسكت . . . الضرائب أكثر مما على كل الأحياء الأخرى، والناس يدفعون في صمت، وجزء منها للسلطان وجزء منها للخزانة هنا، وجزء منها للسراي، وهذا أمر مفهوم، ولا أعتقد أنه يغيب عن فهم الملك الصالح، ولا عن فهم الناس الذين يدفعون هذه الضرائب، ولكنك مسؤول ومصاريفك كثيرة، والحي ضخم ويحتاج إلى جند كثيرين وربما إلى مماليك تشتري بين الحين والحين .

هز قوبلاي اغا رأسه وضحك، ثم قال :

ـ كل آغا يفعل هذا يا لاظ، ومثلي مثل الآخرين .

استمر لاظ آغا يقول :

ـ أنت شريك في الكثير من التجارات في الحي، وهذا حقك، مالك تستثمره كما تشاء كما أن هذا يجعل لك سيطرة على كل أصحاب المال مثل الحاج محمد أبو الانوار والاخرين. .

صاح قوبلاي آغا في غضب:

ـ هل هذا حرام. . التجارة ليست حراماً لاظ آغا.

ـ التجارة ليست حراماً جناب آغا، ولكن التجار الـذين تشاركهم يمتصون دم الناس، يرفعون الأسعار، ويخفون السلع ويجيعون الفقراء، ويمتصون منهم كل دانق في سبيل المزيد من المكسب والمال.

ـ وما دخلي أنا؟

ـ دخلك تسعة أعشار ما يدخل جيوب التجار يا جناب آغا. .

صاح قوبلاي آغا حانقاً:

ـ اخرس. . . هل تتهمني بالسرقة. .

تنفس لاظ آغا نفسا طويلاً قبل أن يقول:

ـ أنا لا اتهمك بشيء يا جناب الاغا، وإنما أنا أرسم لك صورة ما يحدث في حواري الحسينية وشوارعها، كل يوم مزيد من ارتفاع الأسعار، كل يوم سلع تختفي مما يعتمد عليها الناس في معاشهم اليومي، وانتظار، وتجمعات، تقاتل حول مواد القوت الضرورية، والسبب أن التجار لهم ظهر يحميهم ويمنع عنهم غضب الناس، ويؤمن لهم كل ما يفعلونه في الناس.

أخذ قوبلاي يضحك وكرشة يهتز، والظلال على الجدران حوله تهتز، ثم قال:

ـ وتظن أنك تفهم؟ هل تحسب المسألة مجرد مزيد من الربح عن طريق مقاسمة التجار أرباحهم؟ . . . لا . . . أنت لا تفهم شيئاً، ألا تعرف المثل الذي يقول: جوع كلبك يتبعك . . هؤلاء التجار يساعدونني على تجويع كلاب الحي كله، وحين تجوع هذه الكلاب تتبع اليد التي ترمي لها بالفتات بين حين واخر، ألم تلحظ أنني أقيم الشوادر في رمضان،وأمنح المنح في الأعياد، وأفرق الكساوي عند مدخل الشتاء فالكل إذن يشيد بكرم الآغا ، وعطف الآغا ، الذي يبقي على الكلاب وجودهم، ويمنحهم حق الطعام والكساء كل حين . . .

ـ مجرد الطعام والكساء يا جناب الآغا .

ـ نعم . . مجرد الطعام والكساء، وإلا لو طعموا واكتسوا فسيسألون عن المزيد من الطعام والكساء، ثم يسألون عن أمورهم وكيف تدار، وعن أعمالهم وكيف لا تدر الربح الواجب، وعن ثرواتهم أين تضيع، وعن حقهم في أن يعرفوا كيف تدار أمورهم وكيف تساس . . هل تريدنا أن نصل إلى هذا يا لاظ آغا . . ؟

ـ يا جناب الآغا.

ـ كفى . . أنا أعرف أهل الحسينية، لو توفرت في يدهم لقمة القوت لأسرعوا يطلبون بما هو الأهم من لقمة القوت، يطالبون بحقهم في معرفة ما يجري وكيف يجري يتطاولون على خطب المساجد، وهمس الدوار وجلسات المشارب وتجمعات الميادين، وفي جلسات ليالي الصيف فوق أسطح المنازل، وليالي الشتاء حول الأفران والمدافىء، لا أنا أعرف ما أفعل يا لاظ آغا . . لا بد أن

أحكم طموحاتهم، لا بد أن أحكم أحلامهم.. أفهمت...؟

ـ وكل هذا بالتجار الشركاء معك.

ـ نعم.

ـ ومع الهانم أيضاً..

وصمت قوبلاي آغا.. وملأ الحجرة صميت كثيف، ثم وقف قوبلاي آغا، فملأت الظلال جو الحجرة، وتخلل المشربيات ضوء الفجر، فبدا ضوء المصباح باهتا، وفي صوت متئد مهدد منذر قال قوبلاي آغا:

ـ وماذا عن الهانم يا لاظ آغا..؟

وأدرك لاظ آغا ان اندفاعه قد ساقه إلى منطقة خطرة. .فحاول الابتسام، ولوح بيده في محاولة للمبالاة وقال:

ـ لا... أبداً، فقط هي تتبع أسلوب مولاي الآغا في التعامل التجاري.

صاح قوبلاي آغا..

ـ ثم..

ـ ثم لا شيء.

إزداد صياح قوبلاي آغا وهو يسأل في عنف؟

ـ لا.. لا بد أن تكمل ما بدأته.. ثم..

قال لاظ آغا وقد بدأ يندم على تهوره في الكلام.

ـ ثم لا شيء يا جناب الآغا.

ـ بل لا بد أن تقول.. ماذا عن الهانم؟

استجمع لاظ آغا كل شجاعته، واعتدل في جلسته وهو يقول:

ـ الهانم تتبع نفس الأسلوب فهي شريكة في كل التجارات التي تقوم بها النساء في الحي، البلانات، والدلالات، والتاجرات، في كل شيء.

ـ أتفهم لماذا لاظ آغا؟

وفوجىء لاظ آغا باللهجة الحادة في حديث قوبلاي آغا، فسكت، واستأنف قوبلاي آغا كلامه قائلاً:

ـ لأن النساء هن الوسيلة التي تستطيع بها أن تبلغ ما تريد إلى كل إنسان في الحي فالسنتهن لا تكف عن تناقل كل ما يسمعن من أحاديث، ولا يمكن لنا أن نضع شبكة لنقل الأفكار التي نريدها كهذه الشبكة الطبيعية المتمثلة في نساء الحي، كما إننا لا يمكن أن نعرف أدق ما يدور في بيوت الحي كله، في كل حارة وزقاق ودرب إلا عن طريق هؤلاء النسوة الذين يرفعهن أن سيدة القصر تشاركهن الربح والخسارة، ومزاولة نفس التجارة التي يعشن منها، فكأنها واحدة منهن، وهي ليست منهن لأنها سيدة القصر، فهن يدن لها بالحب المطلق والولاء الكامل يا لاظ آغا.

تنهد لاظ آغا وهز رأسه وهو يقول:

ـ ليسبت هؤلاء النساء هن نسوة الحي يا مولاي، هن مجموعات تعيش على هامش الحياة في الحي، حقاً هن يدخلن كل بيت ويعرفن كل الأسرار، وينقلن، ويتناقلن، ولكنهم لا يمثلن حقيقة المرأة في الحسينية.

صاح قوبلاي آغا في غضب ظاهر:

ـ أنت لا تريد أن تفهم، أنا لا أريد نساء الحسينية في شيء، فما

يسري على الرجال يسري عليهن، ولكني أريد الاخبار، وأريد أن أبت الآراء والأخبار، أريد أدوات تحكم سيطرتي على الحي كله . . وليس أصلح من هؤلاء النسوة للقيام بهذا الدور أفهمت . . ؟

ابتسم لاظ ابتسامة كالحة وقال:

ـ لا داعي لغضبك يا جناب الآغا . . فأنا رجلك الأول هنا ولا أحب أن أحس في صدري شيئاً يمسك دون أن تعرفه.

وفي سخرية واضحة قال قوبلاي آغا:

ـ أو يمس الهانم يا لاظ.

قال لاظ آغا:

ـ طبعاً أو يمس الهانم، ولو أنني لا أحسب أنها تعرف كل هذه الحقائق.

ضحك قوبلاي آغا فجأة فأخذ كرشه المترهل يهتز، وتهتز ظلاله فوق الحوائط.

وقال:

ـ هن يحكين لها وهي تحكي لي، وأنا أقول لها وهي تنقل إليهن.

ثم إزداد ضحكه وهو يقول:

ـ وهي تحسب أنها ذكية تفعل كل هذا من خلف ظهري، هي تحسب أنني لا أعرف كيف تنشيء علاقتها بكل هؤلاء النسوة، وتظن أنني لا أدري بأمر أكياس الذهب التي ترسلها كل عام إلى اختها فاطمة الأقواسية في دمشق لتكنزها من أجلها.

وضحك من جديد وهو يمر بيده فوق بطنه المهتز وهو يرقب وجه لاظ آغا الذي شحب فجأة وقال:

ـ آه. . رجلي الأول يظن أنه وحده يعرف الأسرار، لا يا لاظ آغا، أنا أيضاً على علم بصرر الذهب التي تسافر ألى الشام، وأنا أيضاً على علم بالتجارة التي تمارسها الهانم مع نسوة الحي. . . أكنت تريد أن تفاجئني بهذه المعلومات. . لا يا لاظ لا، أنا قوبلاي آغا ولم أصبح آغا الحسينية عبثاً. . ويوماً ما ستعرف من أنا على حقيقتي، مدى إمكانياتي وقدرتي يا لاظ.
وأخذ يضحك ويضحك، حتى حسب لاظ آغا أنه لن يكف عن ضحكه أبداً. . وتمالك أنفاسه بصعوبة وهو يقول:
ـ قوبلاي آغا الطيب سيكشف عن نفسه يا لاظ آغا، جاء الوقت وحانت الساعة، ولا بد أن يعرف الجميع من هو قوبلاي آغا، أنا رأيت الشواهد والبوادر قبل كل أحد، وأنا رتبت نفسي لليوم العظيم قبل كل أحد. . وسيؤتى كل ما رسمته وخططته كله. . وسترى. .
قال لاظ آغا:
ـ عند هنا ووقف كل تفكيري حائراً، فكل هذا تقبله الناس في الحي مذعنين راغمين، ولكن ما حدث منذ الأمس لا مبرر له ولا معنى له إلا أنك. . . عفـواً مولاي قوبلاي آغا. . تريد أن تثير كل الناس في الحي ضدك وضدنا جميعاً، بل وربما ضد السلطان الملك الصالح أيوب نفسه. . وهذا ما لا أفهمه. .
كف قوبلاي عن ضحكه، والتفت في مجلسه وأخذ ينظر إلى لاظ آغا في حده وهو يقول:
ـ ما دمت تريد أن تفهم فأفهم إذن واكتم لنفسك كل ما أقوله لك. .

وأشار برأسه إلى الباب وهو يقول:

ـ أغلق الباب وتعال أمامي هنا..

ودهش لاظ آغا من هذا الطلب الغريب، ولكنه لم يتردد في الذهاب إلى الباب واغلاقه، ثم العودة إلى الجلوس حيث أشار قوبلاي آغا، أي في مواجهته تماماً وكان صوت قوبلاي آغا هامساً حين أخذ يقول:

ـ الفرنجة سينزلون إلى البر، سيهزم الملك الصالح، ولن ينجده الخليفة أمير المؤمنين فليس عنده من العسكر ما ينجد بهم نفسه، وساعتها لا بد من وجود الإنسان الصالح للتفاهم مع الفرنجة، وصيانة البر، وحماية المحروسة.. أفهمت...؟

هز لاظ آغا رأسه وهو يقول:

ـ لا لم أفهم.

قال قوبلاي في صوته الهامس المليء بالاصرار والثقة..

ـ لا بد من خونة عملاء للافرنج في الحسينية حتى يعطي الملك الصالح كل ثقته للآغا الذي يكشف أمر الخونة والجواسيس والعملاء والحاقدين.. ثم لا بد من المال والمزيد من المال لشراء المماليك المقاتلين والمزيد من المماليك المقاتلين... ثم لا بد أن يصمت كل صوت، ويقهر كل إنسان في الحي... ليصبحوا طوع ارادتي وملك يميني حين تحين اللحظة المناسبة.. أفهمت؟

هز لاظ آغا رأسه وهو يقول:

ـ لا.. لم أفهم.

فازدادت ابتسامة قوبلاي آغا اتساعا وهو يشيح بيده فتهتز الظلال

على الحوائط ويقول:

- لا بد من وجود آغا قوبلاي، مسيطراً قادراً يحكم الناس كما يجب أن يحكموا ليصبح هو السلطان الجديد..

وطرق باب الغرفة فجأة، فصمت الآغا، وصمت كل شيء، وتلاعبت الظلال على الجدران في حيرة، وخفت الضوء إذ بدأ ضوء الفجر يدخل الحجرة من فتحات المشربيات العديدة التي تملأ جدران الغرفة.. وقال لاظ آغا:

- هل أفتح الباب؟

قال قوبلاي آغا وهو يقفز فجأة في خفة نحو باب الغرفة:

- لا.. افتحه أنا.

وترجرج جسد قوبلاي آغا وهو يقوم من مجلسه ويتجه نحو الباب، وأحس لاظ آغا أن المصباح الذي في السقف قد أصبح عبئاً ثقيلاً، وسط أشعة الضوء التي تتسلل من فرجات المشربيات، ولكنه ظل ساكناً في مجلسه وقد امتلاء رأسه بما قاله قوبلاي، وأحس بنفسه عاجزاً عن الحركة لا نحو الباب ولا نحو المصباح ولا نحو المشربيات فقط، بل هو عاجز عن لحركةوحسب.. وفتح قوبلاي آغا الباب، ومن فرجته أطل ووجه مرجانه الشديد السواد.. وانفرجت شفتاه عن أسنانها اللامعة البياض وهي تقول:

- مولاتي شهوة هانم تقول الفطور معد يا مولاي..

صاح قوبلاي آغا...

- أنا أعمل.. أي فطور تعني؟ ألا ترى أنني مشغول؟

وعاد صوت مرجانة الهادىء الهامس يقول:

ـ مولاتي قالت أعد الحمام الساخن لسيدي الآغا، وهو في انتظارك يا سيدي، وبعده ستكون مولاتي قد انتهت من إعداد طعام الافطار بنفسها. . وقالت لي لا تتركيه يا مرجانة ينسي نفسه فقد أصبح ينسى نفسه كثيراً في العمل.
ابتسم قوبلاي آغا في سرور وهو يقول:
ـ قولي للهانم سأحضر حالاً:
وحين انصرفت مرجانة قال لاظ آغا:
ـ لم أسمع مرجانة تنطق كل هذه الكلمات من قبل، فهي دائماً صامتة حتى كنت احسبها خرساء. .
ضحك قوبلاي آغا وهو يقول:
ـ هي أمام كل الناس خرساء، وأمامي أنا فصيحة، دائمة التعبير.
سأل لاظ:
ـ ماذا تعني يا جناب الآغا. ؟
أغرق قوبلاي في ضحكة وهو يقول:
ـ أترك هذا الأمر لي فهو سري أنا، ولن تعرفه مهما كانت براعتك. . والآن أحب أن تفهم أنني كشفت أوراقي أمامك، وهذا يعني أنني أحتاج إليك، فعندما يخطط واحد لكي يكون الملك، لا بد له أن يبحث عن آغا أعظم منذ البدء. .
ارتج على لاظ إذ بوغت بهذا الوعد الغريب، وقال:
ـ هذا كلام خطير يا مولاي، لا يجب أن تقوله حتى بيننا وبين أنفسنا.

قال قوبلاي آغا في جدية:

ـ أعرف، ولهذا فأنا لن أكرره مرة أخرى.

عاد لاظ يقول:

ـ ولكني حتى الآن لا أعرف السر في هذا التوقيت الذي اخترته للضغط على أهل الحسينية، واستيراد المماليك من الشام وتركهم يفعلون في الناس كل هذه الأفاعيل.

انخفض صوت قوبلاي وهو يقول:

ـ الحكيم من فهم مؤشرات الأحداث فسبقها يا لاظ. . . فعلى الرغم من أن الصالح أيوب يدين لنا معشر المماليك الكامليين الذين ينسبون إلى الملك الكامل بن الملك العادل أخي صلاح الدين إلا أنه يغيرنا واحدا أثر الأخر، ويبعدنا عن الاحياء والدساكر التي اقطعنا أياها. . . وراح يعتصم بالمماليك الجدد الذين يستوردهم من خوارزم عن طريق شبكة الرقيق التي تديرها فاطمة الأقواسية أخت شهوة هانم في دمشق.

قال لاظ آغا:

ـ أنت تعني المماليك الذين أسماهم الصالحين البحريين.

ـ هم صالحية نسبة إليه، الصالح أيوب، وهم بحرية نسبة إلى القلعة التي بناها على بحر النيل في الروضة واتخذها مقراً له ولرجاله وحرسه، ولهؤلاء أطماعهم يا لاظ آغا. . وأنا أعرف أن واحداً منهم بالذات يطمع في أن يكون آغا الحسينية. .

ـ وهل يمنع كل ما فعلت الملك الصالح أن يعينه مكانك؟

ـ نعم. . لو أحس أن الأمور تحتاج إلى مثلي، يمسك الخونة

ويجلدهم ويقتل الجواسيس ويحاكمهم ويزود السلطنة بمال كاف لمواجهة الحرب المقبلة، ويعتمد على مماليك أشداء من نفس نسب المماليك الصالحية البحرية الذين يعتمد عليهم هو. . هل تظنه يصطدم بكل هذا وهو على وشك دخول حرب جديدة.

قال لاظ آغا وهو يعبث في لحيته وينطق كلماته في أناة:

ـ كل هذا يصح لو كان أمر تهديد الحرب قائمًا، فلا أظن سلطانا يقدر على مواجهة الحرب وهو يتخلص من حكامه الأقوياء، أو الذين عرفت مظاهر قوتهم بشكل أو بآخر. . .

إزداد همس قوبلاي آغا وهو يقول:

ـ سمعت هذا الأمر من أحد المقربين من آغا الجيش الأمير فخر الدين يوسف بن حمويه. .

ـ إذن فالامر صحيح. .

ـ وتأكدت أكثر من احد المماليك المقربين من الأمير اقطاي. .

ـ قائد الصالحية البحرية.

ـ بنفسه.

ـ لم يعد في الأمر شك إذن، فلهؤلاء مصادرهم التي لا تكذب.

قال قوبلاي بصوت كالفحيح.

ـ ولهذا لا بد أن أسرع وقبل أن يعين الصالح نجم الدين أيوب ذلك المملوك الذي يعتز له البندقدار مكاني، يجب أن يعرف أنه لا يستطيع الاستغناءعني. .

قال لاظ:

ـ تعني نجم الدين البندقداري؟

ـ نعم. . ومن أعني سواه، هو النجم الصاعد الآن في حلقة الروضة ويذكرون أسمه دائمًا بعد اسم الأمير اقطاي. .

قال لاظ، وهو ما زال ينتقي ألفاظِه ويفكر في كلماته قبل أن يلفظها. . .

ـ كل قوة نجم الدين البندقداري يستمدها من مملوكه بيبرس.

ـ وهو بعد غلام يافع.

ـ يخشاه كل البحرية يا آغا، بل يخشاه كل من أمسك سيفا أو حمل رمحاً. .

صاح قوبلاي متخليا عن حذره:

ـ هو من سن مماليكي الجدد ومن نفس بلدهم، قيمق وقبلق وطقمق، وسأكون بفضلهم وشبابهم وقسوتهم أقوى من البندقداري يا لاظ.

قا لاظ:

ـ هذا أمر نتركه للأحداث لتقرره، ولكن الأمر الخطير أنك تفقدنا تأييد أهل الحسينية وحبهم وهم قوة لا تقل عن قوة البندقداري أو مملوكه بيبرسَ يا آغا.

صاح قوبلاي في غضب حقيقي:

ـ لا، أهل الحسينية يجب أن يخضعوا لاظ إنما، يجب أن يقبلوا اليد التي تطعمهم، يجب أن يكونوا لي عبيداً أو خدماً. .

ـ كيف؟

ـ أنت فشلت، كل ما فعلته أن نظمت لهم تجارتهم وضرائبهم وحياتهم ـ هذا لا أريده، أنا أريدهم خاضعين، أتفهم خاضعين.

ـ أيضاً . . كيف؟

ـ يجب أن يكسرهم شيء ، أنا أتعمد استفزازهم ليثوروا ، ليفعلوا فعلاً متهوراً ، حتى أضربهم ضربة لا يرفعون رأسهم بعدها أمامي أبداً . . أريد أموالهم ، وأريد رجالهم ، وأريد كل وجودهم وفكرهم ملكي أنا . . أنا أصوغ أفكارهم ، أنا أرسم لهم معنى الوجود ، ومعنى الحياة . . هم همل . . هم لا شيء .

صاح لاظ في إنفعال :

ـ بل هم كل شيء يا جناب الآغا . . لو ضممناهم إلى جانبنا قاومنا بهم الملك الصالح والبندقدراي وكل الصالحية والبحرية ، ولم يقف أمامنا شيء . .

صاح قوبلاي :

ـ أنت واهم . . سيسوقك وهمك إلى نهاية مخيفة ، أسمع لاظ آغا ، اسمع مني وافهم . . أهل الحسينية هم نقطة الضعف التي يمكن أن يدخل منها أعدائي . . . ولهذا ينبغي أن يقهروا تماما ، ينبغي أن يستذلوا ، أتفهم يجب أن يكون كلامهم هو كلامي ، وأن تكون ارادتهم هي إرادتي ، وأن يكون فكرهم هو فكري ، يجب أن يكونوا ما أريد . . أتفهم . . ؟

قال لاظ آغا :

ـ يا مولاي الأمير قوبلاي آغا . . أهل الحسينية لهم كرامتهم ، ولهم اعتزازهم بأنفسهم ورأيهم . .

ـ يجب أن يقهر هذا . . لا يجب أن يكون لهم رأي إلا رأيي ، ولا يجب

أن يكون لهم اعتزاز إلا بي . .

ـ مولاي الآغا.

ـ أسكت أنت وافهمني، هؤلاء قوم إن لم تقهرهم قهروك.

ـ مولاي الآغا . .

ـ قلت لك أسكت أنت وأفهمني . , نحن في إقطاعية كل ما فيها ملك لنا، فان لم نملك الناس لم نملك شيئاً، ولا بد أن نملك الناس لنملك كل شيء . .

ـ ليسوا عبيداً أو . .

ـ قلها . . . ليسوا مثلنا، لا بل هم ناس كالناس . . وإن كان الناس يجلبهم النخاسون ليصبحوا عبيدا تحت وقع السوط فسيصبح هؤلاء عبيداً مثلهم تحت وقع السوط وان كنا نجلب مماليك تحت وقع السوط وخوف الموت وقهر العرض، فهؤلاء ينبغي أن يصبحوا مماليك تحت وقع السوط وخوف الموت وقهر العرض . . أفهمت . .

ـ مولاي لم نسمع عن واحد منهم كان عبدا أو مملوكا حتى الآن.

ـ كل شيء له بداية . .

ـ مولاي قوبلاي آغا . . لم نعرف أن أحداً منهم صلح كعبدٍ أو كمملوك أبدا، هم فلاحون حرفيون، صناع، مغنون، ربما، مسلون . . ولكننا لم نسمع حتى الان عن واحد منهم غدا عبداً أو مملوكاً . .

ـ لم يحاول أحد ، ولو حاول لنجح، ألا ترى أنني أسوق جموعهم بكلمة مني وأنني أسخرهم في عمل كل ما أريد وقتما أريد، إما بالترهيب وإما بالترغيب . .

قال لاظ آغا . .

ـ يحدث بيننا وبينهم شيء . . فإذا هم اخر الأمر أحرار غلبوا على أمرهم فترة، ثم انقضت الفترة ليعودوا أحرارا كما كانوا . .

ـ أنا قلت، وأنا أرغمهم على ما أقول.

ـ كثيرون قالوا، وكثيرون أرغموهم على ما قالوا، ولكنهم هم الذين ظلوا باقيين

ـ ماذا تعني يا لاظ؟

ـ لا شيء يا مولاي الآغا، وإنما أنا أذكر ما أعرفه عنهم وعن المحروسة كلها . . هم الذين يظلون يمارسون الحياة كالنحل، وأبطالنا تفنى وتضيع وسط غبار التاريخ.

ـ قلت أوضح ماذا تعني يا لاظ؟

ـ لن يحيلهم شيء إلى عبيد أو مماليك.

ـ أتركني أجرب . . وسترى.

هز لاظ آغا رأسه في يأس وهو يقول:

ـ هذه تجربة مخيفة، ونتائجها أخطر من تجربتك مع الملك الصالح نجم الدين أيوب، أو مع البندقدارية وعلى رأسهم بيبرس يا مولاي . .

قال قوبلاي آغا وهو ينهض من مكانه منهيا الجلسة:

ـ سترى يا لاظ . . وستعرف أن قوبلاي آغا يعرف ما لا تعرف . . .

- ٤

قالت الشيخة زهيرة وهي تأخذ مجلسها وسط النساء في صحن الدوار:

- اقرأ على روح المرحوم آيات الله حتى تأتي باقي النساء. .

ومضت تبسمل ثم تنطلق بصوتها الهادىء الرقيق تتلو آيات من الذكر الحكيم والنسوة الحاضرات يصغين في خشوع وتقى. . وكلما دخلت الدوار امرأة جديدة افسحن لها مكانا بينهن والقرآن يتلى في روعة وجمال، والاصغاء يتم في خشوع ورهبة، وعتمة الفجر تزول ونور فجر الصباح يلوح تدريجياً، وقامت الست حفيظة تتحرك بسرعة وسط الدوار تطفىء المصابيح الباهتة التي تحاول أن تطاول بنورها نور الصباح الوليد عبثاً. . وحين انتهت الشيخة زهيرة آية من آيات الله قالت الست نعيمة:

- إهدئي يا ست حفيظة، ولا داعي لكل هذه الحركة. .

قالت الست حفيظة:

- نور الله غالب فلا داعي لنور اللمبات.

وقالت زينب:

- صدقت خالتي حفيظة نقوم كلنا نطفىء أنوار اللمبات.

واستأنفت الشيخة زهيرة تلاوتها فسكت الكل، وقد انطفأت كل أنوار اللمبات ودخل نور الصباح يملأ الدوار كله، ومعه عطر وأنفاس اليوم الجديد. . وفجأة دخلت أم فكيهة تلملم ملاءتها وهي تقول:

- انتن لا تردنني يا ستات ولكن هذا عزاء، والعزاء واجب،

والمرحوم جزء مني ولا بد أن أعزي فيه، ومن لها كلمة تتركها إلى آخر العزاء.

وقالت الست نعيمة:

ـ هذه المرأة كيف جرأت أن تعود..

وقالت زينب:

ـ يا ست أم فكيهة لا أحد يريدك في عزاء علاء الدين.

وقالت ام فكيهة في اصرار:

ـ هو إبني، وأنا واحدة من نساء الحي، ولا بد أن أحضر عزاءه، واثر في قلبي مثل كل ما أثر في قلوبكن، وأنا في عزائه لا يجروء أحد أن يطردني من مكاني، ومن معنى الحزن في قلبي، أنا حزينة عليه يا ناس.. ككل واحدة منكن وأكثر..

قالت الست حفيظة:

ـ أتركيها يا زينب، فليس في هذا المجال يكون اللغط.

وقطعت الشيخة زهيرة عليهن جدلهن حين أخذت تتلو آية جديدة، فصمتن جميعاً في خشوع ومضت كل واحدة ترقب الأخرى في صمت.. ونور الصباح يزداد اشراقاً.. والدوار يزداد امتلاءاً بالنساء من كل ارجاء الحي... وقالت الست حفيظة.

ـ تعال يا زينب نصنع القهوة لنقدمها للنساء والمعزيات.

وقالت الست نعيمة:

ـ كل هؤلاء النسوة، من كان يظن أن كلهن يجئن هذا الصباح..

وقطعت عليهن الشيخة زهيرة حوارهن بآيات جديدة تتلوها بصوتها

الهادىء الحنون فسكنت كل واحدة في مكانها، وصمت كل صوت حتى انتهت الشيخة زهيرة من آياتها المرتلات ومن المندرة خرجت زينب تحمل الصينية مليئة بأقداح القهوة تمر بها على الجالسات في صمت، وقد أحمرت عيون بعضهن بكاء، وذبلت وجوه بعضهن حزنا، بينما لمعت عيون الكثيرات وامتلأت وجوههن بعلامات الترقب لما يتوقعن من أحداث اليوم الوليد. . وقالت الشيخة زهيرة وهي تضع قدحها الفارغ إلى جوارها على الأرض:

ـ والآن يا ستات. . من أرادت منكن الذهاب معنا إلى السراي ينبغي أن تعرف أنها ربما أغضبت شهوة هانم، بل وربما أغضبت الآغا نفسه.

وقالت الست حفيظة مسرعة:

ـ ولماذا نغضبها أو نغضبه يا سيدتي الشيخة، نحن لم نقتل احداً، ولم نعتد على أحد، وإنما نحن نريد العدل والشرع يا شيخة حفيظة.

وقالت الست نعيمة:

ـ أليس الآغا هو أكبر رأس في الحي، نحن نذهب إليه لينصف المظلوم.

قالت زينب في حدة:

ـ وكيف نطلب الانصاف من الظالم؟

وصاحت أم فكيهة الدلالة وهي تقف بطولها وسط النسوة:

ـ قطع الله اللسان الذي يقول على سيدي الآغا ظالم أو على الست شهوة هانم إنها ظالمة. .

وصاحت الست نعيمة:

ـ إخرسي يا امرأة، نحن لم نطلب منك المجيء إلى هنا، فاخرجي وأرينا عرض كتفيك..

وقالت الست حفيظة وهي تولول:

ـ لم يكفنا الموت، فجاءنا على الموت العوازل والشامتون..

دقت أم فكيهة على صدرها وهي تصيح:

ـ أنا أشمت فيك؟ لم؟ فكيهة عندي خير من ألف علاءُ الدين، ولا..

ولم تكمل أم فكيهة حديثها فقد وثبت زينب كالقطة الشرسة تتخطى الرؤوس إليها وتجذبها من شعرها إلى الأرض وهي تنهال عليها ضربا بكل ما في جسدها الفتي من قوة، وحين تمالكت الست أم فكيهة نفسها شدتها أكثر من يد وجذبها أثر من ذراع، وصياح النسوة، يعلو فوق صراخها، وصوات الست حفيظة يعلو الكل، وزينب تضرب وتركل بكل ما فيها من احساس مر بالاحباط والهزيمة وهي تصرخ في صوت مبحوح لا يكاد يسمعه أحد:

ـ علاء الدين خير من كل عائلتك وأهلك، يا جاسوسة يا لاعقة الصحون.

وشدت النساء أم فكيهة التي وقعت منفوشة الشعر، مهلهلة الثياب تصرخ بأعلى صوتها بكلام لا يتبينه أحد وهي تهز يدها ووسطها في صرخات تهديدية وجسدها كله يهتز، كإنما ترقص رِقصة الانتقام والحقد المكبوت..

وارتفع صوت الشيخة زهيرة الهادىء تقول:

ـ وحدوا الله يا ستات.. وحدوا الله.

وجعلت تكرر جملتها وكل واحدة من النسوة تعود إلى جلستها القديمة وهي تعيد حكاية ما حدث لجارتها التي تسمع وتحكي هي الأخرى في نفس الوقت. . وشيئاً فشيئاً عاد الهدوء إلى جلسة النسوة إلا من صراخ الست حفيظة المفجوع وهي تردد:

ـ موت وشماتة الأعداء، أكفنا السوء يا رب. . أكفنا السوء يا رب.

وقالت الست نعيمة:

ـ إهدئي يا ست حفيظة، المرأة انصرفت مطرودة من الجميع.

فالتفتت الست حفيظة إلى نعيمة تحتضنها وتبكي، وتقول وهي تربت على كتفها في حنان:

ـ حبيبة واصيلة يا زينب يا بنت بهيجة لو كانت أمك تعيش اليوم لأفتخرت بك، وعرفت أنك زينة البنات.

وفجأة انهارت زينب تبكي فوق كتف الست حفيظة بكاء عصبياً عالي النشيج والصوت، وجسدها كله يرتج ويرتعش، وصاحت الشيخة زهيرة:

ـ لتسرع احداكن بشربة ماء للصبية. . .

واسرعت الست نعيمة إلى المندرة تحضر الماء، بينما قالت الشيخة زهيرة:

ـ أغسلوا لها وجهها، وهاتوها أرقيها بالصلاة على النبي.

وبينما أخذت الست نعيمة تغسل وجه زينب، مدت الست حفيظة يدها بكوب ماء تسقيها، وقادتاها إلى حيث جلست الشيخة زهيرة التي مدت يدها على رأسها وهي تتمتم بكلمات الرقية وتعوذها من

الشيطان الرجيم ، وقد ساد على حوش الدوار سكون كامل ، إلا من همسة هنا ونهنهة حزينة هناك . . . وأخذت أنفاس زينب تنتظم بالتدريج بينما قالت الست نعيمة :

ـ جرى الدم في وجهك يا زينب فغدوت قمراً ولا قمر أربعة عشر . . .

وقالت الست حفيظة :

ـ حفظها الله من العين ووقاها لصاحب نصيبها .

وقالت الست نعيمة دون أن تغضب :

ـ صدقت يا ست حفيظة لا يحسد المال إلا أصحابه .

وقالت الست حفيظة :

ـ صانها الله لشبابها . .

وكانت زينب قد هدأت تماما ، وإن ظلت دموعها تنهال على خديها في صمت . . وقالت الشيخة زهيرة :

ـ لا داعي لأن نظل جالسات هنا نتحدث دون جدوى ، هيا بنا إلى السراي ، ومن أرادت أن تصحبنا فلتأت معنا ولنتوكل على الله .

ـ ٤ ـ

كان صيام يظن أن مهمته سهلة ، فعبادة كان دائمًا موجوداً في كل مكان ، تسمع صوته في كل حواري الحي ، وكلما قصدت زقاقا أو حارة وجدته يقف عند مدخلها وقفته المتصلبة ويده المرفوعة تشير إلى السماء . . ولكن ساعات الفجر تنقضي مسرعة وصيام لا يجد لعبادة أثراً . . وكلما سأل عنه أحد السائرين ابتسم وقال له :

ـ تجده عند حارة الشهد، أو ربما عند زاوية الشيخ صالح..

وعندما يقول صيام في يأس:

ـ كنت هناك، ولم أجده..

يأتي له الجواب المتكرر..

ـ ولماذا تبحث عنه، لو ظللت واقفا مكانك لرأيته قادماً من أي اتجاه، فعبادة يأتي ويذهب فجأة ودون أن يعرف أحد..

ولكنه سواء وقف في مكانه أو جاس خلال الحارات والأزقة لا يجد اثرا لعبادة، وضرب كفا بكف وهو يسند ظهره إلى جدار الحمام:

ـ كأن الأرض انشقت وابتلعته، يا سبحان الله العظيم، وأنا كنت أظن أنني سأجده عند أول حارة أدخلها..

وخطر له أنه ربما يكون ما يزال نائما عند أطراف الصحراء، أو في الأصطبل أو خلف مغلق الخشب، فتنهد وهو يتحرك من مكانه في ضيق ليبدأ بحثه الجديد عن عبادة.

....

هز عثمان رزة رأسه وهو يتأمل وجه كريم الدين ويقول:

ـ إذن وصل الحال بالحسينية أن تستنجد، وأبناء الحسينية هم الذين كانوا يخفون دائما لنجدة الكل.. والله زمن.. والله زمن..

وكان كريم الدين لا يرفع عينيه عن خطاف العمايم الشهير.. وفي عينيه يلوح الإنبهار والاعجاب، هذا إذن هو عثمان رزة الذي يردد الناس في الحسينية إسمه مقروناً باسم عنترة وأبو زيد، سبحان الله العظيم، الوجه جميل وينطق بالقوة والذكاء، ليس فيه أي شيء من ملامح الشراسة والقسوة التي يتحدثون عنها، وأبرز ما في الوجه

عيناه تشعان حيوية وقوة، وتكادان تخرقان وجهك وصدرك حتى يعرف صاحبهما كل ما في رأسك وقلبك. . . هل هذا حقا هو عثمان رزة الذي كان يهرب منه العتاه ويخافون مجرد ذكر اسمه، يلقون عمائمهم أمامه ليتركهم يمرون أمامه في سلام. . كانت كلمته أمراً، ورغباته لا بد أن تستجاب وفي الحال، ما طلب مالا أو طعاماً أو لباساً أو حتى طمع في قطعة أثاث إلا وحملت إليه كل حاجاته إلى بيته، والكل يخشى غضبه ويخاف الرزة في يده يستعملها في مهارة كمهارة أشد الفرسان المحاربين في استعمال سيوفهم أو رماحهم. . أهذا حقا هو عثمان رزة. .

وكأنما كان عثمان يقرأ أفكاره، إذ مد يده يربت على كتفه وهو يقول

- لا تصدق يا بني كل ما يقال عني. . معظمه تخريفات عجائز وأكاذيب ناس لا شيء يشغلهم. .

وضحك وهو يقول:

- والذي أرسلك هو الشيخ زكي. . كيف حاله الآن. .

استجمع كريم الدين أفكاره. . وقال وهو يبتسم ابتسامة باهتة:

- بخير وهو يتحدث عنك بفخر وحب، ويقول انه علمك، وحفظك القرآن، وأنه يعرف أن الخير فيك وفي أعماقك وجوهرك. .

تنهد عثمان رزة، وسرح بعيدا وهو يقول:

- هو روح الحسينية كلها، ربانا واحداً واحداً، ويعرفنا من طفولتنا الباكرة، ولا يفقد ثقته وإيمانه فينا أبداً. . وحين تدلهم الأمور نلجأ إلى حكمته ورأيه وقوله السديد. .

ـ واليوم هو أرسلني إليك لأن الحسينية كلها لجأت إليه . .
قال عثمان رزة وهو ينهض من جلسته :
ـ هيا بنا لا بد من أن يسمع منك الأمير بيبرس كل ما حكيت لي . .
قال كريم الدين في دهشة :
ـ الأمير بيبرس بنفسه . .
فضحك عثمان رزة وهو يقول :
ـ نعم الأمير بيبرس بنفسه ، بل أني أظن أنك ستحكي الحكاية كلها أمام الأمير نجم الدين البندقداري أيضاً ، فلو صح ما قلته الآن لكانت فرصته في القضاء على قوبلاي قد حانت ، ولا يقف بينه وبين أن يكون آغا الحسينية شيء . . .
ـ آغا الحسينية ، ولكن آغا الحسينية هو قوبلاي آغا .
اد عثمان رزة يقول وهو يقود الفتى من ذراعه . .
ـ حتى الآن ربما ولكن من يعرف ، هناك أشياء لا يعرفها الكثيرون ولكن من يدري ، لعل الله يريد بالحسينية خيرا . .
ـ يريد بها الخير بعد الذي حكيت لك .
ضحك عثمان وهو يسرع في مشيته ويده قابضة على ذراع كريم الدين وسأله :
ـ ألا يزال عبادة في الحسينية يا كريم الدين
دهش كريم الدين من السؤال المفاجىء ، وقال في حذر :
ـ وما دخل عبادة فيما نحن فيه .
قال عثمان :

ـ ألا يقول دائما، تكون نار تصبح رماد لها رب يدبرها. .

قال كريم الدين وهو يسرع بخطواته ليلا حق خطوات عثمان السريعة:

ـ نعم. . هذا ما يقوله منذ وعيت ما يحدث حولي في الحسينية.

ضحك عثمان وهو يقول:

ـ ومنذ وعيت أنا أيضاً يا كريم الدين. . ومن يدري ربما صدقت نبوءته. . من يدري.

. . . .

قال الرجل بغضب وهو يشوح بيده:

ـ ما هذه المصائب التي يرزقنا الله بها على الصبح، يا سيدي أخبرتك أنني لا أعرف عليوة الفار أو عليوة القط، أو أي عليوة على الاطلاق، هل أحلف لك لتصدقني. .

وقال عوض الفران في حيرة:

ـ ولكن يا عم، أليست هذه بولاق؟. عليوة الفار هو فتوة بولاق.

وصرخ الرجل وهو يشير بيديه ليبتعد:

ـ صبح الصبح يا إبني أبعد الله يكرمك، أنا لا أعرف عليوة ولا فتوات. .

وترك عوض الفران الدكان وهو حائر مندهش، فلم تكن هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها هذه الاجابة العنيفة أو شبيهاتها. . فأول من سأله نظر إليه في ذعر ثم أسرع مبتعدا لا يلوي على شيء. . أما الثاني فقد تلفت حوله ثم قال:

ـ أنا من مشاديد الوشاقية وفي حماهم . .

وقبل أن يسأله عوض عن الوشاقية كان قد اختفى من أمامه ، وهز عوض الفران رأسه في عجب وهمس لنفسه :

ـ إما أن هذا الحي قد جن أهله . . أو أكون قد أخطأت الطريق . .

ولكنه ماكاد يتقدم خطوات حتى وقف مذهولاً والناس يجرون حوله ، والدكاكين التي لم تكن تفتح أبوابها تغلقها من جديد على من فيها ، ومن أول الطريق ظهر موكب الوشاقية يتقدمهم آغا الوشاقية صاحب الشارب المفتول والجسد الضخم وفي يده دبوس لا يقوى على حمله رجلان ، ومع هذا كان يمسكه كأنه لا يحمل ألا عصا رفيعة ، وهمس واحد إلى عوض الفران وهو يجري :

ـ اختبىء يا فتى فهؤلاء الوشاقية يمسكون كل من يقع عليه بصرهم .

وانتاب عوض الفران ذعر حقيقي ، فمضى يجري تبتلعه حواري بولاق الضيقة العفنة الرائحة ، وهو لا يدري إلى أين يجري ـ وأخيراً توقف يلهث عند باب مغلق لدار صغيرة في منعطف الحارة التي كان يجري فيها ، وأخذ يسترد أنفاسه ، وماذا سيقول عنه أولاد درب شكمبة عندما يعرفون كيف هرول جاريا لمجرد رؤ يته لموكب آغا الوشاقية يتبعه رجاله ، وكل أهل بولاق يجرون أمامه . وسمع صوتا خافتا يقول إلى جواره :

ـ تعال من هنا فهم سيدخلون هذه الحارة ، وهي سد لا مخرج منها .

والتفت فإذا باب المنزل يفتح وتمتد يد قوية تجذبه إلى الداخل بسرعة ثم تغلق الباب، وفي الحال تصاعد صوت وقع أقدام الوشاقية وهم يدخلون الحارة من أولها. وفتح عوض فمه ليسأل صاحب هذا الصوت عن هويته، وبسرعة امتدت يد قوية تحيط فمه في كف ضخمة تمنع كلماته أن تخرج من حلقه. وهمس في أذنه نفس الصوت في حذر:

ـ لا تتكلم وإلا عرفوا مكاننا.

وحين هز عوض الفران رأسه علامة على فهمه للتحذير، ارتفعت اليد عن فمه فاستطاع أن يستنشق الهواء من جديد، وهو لا يصدق نفسه بالنجاة من الاختناق، إلا أن انتباهه كله تحول إلى الأصوات المتصاعدة والتي تنفذ من خلال الباب المغلق تشى بتحركات الوشاقية الذين اجتاحوا كل شيء أمامهم يدقون الأبواب ويصرخون ويتصايحون في كل مكان. وأحس باليد تجذبه من جديد واحتواه ظلام الدار وهو يتخبط بين أشياء ملقاة هنا وهناك، وعرف من تحركهما إنهما يخترقان المنزل من واجهته إلى خلفيته وسط عدة انحناءات ، وغرف ضيقة متداخلة متشابكة. وأخيراً وقفا، وسمع الصوت الهامس يقول في وضوح:

ـ ألست أنت الذي تسأل منذ مطلع الفجر عن عليوة الفار؟.

وعلى الرغم من مشاعر الحيرة والقلق والخوف التي كانت تتنازع عوض الفران إلا أنه أحس براحة تغمر نفسه فوقف وهو يسأل:

ـ إذن فعليوة الفار حقيقة، وهو هنا في بولاق..

ضحك صاحب الصوت ضحكة خافتة، وقال:

ـ طبعاً هو حقيقة، لقد رابنا أمرك منذ دخلت الحي مع غبشة الفجر الأولى، ومن ساعتها وأنت تحت رقابتنا إلى اللحظة التي أدخلتك فيها هذه الدار. .

ـ تحت رقابتكم؟ أنتم؟ من أنتم؟.

عاد الصوت المجهول يضحك في خفوت وهو يقول:

ـ نحن مشاديد عليوة الفار، والناس يسموننا مرة العياق، ومرة الفتوات. .

تنهد عوض الفران وكأن عبئاً ثقيلاً قد انزاح عن صدره وقال:

ـ لقد جئت خصيصاً بحثاً عنكم، وعن عليوة الفار بالذات. .

ـ لقد فهمنا هذا، وفي البدء ظننا أنك جاسوس للوشاقي، ولكننا تأكدنا بمراقبتك أنك في حيرة من أمرك، وأنك لا تعرف من أمر الوشاقية وهجومهم على بولاق أي شيء بل لقد رأيت نظرة الدهشة والخوف بنفسي على وجهك وأنت ترى ركبهم لأول مرة منذ قليل. . .

وانتاب عوض الفران شعور بالضيق، فقال:

ـ أنا لم أخف، ولكني وجدت الكل يجرون فجريت. . هذا كل ما حدث ونحن في درب شكمبة لا نعرف الخوف من أحد. . . و.

قاطعه صاحب الصوت الغامض قائلاً:

ـ لم اتهمك بالجبن يا أخ، وإنما الخوف شيء ينتابنا جميعاً، وهو كالعدوى تنتقل من الجماعة الخائفة إلى الفرد الذي لا علاقة له بشيء على الاطلاق فيخاف، ولا ضير عليه في هذا. .

وارتاح عوض الفران للصوت الهادىء، وللكلمات الرقيقة: فقال:

ـ عفواً إن غضبت، ولكني منذ دخلت بولاق وأنا أعيش في دوامة من الغموض والقلق. وأنا حتى الآن لم أر وجهك، ولست أعرف أسمك . .

عادت ضحكة صاحب الصوت المجهول الرقيقة تشق الظلام والصمت المخيم على عمق الدار وقال:

ـ أنا لا أهمية لي، واحد كما قلت لك ـ من عياق عليوة الفار، واسمي سيد الساكت . .

ضحك عوض الفران وهو يقول:

ـ وأنت ساكت بالفعل، فأنا لم احس بك إلا حين خاطبتني إلى جوار الباب والوشاقية يدخلون الحارة، وأنا لا أعرف ماذا أفعل . .

ـ ولكني حتى الآن، ورغم ثقتنا في حسن نواياك لم نعرف من أنت؟ ولماذا جئت في بولاق تسأل عن عليوة الفار؟

ـ لك حق في هذا، فقد ظللت أمطرك بالاسئلة كأن من حقي أن أعرف كل شيء، دون أن أضع في اعتباري أن من حقك أنت أيضاً أن تعرف عني كل شيء . .

قال الصوت الهادىء:

ـ لا بأس عليك . .

قال عوض الفران:

ـ أنا عوض الفران من الحسينية.

وكأنما أحس أن هذا التعريف ناقص لا يعني شيئاً ذا بال، فأضاف بسرعة قائلاً:

ـ أنا من درب شكمبة، وهي إحدى حارات الحسينية، ولكن

حارات الحسينية كلها ارسلتني، فأنا موفد من الشيخ زكي شيخ الزاوية إلى عليوة الفار. .

وسكت. . وعندما طال سكوته، ضحك سيد الساكت وهو يقول:

ـ لم أفهم شيئاً، ومع هذا فليس الآن أمر من أنت ولا من أنا، وإنما الأمر هو أنك معنا فيما نحن فيه. . أليس كذلك؟

وتردد عوض الفران حائرا للحظات ثم قال:

ـ أنا لم أعرف بعد ما أنتم لأكون معكم أو عليكم.

قال سيد الساكت:

ـ صدقت. . ولكن المسألة بسيطة، آغا الوشاقية لا يعجبه إنفراد عليوة الفار بالأمر في بولاق، ولهذا فهو منذ زمن ينتظر الفرصة ليأخذ الأمان من آغا بولاق الأمير بختياري ليبرز إلينا، فما كان يستطيع أن يتعرض لنا دون إذن أمير بولاق.

قال عوض الفران:

ـ وأمير بولاق هذا يملك الأمر والنهي في الحي كله مثل الأمير قوبلاي آغا الحسينية؟

قال سيد الساكت:

ـ تماما، الأمير بختياري صاحب الأمر والنهي في بولاق، ولكنه يخشى أمير الوشاقية، وهو كان يسكت علينا طالما ظل ما نفعل لا يضيره في بولاق بل يثبت مركزه، ويؤكد نفوذه. ولكن عليوة الفار، بدأ يرفع الظلم عن كل مظلوم خارج بولاق، كل من اشتكى إليه ظلما من آغا من الأغوات جمعنا ثم ذهبنا جميعا ففرجنا كربة المظلوم، واحققنا الحق لأبناء الأحياء والمظلومين. . وشكى كل هؤلاء

الأغوات إلى آغا الوشاقية، كيف يتعدى عليهم في أحيائهم، رجل من حي بولاق؟ وتجمع الأغوات حول بختياري آغا، وسلم لهم بختياري آغا وأباح حي بولاق للوشاقية يفعلون فيه ما يشاوءن، ويخلصون الأغوات في الأحياء الأخرى من عليوه الفار ورجاله. أفهمت؟

قال عوض الفران:

ـ كل شيء يتكرر ولكن بصورة أخرى.. فهمت يا سيد يا ساكت.. الآغا أطلق كلاب الملك الصالح نجم الدين أيوب على فتوات الحسينية ليخلص هو برقبته وسط أغوات الأحياء الظلمة.. أليس هو ظالما مثلهم..؟

قال سيد الساكت:

ـ طبعاً، وقد ظل يدارينا فترة من زمن، يوافق على ما نفعل، ويسكت على ما يحدث من الشلبية ومشاديدهم من الصيع في بولاق... ولكنه آخر الأمر انتهز الفرصة ووافق أن يدخل الوشاقية وهم جند السلطان إلى الحي لتأديبنا نحن، أبناء الحي.

قال عوض الفران:

ـ وهذا ما جئت أطلبه من عليوة الفار باسم الشيخ ر والحسينية كلها.

قال سيد الساكت:

ـ هذا شيء نتحدث عنه فيما بعد، أما الآن، فهل أنت معنا.

صاح عوض الفران:

ـ طبعاً معكم، قل لي ماذا يمكن أن أفعل، وسأقوم بدوري كاملا.

قال السيد الساكت:

ـ سنخرج من هنا إلى حارة تقودنا إلى ميدان، وحول الميدان تجمع من كل الحواري العياق، وفي الوسط الوشاقية بيحثون وينقبونَ عن عليوة الفار، وفي لحظة معينة يحددها عليوةُ الفار سنهجم كلنا عليهم بعد أن يكونوا أجهدوا أنفسهم من البحث والعناء والتعب، ولن نبقي منهم أحدا.. أتفهم

قال عوض الفران في دهشة واستنكار

ـ نقتلهم..؟

ضحك سيد الساكت ضحكته الهادئة وهو يقول:

ـ نحن في المحروسة لا نقتل احدا يا فران، وإنما نحن نعلمهم الأدب، ونتركهم ليفهموا درسهم..

ـ فالمسألة رجل لرجل، وقوة لقوة، وساعد لساعد إذن.

ـ فهمتني يا عوض.. هل أنت معنا؟

ـ طبعاً هيا بنا.. ولكن متى أقابل عليوة الفار؟

ـ بعد أن نصفي حسابنا مع الوشاقية يا عوض، ساعتها ستقابله وستحكي له ما تريد، وتسمع منه ما تحب، فلم ينس عوض الفار أنه من الحسينية أبداً.

قال عوض الفران:

ـ وماذا تنتظر إذن؟

قال سيد الساكت:

ـ إتبعني في صمت، فبعد قليل تغدو وسط المعركة.

* * *

قال عم أحمد الفوال في صبر:

ـ قلت لك لم أشاهد لا أمس ولا اليوم عبادة يا صيام يا ابني.

ـ ولكن كيف اختفى؟ هو دائمًا موجود، لا يخلو صباح في الحسينية دون عبادة ولا يأتي ليل على الحسينية دون عبادة.

قال عم أحمد الفوال.. وهو يعدل القدرة فوق المنضدة الصغيرة أمامه..

ـ انتهى الفول، ومعنى هذا أن الصباح قد انتهى.

وقال صيام:

ـ ولكن عبادة لم يظهر يا عم أحمد.

قال عم أحمد الفوال:

ـ وكيف يظهر والشلبية في كل مكان...؟

قال صيام:

ـ ومنذ متى كان عم عبادة يخاف الشلبية؟

قال عم أحمد الفوال:

ـ صدقت في هذا يا صيام يا بني.. ولكنه اليوم لم يظهر. المغلق لا أحد فيه أنا بنفسي جست خلاله حتى أخذت القدرة ولا أحد فيه، الشلبية أمامه والباب مغلق ولا أحد أبداً. ومقام أم الأنوار أخذت قدرة الفول لأقف أبيعها هنا، ولكن تأكد لم يبت عبادة في المغلق، بل لا احد في المغلق إلا الشلبية ومشاديدهم من غلاظ القوم

أمثال محمد الشناوي الطنجير. فهل وسط مثل هؤلاء يختبىء عم عبادة يا صيام . . ؟
قال صيام :
- لا يا عم أحمد يا فوال، هو لم يبت في المغلق، هذا أمر انتهينا منه، ولكني بحثت عنه في كل مكان فلم أجده، في كل الحارات وعند كل زقاق، ودرب ولكن عبادة اليوم غير موجود في الحسينية، يا عم أحمد يا فوال، وما جئت إليك إلا لتدلني . . أين أبحث عنه؟
صمت عم أحمد الفوال، وهو يشخص ببصره إلى ما يدور أمامه في الميدان الواسع بين الحارات وقال :
- أترى ما أرى يا ابني يا صيام؟
ووقف صيام ذاهلاً أمام المنظر الذي ظهر أمامه، كما سكت أحمد الفوال لا يتكلم، ومجموعة النسوة لابسات السواد يتحركن أمامهما نحو السراي، واحدة أثر أخرى، ومجموعة أثر مجموعة واستطاع صيام الذاهل أن يتعرف على أكثر من امرأة من لابسات السواد، المتحركات في صمت واصرار، وجموعهن لا تلتفت يمينا أو شمالاً، وإنما تتجه في اصرار إلى الأمام وقال عم أحمد الفوال :
- لم تقل يا صيام يا ابني، هل ترى ما أرى؟
قال صيام :
- نساء الحسينية لابسات السواد ويتجهن ناحية السراي .
قال عم أحمد الفوال :
- عشنا وشفنا . النسوان . يتجمعن ويتجهن إلى السراي .
قال صيام :

ـ يا عم أحمد هذا شأنهن . . ولكني لا أجد عبادة .
صاح عم أحمد الفوال :
ـ عبادة من؟ لو قال لي أي إنسان في أي زمان ومكان أنني سأرى بعيني رأسي هذا المنظر ما صدقته . . أتفهم يا فتى؟
قال صيام :
ـ ماذا يهمني في موكب جنازة .
قال عم أحمد الفوال :
ـ ليس أمامهن خشبة ميت . . ولم يمت أحد اليوم .
ـ فهو موسم . .
ـ أبداً . . وسطهن الست حفيظة أم علاء الدين . . أتفهم معنى هذا . . . ؟
قال صيام :
ـ يذهبن إلى المقابر كعادة النساء .
قال أحمد الفوال :
ـ لا يقصدن المقابر . . وإنما يقصدن السراي ، وهذا شيء جديد .
والتفت صيام إلى الموكب الأسود المتحرك في اصرار نحو السراي ، كلهن كن هناك أمه وخالته وعمته ، كلهن وصاح في تعجب :
ـ ماذا جمع كل هؤلاءالنسوة؟
وقال عم أحمد الفوال :
ـ أنا لا أدري مثلك ، ولكن هذا شيء لم يحدث من قبل في الحسينية . .

قال صيام:

ـ ما يحدث في الحسينية اليوم شيء غريب لا يعرفه أحد. .

قال عم أحمد الفوال:

ـ عشت ورأيت، ولكن يا بني يا صيام هيا بنا وراءهن علنا نعرف عن كل هؤلاء ما لا نعرف. .

قال صيام:

ـ أذهب أنت يا عم. . أما أنا فلا بد أن أجد عبادة نعم لا بد أن أجد عبادة.

ـ ٥ ـ

كانت أم فكيهة ترمي ثيابها الممزقة على الأرض وهي تصيح:

ـ مزقن ملابسي يا ست هانم، لطمنني بكل ما في أيديهم من شيء، حتى لقد تمزق وجهي وجسدي كله، يا عيب الشوم، لم يحدث هذا لي أبداً من قبل وكلهن يصحن جاسوسة السراي. . صديقة الهانم، عميلة الآغا، ويضربن بكل ما في أيديهن. . كأنهن ينتقمن مني من شيء لا أعرفه، أنا لم أخطىء في حق واحدة منهن، بل أنا كنت اعطيهن ما يطلبن بالاجل، وأكثر من واحدة منهن لم تدفع ما استحق عليها دفعة حتى الآن، يا عيب الشوم، لم يحدث لي هذا أبداً. . أنا أم فكيهة التي خيرها على الكل.

وأخذت تبكي وتولول، وهي تلملم مزق ثيابها حول جسدها. .

وقالت شهوة هانم:

يضربنك ويتهمنك إنك جاسوسة السراي وصديقة الهانم وعميلة

الآغا. . لا هذا أمر لا يمكن السكوت عليه وينبغي أن يعرفه جناب الآغا على الفور.
وسط نشيجها قالت أم فكيهة:
ـ نعم على الفور، كانوا سيقطعوني أربا يا هانم.
قالت شهوة هانم:
ـ أسكتي يا أم فكيهة، وسأخبر الآغا ليأتي ويسمع الحكاية منك بنفسه.

* * *

كانت البنات تتضاحكن في أخر صفوف السائرات إلى السراي الآغا فصاحت الشيخة زهيرة التي كانت تسير في الصفوف الأولى تقودها زينب. .
ـ احتشمن يا بنات، هذا أمر جد لا هزل فيه، ومن منكن لا تستطيع احترام ما نحن عازمات عليه فلترجع إلى بيتها مشكورة.
وسكت لغط البنات على الفور، بينما قالت الست حفيظة:
ـ يا عيب الشوم في وسط الطريق والرجال يرقبونكن، قصف الله رقابكن.
وسألت الشيخة زهيرة زينب وهي تضغط على ساعدها الذي أحسته يرتجف تحت يدها
ـ هل ما زال القصر بعيدا يا بنية؟
قالت زينب:
ـ نحن نقترب من البوابة يا ست الشيخة، ولكن.
وأحست الشيخة زهيرة بارتجاف في صوت زينب فسألتها:
ـ مالك يا بنية، جسدك يرتعش، وفي صوتك خوف.

ـ خائفة يا ست الشيخة.
ضحكت الشيخة زهيرة ضحكة خفيفة وهي تقول:
ـ من يسمعك تقولين هذا، لا يظن أنك نفس زينب التي أعطت أم فكيهة علقة العمر. .
قالت زينب:
ـ كأن يدا من حديد تقبض على قلبي وتعصره يا ست الشيخة. .
قالت الشيخة زهيرة:
ـ استعيذي من الشيطان بالله. . اقرأي قل هو الله أحد عشرات مرات. . وقولي استغفر الله العظيم ولا إله إلا الله عشرين مرة. . يثبت الله قلبك ويقوي جنانك. .
وأخذت زينب وهي تتقدم ممسكة بالشيخة زهيرة تتمتم وأنفاسها تتلاحق متسارعة بينما تعالى صوت الست نعيمة وهي تقول:
ـ إفتح الباب يا بواب، واخطر الهانم أن نساء الحسينية يردن مقابلتها. .

وكان بواب السراي رجلاً ضخم الجثة كث الشارب جهم الوجه، خرج إليهن من حجرته الملاصقة للباب حين سمع أصواتهن تقترب، واخذ ينظر إليهن في حيرة ودهشة فاغر الفم، ثم قال:
ـ من أنتن وماذا تردن؟
صاحت الست حفيظة؛
ـ ألم تسمع ما قالته لك الست، أذهب واخطر الهانم إننا نريد مقابلتها.

وباحتقار شديد صاح البواب وهو يفيق من دهشته:

ـ ومن انتن حتى تقابلن الهانم، هيا إذهبن من هنا.

صاحّت زينب وقد نسيت خوفها وارتجافها:

ـ إخرس يا قليل الأدب، أنت بواب لا تخاطب أسيادك بهذه اللهجة، إذهب واخطر الهانم ولا تتحدث معنا.

وامتلأت نفس البواب بغضب جنوني فرفع عصا رفيعة في يده وهجم على النساء ملوحا بها، وارتفع الصوات والصياح، وأخذت النساء يجذبنه من ناحية إلى ناحية والعصا مرفوعة في يده، وقد تاه وسطهن، ووسط صراخهنْ وصواتهن.

* * *

قال قوبلاي آغا وهو ينظر إلى أم فكيهة المتكورة على (شلته) بجوار الباب:

ـ لم ننته من غطرسة الرجال في الحسينية، لنسمع عن هذا الكلام الفارغ تقوله النساء..

تصعبت الست أم فكيهة وهي تخفي وجهها بطرحتها التي أمسكت بها بيدها وقالت:

ـ ناقصات عقل ودين يا سيدي الآغا..

قالت شهوة هانم:

ـ بل ناقصات أدب وتربية، ما لنا ومال الولد الذي مات؟

صاح قوبلاي آغا:

ـ هو خائن، جاسوس أعداء، دمه حلال.

وصاحت الست أم فكيهة:

ـ ومقصوفة الرقبة أم عين بحجة، زينب الملعونة تبكي عليه ليل نهار ولا تستحي.

قالت شهوة هانم:

ـ من زينب هذه يا أم فكيهة؟

مصمصت أم فكيهة شفتيها ولوت وجهها في استنكار وتأفف وقالت:

ـ بنت قليلة الحياء.. قال كانت تحبه، وهي التي هجمت علي وضربتني، قصف الله عمرها وقطع يدها.

صاح قوبلاي آغا فجأة:

ـ هجمت عليك وضربتك هذه المجرمة لا بد من عقابها، أين لاظ آغا.. لاظ آغا لا بد يقبض عليها..

قالت شهوة هانم:

ـ يا جناب الآغا الست فكيهة مظلومة ولا بد أن تأخذ لها بحقها.

واستمر قوبلاي آغا في صوته العالي يقول:

ـ الخائنة تحب الخائن، وهما معا عصابة واحدة، وعندما انكشف امره هي تقود الخيانة الآن..

وحتى الست فكيهة نفسها شهقت وهي تقول:

ـ من؟ زينب؟ عمرها ما غادرت الحارة، هي مقصوفة الرقبة وقليلة التربية ولكنها لا تعرف في الحياة شيئاً..

التفت إليها قوبلاي آغا وهو يقول:

ـ أنت لا تعرفين شيئاً، أسكتي أنت..

تمتمت أم فكيهة كأنها تحدث نفسها في همس قائلة:

ـ أنا أعرفها منذ ولدت وحتى ماتت أمها بهيجة، موت علاء الدين هو الذي قلب كيانها . .

قالت شهوة هانم:

ـ يا أم فكيهة هل أنت تفهمين أكثر من الآغا.

صاحت أم فكيهة، وكأن شيئاً ضربها فوق رأسها:

ـ استغفر الله العظيم يا ست هانم، جناب الآغا يعرف كل شيء ويفهم كل شيء أنا امرأة جاهلة فقيرة، مالي أنا وهذا الهم كله.

التفت قوبلاي آغا إلى شهوة هانم قائلاً:

ـ أرسلي مرجانة تستدعي لاظ آغا على الفور.

قالت أم فكيهة وهي تتكور على نفسها إلى جوار الجدار.

ـ على الفور. . طبعاً على الفور. . هل المسألة لعبة، أم هي لعبة.

وبينما همت السيدة شهوة هانم بمغادرة الغرفة تعالى الصراخ والصوات، وملأت ضجة نسائية عنيفة المكان كله، ونظر قوبلاي آغا حوله في قلق وهو يقول:

ـ ما هذا؟

قالت شهوة هانم:

ـ ربما يودعن ميتا.

بينما هبت أم فكيهة من جلستها متوفزة وهي تقول:

ـ لا ميت ولا يحزنون، هؤلاء نساء الحسينية أمام البوابة.

وقبل أن تكمل كلامها دخلت مرجانة إلى الغرفة مندفعة

استئذان وهي تقول لاهثة :

ـ معركة أمام الباب يا ست هانم، النساء يضربن البواب.

وصاحت أم فكيهة:

ـ حتى البواب الطيب لا يسلم من أذاهن.

وصاحت شهوة هانم:

ـ يضربن البواب.. كيف؟

سكتت مرجانة وهي تسترد أنفاسها، وتعود إلى صوتها المعتاد وقالت:

ـ أراد صرفهن بعصاه فصوتن وهاجمنه، وهو الآن ضائع وسطهن لا حول له ولا قوة..

صاح قوبلاي آغا:

ـ هذا كثير يهاجمن السراي، وبالقوة.. أين لاظ آغا.. أين لاظ آغا.

قالت الست شهوة:

ـ إسرعي يا مرجانة وأطلبي من رئيس الحراس أن يسرع إلى هنا على الفور.

عادت أم فكيهة تقول لنفسها في همس:

ـ نعم على الفور.. طبعاً على الفور.. هل هي فوضى.. أم هي فوضى.

* * *

ظهر لاظ آغا من فتحة البوابة فجأة وصاح:

ـ سكوت.. تعالى هنا يا بواب.. هل انت مجنون حتى تعامل

السيدات الحرائر هذه المعاملة؟
وأحدثت هذه الكلمات الحازمة فعلها، فساد الصمت الباحة التي تقع أمام باب القصر والتي امتلأت بلابسات السواد، وخرج من وسطهن البواب الضخم وهو يلملم نفسه، وما زالت العصا الرفيعة في يده لم تتح له واحدة الفرصة لاستعمالها.. وقال لاظ آغا:
- أنت مرفوت يا بواب، هيا سلم نفسك للحرس لتلقي عقابك، ولكن أخبرني أولا ماذا حدث بالتفصيل..
ولم يدر البواب الذي كان رأسه ما زال يدور.. وما زال فكره مشتتا، هل هو مرفوت، أم هو مقبوض عليه، أم هو مسؤول يحكي ما حدث، وعاد يفتح فمه في بلاهة وهو يشير بيده التي تحمل العصا الرفيعة في حيرة وعجز.. وصاح لاظ آغا:
- أرم هذه العصا من يدك وتكلم بسرعة
وأعاده صوت السلطة إلى نفسه فرمى العصا من يده، والتفت إلى آغا الحرس في استعطاف وهو يقول:
- يا جناب الآغا، هؤلاء النسوة ضربنني، وسخرن مني، ومزقن ثيابي..
صاحت الست حفيظة:
- كذاب يا جناب الآغا، قلت له نريد أن نقابل الهانم السراي، فخرج علينا بعصا في يده ليضربنا، هل كنا نسكت عليه..
وقالت الست نعيمة:
- يضربنا ونسكت عليه، ونحن حرائر كما قلت جنابك.

وتلفت البواب حوله في قلق وهو يحاول أن يسمع الآغا صوته ويقول:

ـ هل مثلهن من يقابل الهانم يا آغا..؟

وصاح:

ـ والله مظلوم يا آغا، إنما أردن أن يكسرن الباب..

صاحت الست حفيظة:

ـ كسر الله رقبتك يا بعيد، بماذا نكسره، ابالشوم نحمله في أيدينا، أم بعضلاتنا يا خايب..

وصاحت الست نعيمة:

ـ نحن نساء يا آغا وليس من شيمة النساء كسر الأبواب يا آغا، انما هو هذا الأحمق الذي سبب كل هذه الضجة.

وقالت الست حفيظة:

ـ ولم يكن من داع لهذه الضجة كلها لو سمح لنا بالدخول لرؤية الهانم والتحدث معها...

قال لاظ آغا:

ـ ولماذا تردن التحدث مع الهانم..؟

وأحس البواب أن الأنظار انصرفت عنه، فأسرع ينزوي بسرعة إلى ركن جوار الباب بينما قالت الشيخة زهيرة في صوتها الهادىء الوقور.

ـ أنت مسلم مثلنا يا أبن الأصول:

قال لاظ آغا:

ـ مؤمن وموحد بالله يا ست الشيخة..

وكانت الشيخة زهيرة قد تصدرت النسوة تقودها زينب ووجهها

شاحب ولكنه صارم مقطب الملامح، وقالت الشيخة زهيرة.

ـ أليس من شرع الله أن لكل قتيل ديه . . نحن جئنا نطالب بدية قتيلنا علاء الدين، ونطالب باحقاق الحق، والقصاص من قاتله . . ولكم في القصاص حياة يا آغا.

ارتج على لاظ آغا، وصمت . . وسكتت النسوة كلهن، وإنْ كن لم يفهمن شيئاً مما قالته الشيخة زهيرة، لكنهن أدركن أن ما تقوله شيء هام لهن ولكل ما جئن من أجله وقال لاظ آغا:

ـ أنا مملوك يا شيخة، أو كما تسمونه شلبي، وليست لي قدرة على فهم مسائل الدين والشريعة، ولكن الآغا الكبير، آغا الحسينية كلها يقابلكن، ويحكم بما يراه حقيقة وعدلاً . .

صاحت الشيخة زهيرة:

ـ لا بل تحكم بما أمر الله يا آغا، بشريعة المسلمين يا آغا.

قال لاظ آغا في حيرة:

ـ طبعاً، طبعاً، والآن، أدخلن إلى ساحة القصر، وسيراكن الآغا والهانم، وقلن ما تشأن له ولها، وهما يعرفان ما يمكن أن يحقق العدل والشريعة أدخلن يا هوانم:

وصاح بأعلى صوته:

ـ افتح الباب يا بواب حتى تدخل الهوانم إلى ساحة القصر . .

ثم التفت إلى النسوة وهو يقول:

ـ وسأبلغ الآغا رغبتكن في لقائه ولقاء الهانم.

صاحت الشيخة زهيرة:

ـ ورغبتنا في العدل والشريعة يا آغا.

قال لاظ وهو يحس بالعرق ينداح من كل جسده رغم الساعة المبكرة من هذا الصباح الرطب.

ـ نعم، نعم ورغبتكن في العدل والشريعة يا ستنا الشيخة.

* * *

قال قوبلاي آغا وهو يستدير في سيره بعد أن قطع الغرفة من أقصاها إلى أقصاها في خطواته السريعة القلقة:

ـ وسمح لهن بدخول ساحة السراي. . مجنون لاظ آغا مجنون.

وقالت شهوة هانم:

ـ طبعاً مجنون، ماذا يمكن أن أقول لهؤلاء النسوة. .

وصاحت أم فكيهة من حيث تكومت إلى جوار الحائط:

ـ انهن يضربن يا جناب الهانم، إبعدي عنهن، يشددن الشعر، ويخمشن الوجه ويمزقن الثياب، لا إبتعدي عنهن، ولا تحاولي لقاءهن.

قال قوبلاي آغا:

ـ سأعرف كيف أوقف لاظ آغا هذا عند حده.

وقالت مرجانة التي كانت تطل من المشربية التي تقع مباشرة في مواجهة ساحة السراي:

ـ لقد وصلت النسوة إلى الساحة يا هانم:

واندفعت شهوة هانم إلى المشربية تطل منها وصاحت:

ـ كلهن يلبسن السواد، هذا منظر مقبض جناب الآغا.

وكان الآغا إلى جوارها ينظر من المشربية إلى جمع النسوة المتدافقات إلى ساحة القصر الداخلية، وابتسم في هدوء وهو يقول:

ـ لاظ كان على حق منذ البداية، هن هنا داخل اسوار السراية، ونحن نفعل بهن ما نشاء، فهن هنا تحت رحمتنا تماماً. قالت مرجانة في هدوء:

ـ في خارج اسوار السراية وقف الرجال ينتظرون يا مولاي..

وقالت أم فكيهة:

ـ يا مصيبتي الكبرى، هؤلاء نسوة الحي، ولو حدث لهن أي شيء فالحي كله سيشتعل ناراً لا تبقي على أحد.

وهبت واقفة وهي تلملم ملاءاتها وتقول:

ـ دستور يا أسيادي.. أخرج وجاه النبي.

قال قوبلاي آغا:

ـ لن يخرج أحد.. وسنرى.. سنرى.

قالت شهوة هانم وفي تنظر من خلال المشربية:

ـ تعالي هنا يا أم فكيهة.. هل هذه هي البنت التي ضربتك.

قالت أم فكيهة وهي تتجه نحو المشربية:

ـ قصف الله عمرها... أين هي؟

أشارت شهوة هانم بأصبعها إلى الفتاة التي تقف إلى جوار الشيخة العمياء وقالت:

ـ هل هذه هي أم فكيهة؟.

صاحت أم فكيهة وهي تضرب كفا بكف:

ـ كيف عرفتها يا هانم، هذه زينب بشحمها ولحمها ودمها.

ابتسمت شهوة هانم وهي تقول:

ـ التمرد يبدو على كل جزء من جسدها النحيل ووجهها المعروق.

ثم التوت ابتسامتها وهي تقول:
ـ هي ليست حلوة يا أم فكيهة.
وقالت أم فكيهة في إندفاع:
ـ هي أحلى بنات الحي يا هانم.
ثم سكتت وارتج عليها أمام ابتسامة الهانم اللزجة، وتراجعت قائلة:
ـ أين هي من بنات المماليك يا ست هانم، ما هي إلا بنت الحسينية.
قال قوبلاي آغا وهو يحدق في الجمع الأسود المتحشد في ساحة القصر:
ـ بل هي بنت حلوة.
وحل الصمت بالغرفة فلم يتكلم أحد.. وعاد الآغا يقول:
ـ هذا غزال نافر يدفىء فراش أي رجل.
وصاحت شهوة هانم:
ـ جناب الآغا:
وازدادت ابتسامة الآغا اتساعا وهو يقول:
ـ كل شيء بأوانه يا هانم.. ولكن هذه الفتاة لا تغادر هذا القصر أبداً.
وصاحت شهوة هانم في إنفعال:
ـ ماذا تعني يا جناب الآغا؟.
قالت مرجانة في صوتها الهادىء:
ـ الآغا يريدها لفراشه.

وصاحت أم فكيهة في حسرة وتعاسة:
ـ يا عيني عليكي يا بنت بهيجة.
وقالت شهوة هانم:
ـ ما هذا يا قوبلاي آغا؟
ازدادت ابتسامة قوبلاي مزدوجة وهو يقول:
ـ خادمة فراش يا هانم.. هل هذا عزيز على آغا.
قالت شهوة هانم:
ـ البنات المجلوبات كثيرات.. فاختر منهن من تشاء، ولكن هذه فلاحة!
ورغم لهجة الإزدراء البادية في صوت شهوة هانم، إلا أن نغمة الغيرة المختفية المستثارة فجأة، كانت تبدو واضحة جلية، وقالت أم فكيهة:
ـ يا جناب الآغا، هذه بنت لا تعرف دنيا، ولا يمكن أن تسعد رجلا ناضجا كجناب الآغا، هذه زينب بنت بهيجة.
قال قوبلاي آغا:
ـ هذا كلام لا معنى له.. أنا أريد هذه البنت، وجهها كالتفاح، وفي عينيها ألف شيطان، وجسدها سمهري كأنه رمح
صاحت شهوة هانم:
ـ أتتغزل فيها يا آغا وأنا أقف إلى جوارك؟
ضحك قوبلاي آغا وهو يقول:
ـ أتغارين... شهوة هانم؟
ضحكت شهوة هانم ضحكة صفراء وهي تقول:

ـ أغار؟ . . أغار ممن؟ . . من هذه البنت العجفاء، لا أظنها تعرف كيف تغتسل. .

صاحت أم فكيهة:

ـ هي لم تبلغ الحلم إلا في العام الفائت يا آغا.

صاح الآغا:

ـ أنا أريدها، أسمعتم، خادمة فراش مصرية، لي أنا آغا الحسينية، ساعتها سيعرف كل رجل كيف يطاطىء رأسه، أمامي وأنا أسير في حواري الحي. .

صاحت أم فكيهة دون أن تحس بنفسها، ولا بما تقول:

ـ خاف الله يا آغا، البنت صغيرة وليس لها أب أو أخ يحميها، هي يتيمة وديعة الله في الدنيا

صاح قوبلاي آغا:

ـ ماذا جرى لك يا امرأة. . ؟ ألست تقولين أنها ضربتك، جرتك من شعرك ومزقت ثيابك وهي فاجرة. . ألم تقولي هذا. . ؟

صاحت أم فكيهة وهي ترفع يدها إلى السماء:

ـ لا يا مولاي الآغا. حد الله. . البنت لا فاجرة ولا شيء. . هي ضربتني ليسامحها الله، ولكن فاجرة لا . . هي لم تر الدنيا ياحبة عيني أبداً. . غير هي حزينة على علاء الدين. . لا يا مولاي الآغا، حد الله بينك وبين ما تقول هي بنت ناس وأصول.

صاح الآغا في عنف:

ـ هذه المرأة مجنونة، أطرديها يا شهوة هانم، فورا، لا تبقى هنا

ثم التفت حوله وهو يصيح:

ـ مرجانة . . اخرجي هذه المرأة المجنونة من هنا.

قالت مرجانة في هدوء:

ـ هي ليست مجنونة يا آغا . . بل هي لأول مرة في حياتها تتحدث حديث العقل . .

وصاح قوبلاي آغا في غضب:

ـ وأنت أيضاً يا مرجانة تجرؤ ين على الرد، وتبادليني الكلام بلا إذن . .

قالت شهوة هانم.

ـ أنت في حجرتي يا قوبلاي آغا، وهؤلاء نسائي ، وهن معي ، ويدافعن عني ويرفضن أن يستهوي الآغا غير جمال السراي ، وأنوثة أخرى غير أنوثة القصر . .

توقف الآغا لحظات، ثم اندفع يضحك في إنفعال . . وقال:

ـ أنتن نساء حقا لا تفكرن إلا في أوائل الأشياء وأبسط الأسباب . . أنا لم أعن ما خطر ببالكن وإنما أعني أن هذا ما ستقوله للناس، إنما أنا أريدها لشيء أخر . .

قال لاظ آغا من الباب حيث ظهر محمر الوجه بادي الانفعال:

ـ لم أملك إلا أن أسمع جزءا من الحوار الذي دار هنا يا جناب الآغا فعفواً . . ولكن . .

صاح قوبلاي آغا:

ـ آه . . لقد أصبحت حجرتي مباحة لكل إنسان، كل من يخطر له أن يندفع داخلا بلا استئذان

قال لاظ آغا وهو يلاحظ علامات الارتياح التي ظهرت على وجوه النسوة لرؤيته:

ـ عفوا يا جناب الآغا، ولكن اليوم ليس ككل الأيام، وقد دفعتني الضرورة دفعا إلى الإسراع إلى رؤيتك، وكان الباب مفتوحا فسمعت.

صاح قوبلاي آغا مقاطعا:

ـ على كل حال، كنت سأرسل مرجانة لاستدعائك، بل لقد طلبت هذا من الهانم بالفعل ولكن فضول النساء، وقلة عقلهن دفعها إلى البقاء هنا لتعترض على ما أقول..

صاحت مرجانة في خوف:

ـ أنا لم اعترض يا مولاي آغا، حاشاي، ما أنا إلا جارية سوداء يشرفها أن تنظف التراب العالق بنعل مولاي:

قال قوبلاي آغا، وقد بدأ يحس بالارتياح:

ـ عظيم مرجانة، عظيم، ولكنك أبحت لنفسك الكلام في حضرتي دون أذني، ولتخالفي ما أقول، وهذا لن يمر دون عقاب..

وأحست شهوة هانم أن قوبلاي يضرب أضعف الأطراف ليفوز على الباقين بسهولة، فقالت في سرعة وهي تشير إلى المشربية:

ـ ما كل هذه الضجة في صحن الدار يا لاظ آغا؟

اسرع لاظ آغا يقول:

ـ من أجل هذا جئت مسرعا يا هانم، فقد دخلت النساء إلى ساحة القصر الداخلية وهن يردن الأذن بمقابلتك والحديث إليك.

وفي عنف قال قوبلاي آغا:

ـ بل هذا ما أردت استدعاءك من أجله، من الذي سمح لك بإدخال هذه النسوة إلى الساحة الداخلية للقصر، هل أنت مجنون؟

قال لاظ آغا:

ـ هن في الداخل تحت رحمتنا يا جناب الآغا.

صاح قوبلاي مسرورا من نفسه:

ـ ألم أقل لك شهوة هانم، لاظ آغا على حق هن هنا نفعل بهن ما نشاء.

صاح لاظ آغا:

ـ ليس هذا ما قصدت إليه جناب الآغا.

قال قوبلاي آغا:

ـ لقد فهمنا هذا من البدء، وها أنت قلتها بنفسك يا لاظ آغا.

قال لاظ آغا:

ـ إنما عنيت يا جناب الآغا إننا نستطيع التفاهم معهن في هدوء هنا بعيداً عن إثارة الشغب مع الرجال أيضاً.

صاح قوبلاي آغا:

ـ عظيم.. عظيم، والآن أنا أريد هذه البنت الحلوة التي تلبس السواد وتقف كالمهر الحرون وسطهن..

صاحت شهوة هانم:

ـ هل تعود إلى هذا الكلام يا قوبلاي، انت قلت أنك تريدها لشيء آخر..

وقالت أم فكيهة:

ـ وهل في بنات الحسينية من يحدث هذا لهن؟

صاح قوبلاي آغا:

- إخرسي يا امرأة، مالك أنت وما يحدث لهن، ألم تشتكي منها، ألم تقولي أنها ضربتك..

قال لاظ اغا:

- هي التي اشتكت إذن؟

صاحت أم فكيهة:

- اشتكيت نعم.. ولمن أشكو إن لم يكن لجناب الآغا، ولكن البنت.

صاح قوبلاي آغا:

- انتهى كلامك، هذا كل ما نريده منك.

ثم التفت إلى لاظ آغا قائلاً:

- أسمعت ما قالت، حرر هذه الشكوى كتابة، وأقبض على هذه البنت، وأذع في الجمع أنها ضليعة مع المجرم الذي قتله المملوك، وأنها خائنة مثله، وإنها تثير الشعب وتشتم الملك الصالح وآغا الحسينية، وتقود التمرد ضد السراي وضد القصر لصالح الفرنجة ثم هاتها لي أحقق معها بنفسي.

وساد الوجوم الحجرة كلها، وحلق الصمت فوق كل الرؤوس الموجودة فيها، فظهرت أصوات لغط النسوة في ساحة القصر الداخلية واضحة من خلال المشربية.. وأخذت مرجانة تبكي في صمت، ودموعها تنثال من عينيها فوق وجنتيها ووجها على جموده الأسود، بينما جعلت أم فكيهة تلطم خديها في صمت وهي تهز جسدها كله مع حركة الكفين وامتقع وجه شهوة هانم الذي

استطاعت أن تجد صوتها بصعوبة وتقول:

ـ ألكي تحصل على هذه الفلاحة تفعل كل هذا يا قوبلاي؟

وقال لاظ آغا:

ـ هذا كثير يا جناب الآغا.

قال قوبلاي آغا متجاهلا حديث شهوة هانم:

ـ لا، هذا هو الواجب لاظ آغا، وستكتب كل هذا وترسله مع رسول خاص إلى الملك الصالح ليعرف أن آغا الحسينية ساهر على مصالحه ومصالح المحروسة.

وقالت شهوة هانم في اصرار:

ـ لا بد أن تسمعني يا قوبلاي، هؤلاء النسوة يقدسن العرض، وأي مساس بواحدة منهن سيثيرهن ويثير رجالهن عليك ثورة لا تعرف لها أو لا من اخر.

قال قوبلاي آغا:

ـ من الذي تحدث عن الأعراض، هي مجرمة، وسأحقق معها بحكم سلطاني، ألست آغا الحسينية.

قال لاظ آغا:

ـ يا جناب الآغا لو اعتقلنا هذه الفتاة، وحدث لها أي شيء ستنقلب الحسينية كلها علينا..

ضحك قوبلاي آغا في ازدراء وهو يقول:

ـ أنت لا تعرف أهل الحسينية كما قلت لك مائة مرة، عندما يحسون وقع السوط سيعرفون من هو صاحب السلطة والقوة، وسيقلبون اليد التي تلطمهم طالما أحسو بوقع لطمتها القوية، وليس

أوقع ولا أسرع من عجزهم أمام ما أسمته الهانم بالعرض، سيعرفون ان الفتاة في حوزتي وأنني أفعل بها ما أشاء، ولن يجرؤ أحد بعد هذا أن يرفع عينيه أمامي، أفهمت؟

صاحت شهوة هانم:

ـ سلبت هذه الفتاة لبك.

وصاح لاظ آغا:

ـ ولكني وعدتها أن الهانم ستلقاهن.

قال قوبلاي آغا:

ـ أخبرهم أن الهانم ستلقي هذه الفتاة زينب نيابة عنهن.

ـ سيرفضون.

ـ إذن خذها من بينهن بالقوة، وليخرج الرجال بالكرابيج والعصى الرفيعة لاخراجهن بالقوة من حيث أدخلتهن..

كان صمت لاظ آغا كاملاً أمام هذا الأمر، فظل يحدق في وجه قوبلاي وكأنما لا يصدق أذنيه، وعاد قوبلاي يقول في صوت واثق لزج:

ـ هذا أمر يا آغا الحراس، من آغا الحسينية أما أن تنفذه وأما حاكمتك بتهمة التمرد.. ماذا قلت؟

رفع لاظ آغا عينيه المتعبتين إلى وجه قوبلاي المحتقن وهو يقول:

ـ أنا جندي، وعلى الجندي تنفيذ الأوامر يا جناب الآغا.

فرك قوبلاي آغا كفيه في ارتياح وهو يقول:

ـ هكذا يكون الكلام، وأحضر هذه المرأة الدلالة لتملى شهادتها عن الخائنة زينب في التقرير الذي سنرفعه إلى الملك الصالح..

قالت شهوة هانم:
ـ يا آغا.
قال قوبلاي آغا.
ـ ولا كلمة شهوة هانم، سأنظر في أمر الكلمات التي قلتها فيما بعد.
ثم حدق في وجه مرجانة المحتقن وهو يقول:
ـ أما أنت فسأجعل السياط تفصل جلدك الأسود عن جسدك يا عبدة السوء.

- ٦ -

ولول الشيخ يحيـي الشماع وهو يقول في صوت مرتجف:
ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.. اهانة، وضرب وفضيحة بعد كل هذا العمر، قال الأسطى عقيرب في صوت متماسك:
ـ الصبر يا شيخ يحيـي، لكل ظالم يوم.. والله موجود.
همس الشيخ يحيـي الشماع ودموعه تتخلل لحيته الشيباء:
ـ ونعم بالله يا أسطى عقيرب ونعم بالله، أن الله مع الصابرين، ونعم بالله.
كان الرجلان مربوطين وقد التصق ظهراهما وتدلت سيقانهما على جانبي البغلة، ووجه الشيخ يحيـي الشماع ألى ذيلها، ووجه الأسطى عقيرب إلى رأسها، والمملوك يسير بها ممسكا بمقودها، وحولها مجموعة من المماليك حاملين الدبابيس والرماح واللتوات وأمامهم جميعا المنادى يدق طبلته بانتظام والناس تتجمع تنظر في

ذهول وصمت.

ثم تتوقف الطلبة ليرتفع مكانها صوت المنادي الأجش يصيح:

يا أهالي الحسينية، بأمر مولاي آغا الحسينية سيدي قوبلاي آغا دام وعز سلطانه وارتفع في الدنيا مقامه يجلد كل واحد من الخائنين الحاقدين عملاء الفرنجة عشرين جلدة في الميدان الكبير غدا بعد صلاة الجمعة على رؤوس الاشهاد، وليأخذ كل خائن جزاءه، وليتعظ من في قلبه جبن الخيانة وكفرها، وليحق امر الشرع والسلطان الملك العادل الصالح أيوب المظفر على كل الأعداء والخونة والحاقدين.. وليعلن الحاضر الغائب ليحضر الجميع جلد الخونة وليشهد عدل مولانا الآغا قوبلاي آغا الحسينية المعظم.

ثم يعود من جديد إلى دقته الرئيسية على الطبلة ويستأنف الموكب الغريب سيره البطيء الرتيب، وشيئاً فشيئاً بدأ الناس يتجمعون على نواصي الطرق، وأمام أبواب البيوت يرقبون في صمت الموكب وهو يتحرك، ولكنهم لم يقتربوا منه ولم يعترضوا طريقه، وخلف الموكب بمسافة بعيدة بدأ صبية الحسينية يسيرون في وجل وخوف، ينظرن إلى الموكب وإلى وجه يحي الشماع الباكي ووجه الأسطى عقيب المتصلب، وشيء آخر غريب غير الوجل والخوف يظهر في نظراتهم المستمرة على الموكب وفي سيرهم البطيء وراءه..

* * *

تراجعت الحاجة بهية من شباك المشربية وهي تدق بيدها على صدرها وتصيح:

ـ يا فضيحتي، يا عيب الشوم، أنظر يا حاج. .

وقال الحاج محمد أبو الأنوار وفي صوته ارتجافة تنبىء بما يحسه في أعماقه من اضطراب وخوف:

ـ خير يا حاجة. . ما كل هذه الضجة في الحارة؟

قالت الحاجة بهية:

ـ هذا شيء لم يحدث في الحسينية من قبل يا حاج محمد، لا بد أن تنزل لهم وتمنعهم فهذا عيب يا حاج محمد أبو الأنوار.

تقدم الحاج محمد أبو الأنوار وجلا من المشربية ليطالعه منظر الموكب الغريب، وأسرع يختفي من النافذة عندما التقت عيناه بعيني الأسطى عقيرب المحتقنتين. . وقالت الحجة بهية:

ـ انزل يا حاج وخلص الرجلين، أهما نعجتان تساقان إلى المذبح ويعلن المنادي عنهما. . . منهما باكر بدانق. . أنزل يا حاج أكرمك الله.

وكان الحاج محمد أبو الأنوار يقف مرتجف الجسد ممتقع الوجه شارد النظرة لا يتكلم بل ولا يفكر، وعادت الحاجة بهية تقول:

ـ كيف يحدث هذا يا حاج وأنت موجود على ظهر الدنيا؟ أهكذا تهان رجال الحسينية، وأنت موجود، ويمرون بهما أمام بيتك أيضاً؟ .

ولم يجبها الحاج محمد أبو الأنوار الذي كان يحس أن لسانه قد تضخم في فمه، وأنه ثقيل وجاف، وأن عضلات فمه قد تصلبت فهو لا يستطيع أن يحركها ليتكلم. . ولم تكن الحاجة بهية تحس شيئاً مما يجول داخل الحاج محمد أبو الأنوار ـ فعادت تقول:

ـ إذهب إلى الآغا يا سي الحاج فهو قطعاً لا يعرف ، ولو عرف لأفرج عنهما في الحال.

وبمجهود جبار استطاع الحاج محمد أن يحرك فمه فخرجت الكلمات هامسة كالفحيح وهو يقول:

ودهشت الحاجة بهية من صوت الحاج محمد أبو الأنوار فنظرت إليه وهي تقول:

ـ ويرضى بكل هذا الذي يحدث؟

وقال الحاج محمد أبو الأنوار:

ـ هو الذي أمر بما يحدث.

واهتز في مكانه وجلس فجأة وقد ازداد شحوب وجهه، وصاحت الحاجة بهية:

ـ مالك يا حاج.. ما الذي حدث.. أتحزن عليهما، هما يستحقان ما يحدث لهما مالنا ومالهما،

ولم يرد عليها الحاج فقط ازداد وجهه امتقاعا، وأنفاسه لهاثا، فدقت الحاجة على صدرها وهي تصرخ:

ـ يا مصيلحي، أنجدني يا مصيلحي، الحاج محمد مريض يا مصيلحي.

ثم جثت إلى جواره وهي تتحسس وجهه وشعره بيدها وتصرخ:

ـ ملعونة الحسينيه، وملعونة حارة على لوز، مالنا ومالهم، مالنا ومالهم أفق يا حاج.. كلمني يا حاج..

ثم أخذت تصوت وتلطم وتبكي في آن واحد...

* * *

قال قبلق وهو يفتل شاربه:

ـ أترى وتسمع يا شناوي، هذا الشربتلي الكلب كان يريد ثمن الحلوى والعرقسوس، وضحك في سرور حقيقي وهو يقول:

ـ أنظر إليه يبكي كالنساء، وهو مربوط إلى البغل. . بغل الموكب فعلا . .

وظل محمد الشناوي ينظر إلى الموكب لحظات في صمت، وفي داخله يجيش سرور حقيقي ممتع، هؤلاء إذن هم الرجال الذين ينظرون إليه بازدراء، وينفون في أعماقهم انتهاءه إليهم، وضحك، أهذا هو الشيخ الشماع الوقور، الذي يحفظ القرآن، ويتبرك الناس به، وبدعواته، وعاد يضحك من جديد، وهذا هو الأسطى عقيرب الذي يحلفون بشجاعته ورجولته وشهامته. . . وانفجر ضاحكا وهو يضرب فخذيه بكفيه، ثم أخذ يرقص أمام الوكالة وهو لا يتمالك نفسه وضحكاته تتجاوب مع صيحات المنادي ودوي الطبلة، وقال قبلق في حيرة:

ـ لماذا تضحك هل جننت أم أصابك مس. . ؟

قال محمد الشناوي بين ضحكاته والدموع التي ابتدأت عيناه تمتلئان بها:

ـ هذا يومي يا أمير. . هذا يوم ما كنت أحلم أن أراه ابدا.

قال قبلق، وما زالت الحيرة تملأ وجهه ولهجته:

ـ أنا أسر مفهوم، ولكن أنت؟ . . لماذا يا فلاح كل هذا السرور، أليس هؤلاء رجال حيك؟

توقف الشناوي عن ضحكه ورقصه لحظات ليمسح الدموع من

عينيهم ويقول:

ـ ألم تسمع هذا الفوال الملعون يسميني بالطنجير، هم يحتقرونني، يظنون أنني ناقص غير كامل، أنني لست منهم.. هذا يومي يا أمير، عشت ورأيتهم مربوطين كالسائمة، ويدار بهم في الحواري والأزقة، وسأشهد جلدهم غدا وأرقص مع كل صيحة من حناجرهم العجوزة، وكل تمزق لجلودهم.. هذا يومي يا أمير هذا يومي..

عاد قبلق يفتل شاربه وهو يقول في حيرة:

ـ مجنون.. أنت بلا شك مجنون.

* * *

وقفت أم سلامة وسط نساء الفراخة يرقبن الموكب وهو يمر من أمامهم في صمت حزين، وثورة مكبوتة، وما أن انتهى المنادي من آخر كلماته حتى صاحت:

ـ عيب والله عيب يا ناس.

ونظر إليها أمير الموكب في حدة فجذبها أبو سلامة من يدها يبعدها إلى داخل الجمع المحتشد من النساء والرجال والصبيان وهو يقول:

ـ أسكتي يا امرأة، أتريدين ضياعنا..

وتململت بين يديه القويتين وهي تقول:

ـ إبعد يديك عني، هل يرضى أحد عن هذا الشيخ الشماع، الرجل الطيب حامل كتاب الله..

إزداد أبو سلامة جذبا لها بعيداً عن أعين حرس الموكب وهو يقول:

ـ الشلبي ينظر إليك امرأة، كفى سفاهة، أم تريدين أن تجديني

مكان أحدهما على هذا البغل. .

وكأنما لطمها على رأسها لطمة حادة، إذ توقفت عن الصراخ وهي ترفع يدها إلى فمها في ذعر وتقول في همس:

ـ أجدك مكان أحدهما. .؟ هل هذا ممكن يا أبا سلامة؟

قال أبو سلامة وهو يجرها بعيدا عن باب الدار المفتوح.

ـ طبعاً ممكن، لا أنا في طيبة الشيخ يحيي الشماع ولا في شهامة الأسطى عقيرب، إبعدي بنا يا امرأة وكفى عن الصراخ ألا ترين هذا الشلبي عند باب الوكالة يتعقبنا ببصره. .

قالت أم سلامة وهي تدخل باب الدار:

ـ لك حق يا أبو سلامة، نظراته كشرارة النار.

وبينما كانت أم سلامة تختفي في فتحة الدار قال طقمق لعوض النادي:

ـ من هذه المرأة التي صرخت في وجه الموكب؟، والتي جرها الرجل إلى داخل الدار؟

وكان عوض النادي قد رأى كل شيء، وتتبع ببصره وعقله كل ما يحدث فقال:

ـ لا يا أمير، هذه امرأة المساس بها يؤذي كل إنسان في الحي.

ولم يفهم طقمق ما قاله عوض النادي فعاد يسأله:

ـ من هي؟

قال عوض النادي وهو يعض على ناجذيه:

ـ هي أم كل طفل وطفلة، ورجل وامرأة في كل هذا الحي.

صاح طقمق في دهشة:

ـ أم كل. . ماذا تعني يا فلاح. . لا يمكن لامرأة واحدة أن تلد كل هذا الحي.

قال عوض النادي وفي صوته أسى ومرارة:

ـ أنت شديد الذكاء يا أمير.

فتل طقمق شاربه وتحسس وجهه الوسيم وابتسم لنفسه وهو يقول:

ـ ألم تعرف هذا إلا الآن يا نادي؟

قال عوض، وهو يحس في داخله غصة.

ـ بل أعرفه من زمن. . كلكم معشر المماليك أذكياء جدا. . جداً. . وهذا الآغا قوبلاي أذكاكم جميعاً، وسيصل بنا ذكاؤه إلى طريق لا عودة منه.

قال طقمق في حيرة:

ـ ماذا تعني يا عوض النادي؟

قال عوض:

ـ هذا الموكب الملعون الذي مر من أمامنا الآن. .

قال طقمق وعلى فمه ابتسامة راضية:

ـ وماذا فيه يا عوض، خونة يعاقبهم الآغا.

ـ هذا العقاب.

ـ وأي عقاب للخونة إلا الجلد.

ـ ليس هذا ما أعني يا أمير، إنما أعني التشهير، والربط إلى ظهر بغل، والمنادى يجوس الحواري. . لا هذا شيء لم تعرفه الحسينية من قبل. .

قال طقمق:

ـ إذن تعرفه من الآن.
تلفت عوض النادي حوله في حيرة وقال:
ـ الأحداث تسرع، والإنسان وسطها لا يفهم، ويضيع.
قال طقمق:
ـ يا فلاح.. الخائن يلقى جزاءه، أو يقتل... هذه شريعة الإسلام أليس كذلك؟
وفي مرارة قال عوض النادي:
ـ أصبحت شريعة الإسلام الآن..؟ ما هذا الذي تقوله يا شلبي؟
صاح طقمق:
ـ قل أمير يا فلاح..
قال عوض النادي في ضيق:
ـ أمير أو غير أمير، هذا أمر سنتساوي في نهايته يا شلبي.
صاح طقمق في ضيق:
ـ ما زلت تسميني شلبي يا فلاح.
قال عوض النادي في غضب:
ـ وما زلت تسميني فلاحا يا شلبي.
قال طقمق وهو ينظر إلى عوض النادي المتوفز، والشومة الضخمة في يده، ووجهه محتقن وأنفاسه متلاحقة، وفي عينيه نظرة متمرد غضبى.
ـ لست أفهم ما الذي أثارك يا نادي؟
قال عوض النادي وهو يتنفس في بطء:

ـ هذا أحسن. . . أنا عوض النادي وأنت طقمق. . ولنترك كلمات الشلبي والفلاح بعيدا الآن.

قال طقمق وهو يدير اللت الحديد في يده في عصبية ويرقب عوض النادي في حذر:

ـ ماذا تعني يا نادي؟

ـ لا شيء، فقط ما فعله الآغا قد يقلب الدنيا فوق رؤوسنا.

قال طقمق وما يزال اللت الحديد يدور في يده في عصبية:

ـ لست أفهم يا نادي.

قال عوض النادي وهو يرقب حركة اللت الحديد في يد طقمق:

ـ هل أنت من المحروسة: ؟

توقفت يد الشلبي على اللت وقال:

ـ لا . . أنا جديد في المحروسة يا نادي، وأنت تعرف هذا، أنا كنت في الشام، وجلبني الآغا من عند الست فاطمة الأقواسية. .

قال عوض النادي، وصوته يزداد هدوءاً وثقة:

ـ فأنت لا تعرف إذن طباع أهل المحروسة، وخاصة طباع أهل الحسينية.

قال طقمق وقد نسي اللت في يده تماما:

ـ لا يا نادي لا أعرف من كل هذا شيئاً؟

قال عوض النادي في ضيق:

ـ إذن فأنت لا تعرف شيئاً، أتذكر هذه المرأة التي سألتني من هي، تلك المرأة التي كانت تصرخ في وجه موكب الجلادين.

قال طقمق في حيرة:

ـ نعم . . أنت قلت هي أم كل الحسينية، وهذا شيء لا يصدقه عقل.

قال عوض النادي:

ـ هذه المرأة هي الداية التي ولدت كل رجل وطفل في الحسينية، هل رأيت كيف ثارت حين رأت هذا الموكب الملعون .

قال طقمق في حيرة تبدو لأول مرة في صوته وتحركاته:

ـ نعم، ولهذا سألتك. .

قال عوض النادي:

ـ ولهذا أقول لك أن هذا الأمر زاد عن حده، فحين تثور أم سلامة الداية لمنظر الموكب وما فيه، ستثور الحسينية كلها، وقد أحسن زوجها صنعاً حين قادها بعيداً عن الموكب والناس حتى لا تثيرهم.

قال طقمق وقد ازداد قلقاً وحيرة:

ـ تعني أنها كان يمكن أن تثير الناس ضدنا.

قال النادي في تشف:

ـ الناس لا ينقصهم الاستثارة يا طقمق، ولكن شرارة تندفع من مثل أم سلامة ستجعل الحي كله نارا موقدة.

قال طقمق وفي صوته بدايات خوف مبهمة:

ـ وكانوا يهاجموننا؟

قال عوض النادي:

ـ من يعرف كيف يسوق القهر الناس وإلى أي طريق يدفعهم؟ .

قال طقمق:

ـ ليس في هذه الحارة يا نادي.

قال عوض النادي في ثقة:

ـ الأزمة تخطاها أبو سلامة حين أبعد أم سلامة عن واجهة الموكب، ولكننا ما زلنا في عنق الزجاجة يا شلبي.

ولم تثر الكلمة المملوك كما أثارته من قبل، بل بدا وكأنه لم يسمعها أصلا، إذ كان يقول في عصبية واضحة:

ـ هل تعتقد أنهم يهاجموننا في موقعنا في الفراخة؟

قال عوض النادي في مرارة:

ـ لن يهاجمنا أحد يا شلبي فاطمئن، ولكني أريد أن أتركك لحظات.

صاح طقمق في قلق:

ـ تتركني، الآن وفي مثل هذه الظروف، إلى أين؟

قال عوض النادي، وهو يتلفت حوله:

ـ أريد أن أستشير إنسانا فيما يحدث حولنا حتى نكون مستعدين له..

قال طقمق:

ـ من هو هذا الإنسان الذي تريد أن تستشيره؟

قال عوض النادي في ثقة:

ـ لا، لا تقلق، إنما هو واحد من مشاديدكم، هو الذي جرني إلى ما أنا فيه الآن، وهو الذي يستطيع أن يفتيني ماذا أصنع الآن..

وفي نبرات صوت طقمق كان هناك قلق حقيقي وهو يقول:

ـ لا تتركني وحدي يا نادي.

ابتسم عوض النادي وهو يقول:

ـ هل أنت خائف يا شلبي؟

قال طقمق، وكل قلق سنه الصغير يظهر في حركته المضطربة:

ـ لا لست خائفاً يا نادي، ولكن لا تتركني وحدي.

قال عوض النادي:

ـ إنما هذا لصالحنا وصالحك، وما هي إلا دقائق وأعود إليك

* * *

سكت المنادي في قلق وهو يتلفت حوله، ويرقب الجموع الواقفة على جانبي الطريق في صمت وترقب، وجموع الصبية المتجمع في آخر الموكب في اصرار غريب، لم يشهد المنادي من قبل مثل هذا الذي يحدث حوله، كان يحس أن ستار الكراهية يتصاعد مع كل خطوة يخطوها، وبدأ يخشى أن جموع المماليك المتحلقة حول البغل حوله لا تستطيع حقا أن تحميه أو أن تعطيه لهجة السلطة التي تعودها في كل رحلاته من قبل، وكان صوته يتلعثم ويضطرب وهو يختم كلامه قائلاً:

ـ وليأخذ كل خائن جزاءه، وليتعظ من في قلبه جبن الخيانة وكفرها.

وتلفت حوله في قلق وحيرة، وأخذ يجيل نظره في المماليك المحيطة بالموكب وقد ملأه احساس غريب أنهم يحسون مثل خوفه ويعيشون كل قلقه، واستأنف نداءاته قائلاً:

ـ وليحق أمر الشرع والسلطان، الملك العادل الصالح أيوب المظفر على كلا الأعداء والخونة والحاقدين.

وارتفع صوت صبي من خلف الموكب صارخاً:

ـ الملك الظالم. . . الملك الظالم. . . الملك الظالم. . .

وران على الموكب صمت كثيف، فقد أحس كل من في الموكب بثقل الكراهية التي تحوطهم وتتعقبهم، وأصبح كل من في الموكب شديد العصبية يريد أن ينتهي هذا العرض الثقيل عليهم وعلى من يرقبونهم، واستأنف المنادي صياحه في صوت مهتز:

ـ وليعلن الحاضر الغائب، ليحضر الجميع جلد الخونـة، وليشهدوا عدل مولانا الآغا قوبلاي، آغا الحسينية المعظم.

ومن خلف الموكب ارتفع صياح امرأة تقول:

ـ الآغا الظالم. . . لا خونة إلا الشلبية الأغراب.

وصاحت امرأة أخرى:

ـ ليخرج الشلبية من الحسينية.

وصاح صبي:

ـ أنتم كلاب. . كلاب. . كلاب.

ودق المنادي الطبلة في قلق وأسرع في سيره ووراءه الموكب يسرع هو الآخر في سيره وقد بدأ المماليك الملتفين حول البغلة التي ربط فوقها الشيخ الشماع والأسطى عقيرب يحسون بالقلق فأسرعوا بخطواتهم، وراء خطوات المنادي المسرعة التي تحاول أن تنتهي جولتها، وتسرع إلى السراي من أقرب طريق. . .

وقال قيمق:

ـ هم يجرون جريا.

قال محمد الجعيدي:

ـ لهم حق، فلو تباطأوا انقلب الحال عليهم.
قال قميق:
ـ ماذا تعني يا جعيدي؟
قال محمد الجعيدي:
ـ تباطؤهم هنا بالذات قد يؤدي إلى ما لا يحمد أحد عقباه،
وأحس قيمق بالقلق، وقال في حذر:
ـ ماذا تعني يا جعيدي؟
قال محمد الجعيدي:
ـ أنت الذي قتلت علاء الدين يا شلبي.
صاح قيمق وهو يقف من مكانه فوق حافة جلس فوقها إلى جوار الخيل:
ـ أنت تنسى أننا من عند الآغا قوبلاي.
قال محمد الجعيدي في ابتسامة خبيثة ماكرة.
ـ ذكرهم بهذا يا أمير. كل هؤلاء الرجال الذين يسيرون وراء الموكب الحزين يتوسطه عقيرب والشماع، ذكرهم بأنك من عند الآغا قوبلاي.
ترك قيمق اللت الحديد الذي كان يمسكه في يده، واقترب من محمد الجعيدي، وأمسك يده في عنف وهو يقول:
ـ نحن هنا معا بأمر الآغا قوبلاي، وهو يحمينا من الغوغاء.
ابتسم الجعيدي وهو يقول:
ـ طبعا، طبعا، اطمئن يا شلبي، الموكب ابتعد عنا ولا داعي لخوفك.

ـ ولكنك قلت انني الذي . .
ضحك الجعيدي وهو يقول في نغمة ساخرة:
ـ . . . الذي قتلت علاء الدين وسببت كل هذه المشاكل . .
ولكنهم لا يعرفون إلا أن شلبيا قتله ولكن أي شلبي فيهم؟ الناس لا تعرف، فهم لا يعرفون الفرق بين شلبي وآخر كلكم عندهم شلبية . . .
قال قيمق في قلق:
ـ يا جعيدي هؤلاء الناس كانوا يصرخون كالمجانين، وهم يرجمون موكب المنادي بالطوب . . ألا يخافون الأمراء المحيطين بالمذنبين . . .
سكت الجعيدي، وأطرق يفكر للحظات، ثم رفع رأسه قائلاً:
ـ هم عادة لا يشاغبون الشلبية يا أمير قيمق، ولكنهم لا يخافون الأمراء يا أمير . .
صاح قيمق في قلق متزايد:
ـ كيف هذا، الآغا قال:
اعترض الجعيدي وهو يقول في ضيق:
ـ الآغا لا يعرف أولاد الحسينية كما أعرفهم أنا يا أمير قيمق، وهو يظن المسالمة خوفا، والرغبة في السلامة جبنا، ولكنه لم يعايشهم كما عايشتهم أنا، فأنا واحد منهم يا أمير.
والتفت قيمق إلى ناحية مدخل الحارة وهو يقول في دهشة:
ـ أليس هذا صاحبك النادي . . كيف ترك مكانه مع الأمير طقمق وجاء إلى هنا دون أمر من الآغا؟

ونظر الجعيدي ناحية عوض النادي الذي كان يتقدم نحوه مسرعا، وقد بدأت علامات الارتياح تظهر على وجهه وقال قيمق:

ـ لو لم يأت إلي لذهبت إليه، فهذا أمر لا بد أن نتدارسه سويا.

سأل قيمق:

ـ أي أمر يا جعيدي؟

قال الجعيدي وهو يمد يده مصافحا عوض النادي:

ـ ما نحن فيه يا أمير قيمق، فهذا أمر لن ينتهي على خير.. ونحن فيه في ماء غريق.

قال عوض النادي:

ـ نعم يا شيخ محمد يا جعيدي نحن في هذا الأمر في ماء غريق، ماذا نفعل، وكيف نتصرف، لقد تركت مكاني مسرعا بعد أن مر الموكب أمامي وجئت فورا إليك قال الجعيدي:

ـ الريح شديدة يا نادي.

قال النادي:

ـ لو زادت عن حدها غرقت المركب بمن فيها.

قال قيمق:

ـ ما هذا الذي تتحدثون عنه، ماء غريق، وريح شديد، ومركب تغرق، ليس حولنا إلا الزرع والصحراء والجبل فنحن في البر.

قال الجعيدي:

ـ هو يعني ما نحن فيه يا أمير قيمق.

قال النادي:

ـ يا جعيدي أنا أختي تلد في الجيزة، وأرى أن أزورها أنا وأنت حتى تلد بالسلامة.
قال الجعيدي:
ـ ذكرتني فأنا لم أزر زوجها ابن عمي من زمن طويل.
صاح قيمق في ضيق:
ـ أهذا وقت زيارات وولادات؟
قال النادي في خبث:
ـ هذا أمر بيد الله يا أمير، الولادة والموت مواعيد لا يحددها إلا الله سبحانه وتعالى، ولكل شيء أوانه، وهذا أوان الزيارة.
صاح قيمق:
ـ بل أنتما خائفان، تعرفان ما تخفيانه عني وعن سيدي الآغا ولي نعمتكما وسيدكما.
قال الجعيدي:
ـ من خاف سلم يا أمير. وأنت أمير وراءك الآغا ووراء الآغا السلطان، ولكن من وراءنا نحن، لا أحد ولا شيء.
صاح قيمق:
ـ الآغا يحمينا يا جعيدي:
قال الجعيدي:
ـ سيكون مشغولا بحماية نفسه يا أمير.
وقال عوض النادي:
ـ ولا وقت نضيعه فقلبي يحدثني أن السفينة بدأت تغرق.

قال محمد الجعيدي:

ـ ونحن أول من يهرب بحياته منها. . .

* * *

كان الموكب الذي يسرع في خطوه، وخلفه صياح الصبية، وبعض الطوب من حين إلى حين يقترب من بوابة السراي حين فتحت بوابة السراي فجأة وخرجت منها النسوة لابسات السواد صارخات وصيحات العبيد والخدم يحملون الكرابيج ويصرخون وراءهن في غضب يرتفع إلى عنان السماء، وتوقف الموكب، وتوقف المتحلقون خلفه من أولاد حارات الحسينية وقد ران عليهم جميعا صمت واجم.

وتدافعت النساء فسقط بعضهن على الأرض، وأصابت احداهن ضربة سوط ، وكانت الست حفيظة تصرخ بأعلى صوتها:

ـ أغيثونا يا ناس خطفوا زينب يا ناس.

وكانت الست نعيمة تصرخ وفي تلتقط طوبة من الأرض تضرب بها العبيد والخدم.

ـ يا أولاد الحسينية، يقتلون الأولاد هؤلاء الكفرة، ويخطفون البنات، ويضربون الحريم بالكرباج، هل مات رجال الحسينية، هل تحولوا كلهم إلى حريم.

وانبعثت صرخة جماعية من خلف موكب المنادي واندفعت جموع مسرعة لا يعرف أحد من أين ظهرت، وأسرع أمير الموكب يجري، وهويسوق البغلة أمامه إلى أن دخل من باب السراي، والبواب يغلق

البوابة خلف آخر النسوة بينما انهال طوب من كل ناحية على جدران السراي وبابها، والصياح يجلب العديد من أولاد الحسينية رجالاً ونساء وشيوخاً وأطفالاً والكل يصرخ والكل يولول، والكل يلتقط الطوب ليضرب السراي . . .

- ٧ -

أغلقت كل الدكاكين في هذا اليوم في حي الحسينية، وامتلأت الشوارع بالنساء والصبية وظلت السراي تتلقى الطوب والشتائم طوال اليوم، ولم تغادر الست حفيظة مكانها أمام باب السراي وهي تهيل التراب على رأسها وتصرخ:

ـ أغيثونا يا ناس، خطفوا زينب، خطفوا زينب يا ناس.

وإلى جوارها تقف الست نعيمة وقد بح صوتها وهي تضرب السراي بطوب وهمي لم يعد أمامها على الأرض، ولم يعد في يدها وهي ترفعها وتطوح بها ناحية السراي، فقط تقف وتمد يدها إلى الأرض، ثم ترفعها في الهواء، وتطوح بما فيها إلى اتجاه السراي وهي تصيح:

ـ يا أولاد الحسينية. يا أولاد الحسينية. . . يا أولاد الحسينية.

وهذا هو كل ما بقي في كلماتها من صرخاتها القديمة أول النهار. . .

أما الشيخة زهيرة فقد حملوها إلى منزلها مشجوبة الرأس أثر سقطتها والسياط وراءها والنساء تدفعها دون أن تلحظ واحدة منهن إنها الشيخة زهيرة العمياء، وحولها جلست نسوة عديدات يتبادلن رعايتها وهي لا تقول سوى:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله. . . اعراض الحرائر يا رسول الله، أعراض الحرائر يا رسول الله. . .

ووسط هذا كله لم يلحظ أحد تسلل عوض النادي ومحمد الجعيدي من لحي كله وكل منهما يحمل عياله وأقاربه معه، كما لم يلحظ أحداً أيضاً تسلل العديد من الوجوه الغريبة عن الحي إلى حارات وأزقة، يدخلونها في صمت وهدوء، ثم يختفون في إحد منازلها دون أن يعرف بأمرهم أحد فالك مشغولون بالاحداث المتعاقبة التي توالت على الحسينية واحدة إثر الأخرى دون توقع من أحد، ودون تأهب من أحد.

وقد بدأت هذه الأحداث تتوالى أخبارها على المتحلقين في الزاوية في حارة على لوز حوب الشيخ زكي الذي أخذ مجلسه أمامهم بعد صلاة العصر، يعظهم ويهدىء من ثائرتهم في صوته الهادىء الوقور، ووسط كلماته وصل أحمد الفوال إلى الزاوية صارخا. .

ـ لو لم أشهد هذا بعيني ما صدقته ابداً. . . المملوك يجري وكأن في قدميه ألف حصان يسابق الريح نحو السراي، وقد نسي اللت والمغلق، وكل عنجهيته في الصباح. .

قال الشيخ زكي في سؤال ورد في كل أذهان المتحلقين حوله. .

ـ في حارة الفراخة، ومغلق الخشب؟

وقال أحمد الفوال وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة.

ـ ما أن مر المنادي والموكب التعس وسطه البغلة عليها الشيخ يحي الشماع والأسطى عقيرب حتى انقضت أم سلامة ووراءها كل نساء الفراخة على المغلق، حاول أبو سلامة كل جهده أن

يمنعها، وأن يخوفها، ولكنها لم تمتنع ولم تخف، وما أن صاحت أم سلامة يا عيب الشوم، حتى كان وراءها كل ولد وامرأة ورجل في الفراخة كلها . . . وجرى الشلبي قبلق كما لم يجر في حياته، والطوب وراءه والصياح يحوطه من كل جانب، ولكن وقع في أيدي أبناء الفراخة محمد الشناوي الطنجير. . .

وسكت عم أحمد الفوال، ودار في المتحلقين حوله في الزاوية بعينيه الضيقتين ثم قال:

ـ لم يكن كل هذا يحدث لولا أن محمد الشناوي فقد اتزانه فمضى يرقص ويصرخ ويصيح، هؤلاء هم رجال الحسينية، هؤلاء هم شيوخ الحسينية، هذا يومي سأحضر غدا جلدهم وأرقص وهم يصرخون . .

وساد الزاوية وجوم . . لم يقل أحد شيئا، ولكن موجة الكراهية العنيفة التي اجتاحت نفوس الكل بدت في هذا الصمت الماثل المقيت، وتلفت عم أحمد الفوال حوله، وهو يحس بثقل موجة الكراهية التي اجتاحت الجميع أثر حديثه عن محمد الشناوي ثم تنهد وهو يقول:

ـ ولم يبق في مغلق الخشب سواه، ولم تبق أمرأة ولا صبي ولا طفل إلا ومدت يدها إليه بالأذى. . .

وتنهد وهو يقول في حسرة مصطنعة:

ـ مسكين محمد الشناوي، هو ملقى الآن في وكالة الخشب، يحوط جسده الممزق الذباب وترتفع أنات عذابه من جسده الذي لم يبق منه جزء دون جرح أو كدمة، ولا أحد إلى جواره إلا بعض

الصبية، كلما أفاق وصرخ أغرقوه في العديد من تفانينهم لعذابه، هذا يضربه بطوبه، وهذا يشج رأسه بوتد منزوع من الأرض، وذاك يضع فوق صدره الممزق بعض النمل، وآخر يدهن جسده المليء بالجراح بالخل والسبرتو وهو يصرخ ويصرخ، ولا مغيث له إلا هؤلاء الصبية العابثون به وبجراحه.

قال الشيخ زكي:

ـ هذا حرام. . . فلا يجب تعذيب المسلم أبداً.

وصاح صوت من آخر الزاوية:

ـ وهل هو مسلم، هو طنجير يا سيدنا الشيخ.

وقال أحمد الفوال:

ـ لو رأيتم كيف رقص والمنادي يسوق الشيخ الشماع والأسطى عقيرب وهما مربوطان خلف خلاف فوق البغلة وأمامهما الطبلة والمنادى وحولهما المماليك بالدبابيس واللتوت والسيوف لعرفتم سر ما حدث له. .

قال الشيخ زكي في اصرار:

ـ ما زلت أقول أن هذا حرام، وأنه ينبغي أن يتجه أحد الرجال ليمنع الصبيان عن أذاه.

وهنا أندفع إلى داخل الزاوية عنتر العربجي وهو يصيح:

ـ لم ير أحد مثل هذا من قبل أبداً، لا، هذا شيء لم يحدث لا في الحسينية ولا في المحروسة ولا في بر الإسلام كله.

قال الشيخ زكي في تؤدة:

ـ لقد سمعنا ما حدث لمحمد الشناوي مما لا يقره شرع ولا دين . .

صاح عنتر العربجي في إنفعال واضح وهو يلوح بيديه :

ـ مالي ومحمد الشناوي ، لست أتحدث عما حدث في الفراخة وإنما أنا أتحدث عما حدث في حارة على لوز في دكان الشيخ يحي الشماع.

وكأنما القى عنتر حجرا في ماء آسن، إذ سرعان ما اندفع الكل يصرخون ويتحاورون ويتجادلون، حتى ملأ اللفظ جو الزاوية كلها، وصاح الشيخ زكي في غضب:

ـ هذا مكان عبادة يا قوم ، وليس مشربا أو محل حلوى أو مقهى ، فاحترموا المكان الذي أنتم فيه أو انصرفوا مأجورين .

ولكن هذا ما كان يمنع عنتر من أن يستمر في حكايته ، ولو حاول لأرغمه المتحلقون في الزاوية على الاستمرار فيها شاء أم لم يشأ . . ولهذا فقد استمر يقول، والكل ينصت إليه في لهفة :

ـ اختفى محمد الجعيدي ، وعوض النادي ، وهرب باقي المشاديد خائفين سخط الناس الذين أخذوا يتجمعون حول المكانين، وهرب طقمق جريا ولا يدري أحد أين هو، أما قيمق قاتل علاء الدين فقد وقع في يد عم داود السروجي والأسطى شلضم وهما يحتجزانه في الأسطبل مربوطا إلى عامود بالحبال وفي يديه قيود في قدميه قيود، وهو يصرخ وينوح كالطفل الصغير.

صاح أحمد الفوال:

ـ هذا طريق لا رجعة منه، لقد اصبحت الحسينية أمام السراي الآن وجها لو جه.

وقبل أن يفيق الموجودين في الزاوية من ذهولهم قال صوت هادىء من عند الباب الزاوية:

ـ لقد كان الأمر هكذا منذ قتلوا علاء الدين.

والتفت الجميع ليجدوا الأسطى شلضم، واقفا بالباب، وهو يعقد ذراعيه فوق صدره، ونظر إليهم واحدا واحدا وقال:

ـ لم يعد الأمر في أيدينا الآن، لقد أصبح الأمر في يد صاحب الأمر.

والتفت الى الشيخ زكي قائلاً:

ـ قلت لي أننا نعرف أمر دنيانا ونحن أولى بتدبيرها، والآن وقد فعلنا ما ارتأيناه واجباً، ماذا ترى؟

والتفتت كل الأنظار إلى الشيخ زكي الذي جعل ينظر في الوجوه المحدقة بعيونها نحوه دون ان تطرف له عين، ثم قال في تؤدة:

ـ الآن وقد عرفتم أمور دنياكم أقول لكم أن دينكم يحض على الكرامة والعزة، ولا يرضى الذل والضعة، فافعلوا ما أنتم فاعلون، والله يرعى ما تفعلون، فالمسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، والله لا يقبل من عبده ذلة ومسكنة إلا له وحده سبحانه وتعالى..

صاح الأسطى شلضم وفي صوته نبرة دهشة واضحة:

ـ فأنت معنا إذن.

قال الشيخ زكي وهو يقف بقامته القصيرة وسط جموع الجالسين:

ـ كلنا معاً يا أسطى شلضم، الحسينية كلها معاً يا أسطى شلضم.

ارتج على الأسطى شلضم فسكت والدموع تقفز إلى عينيه، بينما وقف أحمد الفوال قائلاً:

ـ يا شيخ زكي نحن تجار وصناع وأبناء بلد ولا قبل لنا بالشلبيه ولا بالآغا ولا بجنود الملك الصالح من المماليك البحرية الصالحية.

ووجم الجميع وساد صمت اللحظات، ومن آخر الزاوية وقف رجل طويل ملثم فالتفتت عيون الجميع اليه، وقال في صوت أجش:

ـ هل تأذن لي أن أتكلم يا مولانا الشيخ زكي؟

أطرق الشيخ زكي برأسه وقد تلاعبت على شفتيه ابتسامة غامضة وهو يقول:

ـ أذنت لك يا ابن الحبلى.

وفي انبهار ودهشة اتجهت كل الأنظار إلى الرجل الطويل الذي رفع لثامه عن وجهه وهو يقول:

ـ كلكم تعرفونني، فأنا عثمان رزة ابن الحسينية.

ووجم الجميع وهم يحملقون في الفتى الذي رفع اللثام عن وجهه، وإلى جواره وقف كريم الدين وهو يقول:

ـ أرسلني الشيخ زكي إليه، وقد سمع حكايتنا كلها، وسمعها معه الأمير بيبرس ثم سمعها أيضاً ومني الأمير نجم الدين البندقداري، وكلهم على استعداد للوقوف الى جوار أولاد الحسينية، لو وقفوا هم إلى جوار حقهم وواجبهم.

وساد الوجوم من جديد جو الزاوية إلى أن قال الأسطى شلضم في اندفاع:

ـ عتمان رزه من مشاديد الأمير بيبرس ،.فهل يقف الشلبيه معنا ضد الشلبيه، وهو من رجال الآغا نجم الدين البندقداري ، فهل يقف معنا آغا ضد آغا . .

صاح أحمد الفوال:

ـ حقاً بطلوا هذا واسمعوا هذا . . هذا كلام لا يدخل العقل .

قال عثمان رزه بصوته الأجش الذي فرض نفسه على الزاوية كلها فصمت الجميع ليسمعوا وهو يقول:

ـ بل هو حق ضد الظلم . . . ومن يقف مع الحق يستوي مع كل من يؤمن به، ومن يقف مع الظلم يستوي مع من يدافع عنه .

قال الشيخ زكي بصوته الهادىء الوقور:

ـ أوضح يا ابن الحبلى .

قال عثمان ابن الحبلى كما تعرفه الحسينية ، أو عثمان رزه كما تعرفه المحروسة كلها .

ـ الأمير بيبرس معنا ، والأمير نجم الدين البندقداري معنًا ضد ظلم الآغا قوبلاي وضد كل ظلم يمثل بأولاد الحسينية .

وقبل أن يعقب أحد على كلام عثمان رزه قال الشيخ زكي :

ـ والملك الصالح نجم الدين أيوب .

قال عثمان رزه :

ـ لا الأمر متروك لنا ، ولا دخل للملك في هذا ، ولكنه سوف يعرف ، ولا بد له أن يعرف حقيقة ما حدث ويحدث معنا .

قال الشيخ زكي:

ـ فنحن وحدنا إذن يا عثمان.

قال عثمان رزه وهو يجيل بصره بين المتجمهرين في صحن الزاوية.

ـ نحن كلنا، لسنا وحدنا، فمعنا عزيمتنا، ومعنا الحق.

صاح أحمد الفوال:

ـ والسلطان. ؟

قال عثمان رزه. .

ـ السلطان مع من يثبت أن الحق معه.

قال الشيخ زكي وفي صوته حزن :

ـ لابد أن نواجه قوبلاي آغا إذن ليعرف الملك أن الحق معنا.

ابتسم عثمان رزه وهو يقول:

ـ نعم لا بد من المواجهة يا سيدنا الشيخ، الحق معنا.

صاح الأسطى شلضم:

ـ الحق معنا نعم. . . ولكن القوة، من أين لنا القوة.

إرتفع صوت من ناحية الزاوية، فالتفت الجميع إليه، وإذا بحميد الدين يقف وإلى جواره محمود المصارع وكفتة البهلوان، وعويس السعران، وعرف الجميع الأول والثاني ولم يعرفوا الثالث، ولكنه بهرهم بجسده الضخم، وذراعيه الطويلتين وقال حميد الدين:

ـ حضر رجال الحسينية المدربون ليكونوا معنا.

وقال الشيخ زكي في صوته الهادىء:

ـ مرحباً بك يا محمود وأنت يا كفتة من ثالثكما؟
وقال محمود المصارع:
ـ هذا واحد من بنها العسل.. أعجبه حميد فانضم إلينا.
وقال عويس السعران:
ـ الحي الذي يخرج منه أمثال محمود المصارع وكفتة البهلوان وحميد الدين حيى، ومعركته معركتي.
قال أحمد الفوال:
ـ ونعم الكلام يا بلديات.
وقال شلضم:
ـ ولكنكم ثلاثة، وهذا لا يكفي.
وقبل أن يرد عليه الشيخ زكي ارتفع صوت آخر من الناحية المقابلة للزاوية يقول:
ـ وصلتني رسالتك يا شيخ زكي وأنا هنا ومعي عشرون من أقوى الرجال.
والتفتت الأعين إلى حيث وقف شعبان أبو ضفر شيخ العتالين في الساحل، وهم لا يفهمون مغزى كلماته... ولكن الشيخ زكي أوضح قائلاً في صوته الهادىء:
ـ يا أسطى شلضم ألا ترى أن الله يستجيب لمن يساعدون أنفسهم فيساعدهم بجند من عنده،
ثم التفت إلى شعبان أبي ضفر قائلاً:
ـ مرحباً بك يا معلم وأين من معك؟
فقال أبو سريع الذي نهض واقفاً من جلسته إلى جوار شعبان:

ـ عندنا في الحارة يا مولانا.

فقال الشيخ زكي:

ـ ألم ير أحدكم عليوة وعوض الفران؟

ووقف عليوه قائلاً:

ـ أنا هنا يا مولانا، والشيخ أبو المكارم يقرؤك السلام، ويقول موعدكم بعد صلاة الجمعة غداً

ومن ناحية أخرى وقف عوض الفران قائلاً

ـ يا مولانا من أرسلتني في طلبه ينهي أمراً يشغله وسيكون عندك من الغد.

ففرك الشيخ زكي يديه في ارتياح، بينما أخذ أولاد الحسينية الموجودون في الزاوية يتبادلون النظرات في دهشة وحيرة، وعبر الأسطى شلضم عن كل ما يجيش في صدورهم بقوله:

ـ ما هذا يا شيخ زكي، كيف علم هؤلاء جميعاً بما نحن فيه، ومتى جاؤا..؟

تلفت الشيخ زكي حوله ناظراً إلى كل ركن من أركان الزاوية، وإلى كل وجه من وجوه الجالسين فيها، ثم قال في تؤدة كأنما يزن كل كلمة من كلماته قبل أن ينطق بها:

ـ كنت أعرف أن لحظة المواجهة قادمة، لم يسع إليها أحد منا، ولكن قوبلاي كان يسعى إليها عامداً، وأنا أعرف لماذا، فمثله لا يهدأ حتى يملك كل شيء، وهو قد ملك كل الحي، ومد سيطرته على كل تجارته وماله، ولكنه كان يريد وما زال يريد أن يملك الإنسان في

هذا الحي، وأن يحيل كل شيء حي فيه إلى آلة تأتمر بأمره وتنزل على إرادته، عاش طول حياته مملوكاً لا يعرف إلا أن هناك أميراً يملك أمره، وعبيداً يملك هو أمرهم، أما الناس الناس فشيء جديد عليه لا يعرفه، ولا يفهمه ولا يرضاه . . كان يضايقه أن يسير في الطريق فلا يقف لسيره تاجر منهمك في تجارته أو شيخ لا يقوى على النهوض لمرآه، وكان يزعجه أن يصيح أمراً فلا يهب لصيحته إلا مماليكه وعبيده، وبعض من اشتراهم بماله . . . جرب الرشوة واستمال ضعاف النفوس، ولكنه كان في أعماقه يعرف أنهم يأخذون ماله ويسخرون منه، فكان لا بد له من أن يخوض التجربة التي حاولها عشرات غيره على مر التاريخ، كان لا بد له أن يكون الطاغوت، ولكي يكون الطاغوت كان يريد أن يقهر معنى الإنسان فينا، ولذا فعل ما فعل . . ولذا يفعل الآن ما يظنه كلكم استهتاراً أو غباء وجنوناً، ولكنه ليس إلا أنه لا يرى إلا نفسه وإلا قوته، وإلا إرادته . . وكما يخضع هو لأمر من يملك أمره، يريد أن يملك أمر من ولي عليهم ليخضعوا له خضوعه لسيده، أو خضوع العبيد له.

قال عثمان رزه:

ـ صدقت يا سيدنا الشيخ، هؤلاء الشلبيه لا يعرفون إلا أن يؤمروا أو أن يأمروا . .

قال الأسطى شلضم:

ـ هل يصدر منك أنت مثل هذا الكلام وأنت رجل بيبرس الأول . ؟

قال عثمان رزه:

ـ نعم مني أنا يا أسطى شلضم. . . فهم لا يحترمون إلا القوة هكذا تعلمت من معاشرتي بيبرس وأخوانه من الصالحية البحرية.

قال محمود المصارع:

ـ وهكذا تعلمت من حلبة الصراع في الرميلة وقره ميدان، الشلبي الذي أغلبه، يصبح أطوع من بناني، ولا يمر بالرميلة إلا وجاء يحييني ويعرض صداقته عليّ، ولو تركت شلبياً يغلب أحد المصارعيـين معي طغى وبغى واستكبر حتى أصارعه بنفسي وأرميه فوق أرض الرميلة صريعاً.

وقال شعبان أبو ضفر:

ـ هم يحبون القتال يا مولانا الشيخ، ونحن لا نحبه، ولكن لو فرض علينا علمناهم أننا لسنا أقل منهم.

صاح الأسطى شلضم:

ـ حتى الآن نتكلم ولم يفعل أحد شيئاً إلا عم داود السروجي وأنا، ولسنا حتى الآن نعرف ماذا نعمل بالشلبي الذي بالإسطبل.

قال عثمان رزه:

ـ أنقلوه إلى أحد بيوت الحارة سراً، واتركوا عليه من يحرسه من الرجال فسينفعنا أسره في الوقت المناسب.

التفت الأسطى شلضم إلى الشيخ زكي كأنما ينتظر أمره هو، فقال الشيخ زكي:

ـ يا أسطى شلضم قلت لك من قبل، أنتم أدرى بأمور دنياكم، وهذا عثمان رزه هو أعرفكم بأساليب الشلبيه، ولا يفل الحديد إلا الحديد.

صاح محمود المصارع:

ـ صدقت يا شيخ زكي وأنا أرضاه معلمًا لي ولمن معي وليأمر أطيع.

وقال شعبان أبو ضفر:

ـ أحسنت يا معلم محمود، وأنا مثلك، فأنا لا أعرف من أمر الضرب والحرب شيئاً..

قال الأسطى شلضم:

ـ الشيخ زكي هو الذي جمع كل أولاد الحسنية، وهو الأولى بقيادة الكل فلولا أن الكل يحبونه ويطيعونه ما جاء منهم أحد.

قال الشيخ زكي في صوته الصبور الهادىء:

ـ أنا علمتكم وأحسنت تعليمكم وأعرف هذا حين أرسل إليكم جميعاً فتقبلون، وأنا فقهتكم في دينكم وأحسنت تفقيهكم قدر استطاعتي وأعرف هذا حين لا تجدون مكاناً لاجتماعكم إلا هذه الزاوية وبعد الصلاة، ولكني يا أسطى شلضم لا أعرف في صناعة الخيل مثلكم، ولا أعرف كيف أسوي الخبز مثل عوض الفران، ولا كيف أجعل من جسدي كرة تطير في الهواء وتنفرد كالريح السمهري مثل كفتة البهلوان، كل يعمل ما يعرف، ولو التزم كل بما يعرف ويتقن لصنعنا الأفاعيل.

ضحك كريم الدين ضحكة خافتة لفتت إليه الجميع فأحمر وجهه وحرك قدميه في قلق وقال:

ـ عفواً إن ضحكت في مجلسك يا سيدنا الشيخ ولكني أذكر ذلك الشلبي الذي أراد أن يقرأ القرآن في دكاننا لأنه شلبي ويعرف كل

شيء ويتقن كل شيء.

قال شعبان أبو ضفر:

ـ الشلبي يظن أنه يستطيع أن يفعل كل ما يفعله غيره، لأنه لا يظن أحداً أقدر منه، ولأنه لجهله يحسب كل عمل سهلاً، وما دام من هم أقل منه يعرفونه ويتقنونه فهو لا بد أكثر معرفة واتقاناً من الجميع.

وتعالى الضحك من أكثر من مكان في الزاوية ليقطع حدة التوتر التي سادت الحديث الدائر وقال الأسطى شلضم:

ـ لا بأس بما اخترت لنا يا شيخ زكي وسأنفذ كلام عثمان رزه وأخرج الشلبي لإخفائه في بيت من بيوت إحدى الحارات حيث لن يستطيع أن يصل إليه إنسان، ولكن ماذا سنفعل بعد هذا؟

تقدم عثمان رزه حتى وقف إلى جوار الشيخ زكي ودار عينيه كعيون الصقور في الجالسين وقال:

ـ سأقسمكم إلى مجاميع، ومن الآن وحتى الصباح ستحرس كل مجموعة مدخلاً من مداخل الحسينية، ولن يخرج أحد إلا إذا عرفنا من هو فإن كان منا خرج وإن كان من السراي أو أتباعها منعناه، ولن يدخل أحد إلا إذا أردناه أن يدخل من كان منا دخل ومن لم يكن انتظر حتى الصباح لنعرف لماذا جاء وكيف جاء.

صاح أحمد الفوال:

ـ أحسنت التدبير يا عثمان يا عترة يا ابن حارتنا، قسمنا ونحن طوع أمرك.

وسرت في الرجال همهمة استحسان وموافقة، وارتفع صوت

عثمان فوق كل الأصوات قائلاً:

ـ سيظل الشيخ زكي هنا نستشيره فيما نريد، وسيشترك معي في التدبير من تمرس بمعرفة أمور المحروسة والإصطدام برجال الأغوات، المعلم شعبان ومحمود المصارع وكفتة والشيخ أبو المكارم حين يجيء بتلاميذه، وعليوة الفار.

وصاح أكثر من صوت:

ـ عليوة الفار.

وتلفت الجمع حولهم بحثاً عنه في لهفة فقال الشيخ زكي:

ـ هذا من أخبرني عوض الفران أن هناك أمراً ينهيه وسيأتي إلينا مع الغد.

وضحك عثمان رزه ويقول:

ـ وأعرف الأمر وما فيه، وسينهيه كما يريد وساعتها سنعرف كيف نفعل هنا مثله.

ولم يفهم أحد معنى كلامه سوى عوض الفران الذي أخذ ينظر إليه في دهشة وهو يعجب كيف عرف عثمان رزه بأمر معركة عليوة الفار مع الوشاقية، ولكنه خرج من دهشته على آهة حزينة من صيام الذي كان يجلس إلى جواره فقال له:

ـ ما الذي يضايقك يا صيام؟

قال صيام:

ـ كلكم أنجزتم ما طلبه أبي منكم إلا أنا.

قال عوض الفران:

ـ ماذا تعني؟
قال صيام:
ـ لم أعثر على عبادة الذي أرسلني بحثاً عنه.
وفي دهشة قال عوض الفران:
ـ عبادة؟ وماذا يريد من عباده؟
قال صيام:
ـ هذا أمر هو وحده الذي يعرفه، ولكن أخبرني ألم تلمح عبادة أو تراه؟

وقبل أن يجيبه عوض ارتفع صوت عبادة الممطوط الأليف بنغماته المعهودة يصيح:

ـ يا جعيدي النار حاميه يا جعيدي، تكون نار تصبح رماد لها رب يدبرها مدد يا مبرقعة يا أم الأنوار مدد..

وصاح صيام وهو يقفز واقفاً ويسرع ناحية باب الزاوية:
ـ أسمعت هذا عبادة.
وأسرع إلى جواره عوض الفران وهو يقول:
ـ أخيراً وجدته.
قال صيام:
ـ لست أراه، أين هو؟
وارتفع صوت عبادة في كلمته الممطوطة الطويلة:
ـ وحدوه.
وفي همس قال صيام:
ـ كأن صوته يأتي من كل مكان.

قال عوض.

ـ لست أراه.

قال صيام:

ـ صوته يأتي من كل مكان في الحسينية يا صيام.. أسرع معي علنا نستطيع أن نعثر عليه..

قال عوض:

ـ أين؟

ـ أين؟

قال صيام:

ـ في أي مكان في الحسينية، بل في كل مكان في الحسينية.

ومن جديد ارتفع صوت عبادة في الكلمة الممطوطة المعذبة الحزينة.

ـ وحدوه.

* * *

القسم الرابع

بعد صلاة الجمعة

- ١ -

لم تنم السراي حتى الفجر، كانت التقارير تتتالى واحداً أثر الآخر من كل مكان من الحسينية، ولم تكن كلها من التقارير التي تعودت السراي أن تتلقاها من قبل، وأخذ لاظ آغا يحس بحساسية الأمر الذي تواجهه السراي تدريجياً، ورغم أن حصار الأطفال والنساء قد رفع عن أسوار السراي إلا أن أعداداً غفيرة منهم كانوا يقفون حولها يوجهون الشتائم والإهانات إلى كل داخل فيها، أو وافد عليها، كما أن المرأتين اللتين وقفتا تصرخان عند باب السراي لم تغادرا مكانيهما منذ الأمس. وكان أكثر ما يثير دهشة لاظ آغا ذلك الهدوء الذي أخذ قوبلاي آغا يتلقى به كل ما يرفعه إليه من تقارير، وحين أخبره بتجرؤ أولاد الحسينية على الموكب الذي يتقدمه المنادي لم يزد على أن قال:

ـ هؤلاء هم الصبيان وعندما يتأدب الكبار سيتأدب الصغار.

وحين آخبره آمر اختفاء قيمق ومظنه اختطافه من قبل مجهولين. فرك يديه ارتياحاً ولمعت عيناه في سرور وحشي وهو يقول:

ـ يعتدون على واحدٍ من الأمراء.. لننتظر حتى يسمع الملك الصالح بهذا... لا وهو من نفس المنطقة التي جاء منها مماليكه الصالحية البحرية، لننتظر حتى يسمع أقطاي بهذا الامر.. هذا أحسن ما جئتني به من الأخبار.

ـ ولكن قيمق يا آغا..

صاح قوبلاي:

ـ ما له قيمق.

ـ هناك خطر على حياته.

ضحك ساعتها قوبلاي آغا ضحكاً متواصلاً فيه نبرة السخرية وهو يقول:

ـ خطر على قيمق؟ ممن..؟ هؤلاء يا لاظ لا يجرؤون على المساس بشعرة منه، لا يا لاظ للأمراء مهابتهم، وهؤلاء الفلاحون يعرفون أن قتل أمير شيء مخيف وخطير.

وعاد يضحك وهو يقول:

ـ أخيراً فقدوا عقلهم.. وأصبحوا في قبضتي تماماً، ولن يلومني أحد الآن على أي شيء أفعله بهم، بل سيصدقون أنهم جواسيس الفرنجة وخونة وحاقدون.

قال لاظ آغا في قلق:

ـ كلهم يا آغا، كلهم؟

كف قوبلاي عن ضحكه للحظات، وحدق في وجه لاظ آغا متأملاً ثم قال في تؤدة:

ـ لا ليس كلهم يا لاظ آغا، وإنما زعماؤهم، من سنجلدهم اليوم، ومن سنعتقلهم حين يعترضون على جلدهم، ومن أمسك بقيمق وأذاه، وكل من يتزعم التمرد والجحود لفضلنا عليهم. .

قال لاظ آغا في حيرة:

ـ من هم يا آغا؟

قال قوبلاي آغا وهو يلوح بيده منهياً الأمر كله:

ـ من يدري ستعرف بعد صلاة الجمعة يا لاظ. . أما الآن فارسل رسولاً في الحال إلى قلعة البحرية لتخبر الملك بأمر اختفاء قيمق.

وقد فعل لاظ آغا هذا فعلاً، إلا أنه بعد قليل فوجىء بالرسول يعود قائلاً أن مجهولين تصدوا له عند بوابة الفتوح وأرغموه على العودة إلى الحسينية مرة أخرى، وأنه لم يستطع أن يغادر الحي من أي منفذ من منافذه. . .

ولم يستطع لاظ آغا أن يتمالك نفسه أو أن يتمسك بهدوئه فأسرع بهذه الأخبار الجديدة إلى قوبلاي آغا، الذي أرغى وأزبد، وبدا عليه الغضب الحقيقي وهو يقول:

ـ يمنعون الرسول من الخروج، أرسل معه حرساً في الحال، وليقبض الحرس على كل من يعترضون طريقه. . أرأيت ها هم زعماء المؤامرة يظهرون، وسنضيفهم إلى السايس والشربتلي في بدروم السراي: . أسرع لاظ آغا، أسرع.

ولكن المفاجأة كانت مذهلة حين عاد الحرس الذي أرسله لاظ آغا مع الرسول وقد تمزقت ملابسهم وسالت دماؤهم، وفقدوا

أسلحتهم، ومعها كل إحساس لاظ آغا بالأمان. وحين أسرع بالحرس العائدين والرسول الفاشل إلى قوبلاي آغا، أوسعهم الآغا سباً وشتماً وصياحاً. . ووقف أمامه الحرس والرسول مرتجفين، وقد أخافتهم غضبته، أكثر من خوفهم من التجربة المؤلمة التي مروا بها. . ولكن لاظ آغا استطاع أن يجمع من كلامهم المذعور وسط صيحات قوبلاي الغاضبة حقيقة ما حدث. . كان الحرس ثلاثة ومعهم الرسول وهو من جند السراي المدربين، وفجأة عند اقترابهم من نهاية حارة الليمون قفز أمامهم ثلاثة من الشياطين، كما أسماهم أحدهم، واحد أمسك بالرسول وطوح به في الهواء ثم تلقاه بين يديه وأخذ يجرده من ثيابه وسلاحه، كما أمسك بكل واحد من الحرس واحد من هؤلاء الشياطين دون أن يتيحوا لأحدهم فرصة تجربة سلاحه، أو استعماله، وأحس كل واحد منهم أنه طفل في يد عملاق يضربه فوق وجهه فإذا هو لصق الحائط وإذا هو عاجز عن الحركة وإذا سلاحه قد أخذ منه، وإذا ملابسه قد تمزقت وإذا الضربات التي انهالت على جسده ووجهه تفقده الوعي، وحين أفاقوا تساندوا إلى السراي، وقد ملأ قلبهم الذعر والهلع. . قال قوبلاي:

ـ كلاب، جبناء خونة.

ثم رفع الكرباج في يديه وأخذ يهوي به على وجوههم وهم يتصايحون، ويحاولون اتقاء الضربات بأيديهم، وقد اندفع الدم إلى وجهه وقفز الزبد إلى شدقيه، وأخذ الغضب يهز جسده الضخم كله. . . ووقف لاظ آغا يشهد ما يحدث أمامه في اشمئزاز وهو يحس

أن ساعة الحسم للأمر كله تقترب . . . وعندما هدَّ التعب قوبلاي آغا، وتكور الرسول والحرس إلى جوار الحائط وقد أضاف السوط علامات دامية جديدة إلى ما كان في أجسامهم ووجوههم من قبل، تقدم لاظ آغا في هدوء وأخذ السوط من يد قوبلاي آغا، ووضعه بعيداً، وقال:

ـ يا جناب الآغا، هؤلاء لا ذنب لهم، فاتركهم يعودون إلى أماكنهم، ولنبحث الأمر كله من جديد.

أخذ قوبلاي آغا يحدق فيه وهو يلتقط أنفاسه في صعوبة، بينما تعلقت أنظار الرسول والحرس به في أمل ورجاء وأخذ قوبلاي يستعيد هدوؤه تدريجياً، وبدا أنه يحاول أن يعيد سيطرته على نفسه في صعوبة بالغة. . وأشار بيده إلى الرسول والحرس في اشمئزاز صارفاً إياهم. . وكأنما كان الرجال ينتظرون هذه الإشارة منه، إذ هرعوا يغادرون الحجرة في سرعة مذهلة، وهم يتدافعون نحو باب الخروج. . وقال قوبلاي آغا وهو يتابعهم ببصره:

ـ كالكلاب المذعورة تلصق ذيولها في مؤخرتها وهي تهرب.

قال لاظ آغا في جدية وصراحة:

ـ يا جناب الآغا، ليس هؤلاء من الأهمية في شيء، ولكن ما حملوه لنا من أخبار مهم للغاية، وأريد أن تفكر فيه وتفهمه قبل أن تقدم على شيء آخر.

كان قوبلاي قد استعاد أنفاسه، ولملم جسده الضخم فوق مقعد مريح، فنظر إلى لاظ آغا كأنما يراه لأول مرة، وقال وهو يمر بيده على جبهته:

ـ أنا أسمع لك فقل:

قال لاظ آغا:

ـ هل تعتقد يا جناب الآغا أن هناك من أولاد حسينية من يقدر على التعارك مع هؤلاء بالطريقة التي وصفوها؟

صاح قوبلاي آغا:

ـ هم كاذبون، يحاولون ستر فشلهم بهذا الحديث الخرافي.

قال لاظ آغا:

ـ لا يا مولاي، المسألة أكبر من هذا بكثير، وإن لم ندرك حقيقة من نواجهه لم نستطع أن نواجههم أبداً..

وكأنما صب لاظ آغا ماءا بارداً على غضب وانفعال قوبلاي آغا، إذا استعاد الآغا هدوءه بسرعة ونظر إلى لاظ آغا في جدية وقال:

ـ ماذا تعني يا لاظ آغا؟

وانتهز لاظ آغا هذه الفرصة التي أحس فيها أن قوبلاي ينظر إلى المسائل نظرة فيها حذر لأول مرة فقال:

ـ هؤلاء ليسوا من أبناء الحسينية الذين نعرفهم يا جناب الآغا، هؤلاء مقاتلون محترفون يا آغا..

قال قوبلاي آغا:

ـ نعم، إذ صدق هؤلاء الحرس فنحن أمام محترفين يا لاظ آغا.

قال لاظ آغا:

ـ ومن أين جاء المحترفون يا جناب الآغا، ونحن في الحسينية لا نعرف إلا أصحاب المتاجر وأصحاب الحرف، وكلهم لا يعرفون من أمر الحرب شيئاً.

قال قوبلاي آغا وقد عاد إليه هدوء تفكيره واتزانه:
ـ حقاً من أين جاء المحترفون، هذا لم يكن في حسابنا أبداً.
قال لاظ آغا:
ـ نحن لا نواجه أولاد الحسينية وحدهم يا آغا، وإنما نحن نواجه معهم قوى أخرى أقوى منهم وأقدر على مواجهتنا.
قال قوبلاي آغا وقد انعقد حاجباه في تفكير عميق:
ـ لم أكن أحسب حساب هذا أبداً يا لاظ آغا.
قال لاظ آغا:
ـ والآن لا بد أن نعيد حساباتنا يا جناب الآغا.
قال قوبلاي آغا:
ـ صدقت يا لاظ، استدع لي قبلق وطقمق، فأنا غير مستريح للحكاية التي حكاها كل منهما عن هجوم العوام على مراكزهما، وهروبهما، وهروب الجعيدي والنادي ومن معهما من مشاديد. أرسل فاستدع كلاً منهما، فهذه المسألة ليست كما أحب.
قال لاظ آغا، وقد خرجت من فمه تنهيدة ارتياح محبوسة من زمن:
ـ الآن يا آغا سنعرف طريقنا، أو سنبدأ نعرف هذا الطريق؟
التفت إليه قوبلاي آغا في حدة وقال:
ـ ماذا تعني يا لاظ:
قال لاظ آغا في هدوء:
ـ إنما أعني أننا نعيد التفكير في هدوء فيما يحدث في الحسينية أمس وأول أمس واليوم..

قال قوبلاي آغا:

ـ اليوم بجلد الشربتلي والسايس بعد صلاة الجمعة..

قال لاظ آغا في هدوء:

ـ كيف؟

صاح قوبلاي آغا في انفعال:

ـ يخرج بهما الحرس إلى الميدان ويضع كل منهما على نصبة الجلد ثم يجلدهما.

قال لاظ آغا في هدوء:

ـ السراي محاصرة يا آغا، والحي كله محاصر يا آغا، ألم تدرك هذا بعد؟

التفت قوبلاي آغا في حدة إلى لاظ آغا وهو يسأل:

ـ أتعني حقاً ما تقول؟

أطرق لاظ آغا برأسه في هدوء وهو يقول:

ـ نعم يا جناب الآغا، كل التقارير التي وصلتني تؤكد هذا، ونحن لسنا مواجهين بأولاد الحسينية الذين تعرفهم وحدهم، وإنما نحن مواجهون بمجموعة تتصدى لنا متمرسة بصنوف القتال، ولا نعرفها.

قال قوبلاي آغا:

ـ ومن هم الذين تعنيهم يا لاظ آغا..

قال لاظ آغا في حيرة:

ـ لست أعرف يا جناب الآغا.. فقد هرب محمد الجعيدي وعوض النادي وكانا هما اللذان يأتيا بأخبار الحي، ولا بد من

الإستعانة بغيرهما وليس عندي غيرهما الآن، ولكن لا بد أن نعرف حقيقة ما يدور في الحي قبل أن نقدم على أية خطوة، فجهلنا لما يحدث حولنا أمر خطير.

قال قوبلاي آغا:

ـ نعم، أعرف، هو خطير.

وقال لاظ آغا:

ـ وأخطر منه أن نعرف لماذا هرب الجعيدي والنادي وهما من أخلص مشاديدنا في الحي كله، ومن معهما من رجال قوة كنا نعتمد عليها تماماً.

قال قوبلاي آغا:

ـ استدع قبلق وطقمق لنعرف منهما كيف هرب الجعيدي والنادي، وكيف تركا هما مكانيهما رغم الأوامر التي صدرت لهما واضحة ومحدودة.

قال لاظ آغا:

ـ من هنا نبدأ يا آغا.. فلا بد أن نعرف كي نحكم، ثم نضع خططنا بعد هذا...

* * *

قالت شهوة هانم تضرب كفاً بكف:

ـ والعمل يا خالة فكيهة.

وكان الضحى قد أحاط الكون بضوئه الفضي، وكانت أم فكيهة تجلس إلى جانب الحجرة المضيئة تتأمل ما فيها من انبهار ودهشة وصمت، وقرب الباب وقفت مرجانة في مكانها الذي

اختارته لنفسها من أول النهار. . . وقالت أم فكيهة:

ـ العمل ما تريدين يا ست هانم، ما نحن إلا خدمك وعبيدك، تأمرين فنفعل ما تريدين، وننتهي عما لا تريدين. .

قالت مرجانة في صوتها الهادىء المشرق، وهي لم تتحرك من مكانها إلى جوار الباب

ـ هذا كلام لا هو في العير ولا في النفير يا أم فكيهة.

ضربت أم فكيهة كفاً بكف، ومصمصت شفتيها، ولعبت حواجبها، وهي تلتفت إلى الجارية السوداء ذات العود السمهري المنتصب وتقول:

ـ تكلمي عربي يا دادة مرجانة فلا أنا فاهمة العير ولا فاهمة النفير.

قالت شهوة هانم في ضيق:

ـ ليس هذا وقت مثل هذا الكلام يا أم فكيهة، فنحن في ضيق الآن، ولا جدوى من الكلام، ولا بد من شيء نفهم منه ما يحدث خارج السراي. .

مصمصت الست أم فكيهة شفتيها، وعوجت حاجبيها، واعتدلت في جلستها على أرض الحجرة وقالت:

ـ وهل هو لغز، أم هو لغز يا ست هانم، البنت أمسكتموها، والناس هاجت، هو العرض هين يا ناس أم هو العرض هين. . . العرض فوراً يا ست هانم. . أمال. . العرض فوراً يا ست هانم. .

قالت شهوة هانم:

ـ البنت اعتقلت للتحقيق معها، ولمعرفة صلتها بعلاء الدين،

ولعقابها لأنها اعتدت عليك وسبت السراي ، ما علاقة هذا بالعرض أم فكيهة؟

قالت أم فكيهة:

ـ أنا لا أفهم كل هذا الكلام يا ست هانم، ولا نساء الحسينية فهمن أيضاً، نحن نعرف أن البنت اختطفت من وسط نساء الحي ، والبنت صغيرة وحلوة، والآغا عليه نظرات ما شاء الله، وربنا أمر بالستر . .

قالت مرجانة:

ـ يا أم فكيهة أنا وأنت نفهم هذا، ولكن السؤال هو مالعمل؟

قالت شهوة هانم:

ـ أنتما مخطئتان يا مرجانة، المسألة سياسة في سياسة.

ابتسمت مرجانة وهي تقول:

ـ أنت تعرفين جناب الآغا يا شهوة هانم، والمسألة سياسة نعم لم نقل في هذا شيئاً، ولكن إذا كانت السياسة تأتي على هواه، وترضي مزاجه، فلا بأس. . . والبنت كما قالت أم فكيهة شابة وحلوة. . والآغا لم يخف نياته عن أحد. .

قالت شهوة هانم وقد غاص الدم من وجنتيها:

ـ لست أريد أن أصدق يا دادة مرجانة. . . لست أريد أن أصدق.

كانت لهجة مرجانة مليئة بالحنان وهي تقول:

ـ يا شهوة هانم، المسألة ليس لها علاقة بك، إنما هي نزوات الرجال منذ خلق الله الرجال على الأرض.

صاحت شهوة هانم في غضب:

ـ أأكون أنا شهوة هانم الأقواسية زوجة له، وينظر إليّ مثل هذه البنت الـ . . الـ . . الفلاحة . .

ضحكت أم فكيهة ضحكة رقيعة وهي تقول:

ـ كل وردة لها رائحة يا هانم، وكل فاكهة لها طعم . .

إزداد غضب شهوة هانم، وازداد شحوب وجهها، وهي تقول:

ـ هذه البنت لا يجب أن تستمر موجودة في السراي.

قالت مرجانة وهي تتنهد في ارتياح:

ـ هذا ما كنا نحاول أن نصل إليه، والحمد لله الذي وصلنا أخيراً إليه.

قالت شهوة هانم:

ـ كنتم . . من أنتم؟

قالت مرجانة:

ـ أنا وأم فكيهة، أنا أخاف من غضبك وضيقك، وهي تخاف ما قد يحدث للبنت.

قال أم فكيهة:

ـ يا هانم، أنا أكرهها، هذا صحيح، ولكني لا أرضى أن ينظر أحد إليها نظرة تجرح عرضها وشرفها، نحن فقراء يا ست هانم في الحسينية ومكسروا الجناح، ولكننا نصون عرضنا يا ست هانم ولا نبيع بناتنا، ولا نقبل لهن أن يعاملن كالسلعة . .

صاحت مرجانة:

ـ قطع الله لسانك يا أم فكيهة . . أمثلك من يعرض بالهانم وبي؟

صاحت أم فكيهة وهى تدق على صدرها:

ـ أنا، لا يا جماعة، أنا لا أعرف الكلام العريض الذي له ألف معنى عندكم، إنما أنا أقول الحق وبكلام عربي واضح، نحن نريد للبنت أن تجد ابن الحلال الذي تتزوجه ويسترها العمر كله، وتعيش معه على الحلوة والمرة.. ليس هذا الكلام تعريض ولا تطويل..

ضحكت شهوة هانم في مرارة وهي تقول:

ـ أم فكيهة لا تقصد شيئاً يا مرجانة.

صاحت أم فكيهة:

ـ نعم لا تقصد شيئاً يا مرجانة.

وقالت شهوة هانم مستمرة في كلامها:

ـ وكل واحدة منا ماذا كانت ترجو غير الزوج الذي يحبها ويسترها، وتعيش معه في أمان.

قالت مرجانة في لهفة:

ـ ماذا جرى يا هانم.. أنت الآن مع زوج يحبك ويكفل لك كل الستر والأمان.

وكانت عينا شهوة هانم تنظران إلى البعيد وكأنها لا ترى واحدة ممن معها في الحجرة وهي تقول:

ـ الأغنى والأقوى والأكثر طموحاً... هذا ما كانت ترجوه كل واحدة منا.. ولأننا كنا جميلات مثقفات مدربات نجحت كل واحدة في أن تجعل من سيدها زوجها، لتشاركه مجده وماله وطموحه. وها نحن يأكل قلوبنا الخوف أبداً، والطمع أبداً، والطموح الذي لا حدود له.

وصمتت فصمتت مرجانة وفي عينيها دموع، بينما صمتت أم فكيهة وقد فتحت فمها في بلاهة وفي عينيها نظرة دهشة وخوف. .
وعادت شهوة هانم تقول:

ـ والآن لم نعد نعرف الحب، وإنما نعرف كيف نحصل على المال والنفوذ، ولم نعد نرسم الخطط لمزيد من السعادة والأمان، بل أصبحنا نعيش في دوامة من التآمر والأكاذيب والشهوات.

وتنهدت وبدت كأنها تعود من مكان بعيد، وهي تتلفت حولها، ثم قالت لمرجانة:

ـ ما زينت هذه يا دادة مرجانة إلا واحدة من كثيرات، في عمر ابنته هي بل ربما أقل، ولكنه لا يجد متنفساً لاضمحلال قواه مع الأيام إلا مع بمثيلاتها.

قالت مرجانة:

ـ أفهم يا هانم، وكفاك حسرة على ما مضى.

استجمعت شهوة هانم نفسها وهي تقول:

ـ ما مضى، وما هو آت ليس إلا صورة مكررة لكل ما مضى، هذا قدرنا يا دادة مرجانة. .

قالت مرجانة:

ـ يا شهوة هانم، أمامنا أمر خطير لا بد أن نبت فيه برأي.

استعادت شهوة هانم تماسكها وابتسمت وهي تنظر إلى أم فكيهة وتقول:

ـ تماماً يا دادة مرجانة فكما تقول أم فكيهة العرض فوراً. .

ضحكت أم فكيهة وهي تسترد أنفاسها وتقول:

ـ لقد ملأت قلبي ذعراً يا ست هانم بالكلام الذي لم أفهم منه شيئاً.

قالت شهوة هانم في تسلط:

ـ أنت شكوت زينت يا أم فكيهة فماذا تقصدين بشكواك منها؟ . .

قالت أم فكيهة:

ـ قلمين حتى تتربى ثم تعود إلى أهلها.

قالت شهوة هانم:

ـ وهذا ما يجب أن يكون، أين سجنت زينب يا دادة مرجانة . . ؟

قالت دادة مرجانة وفي صوتها رنة ارتياح حقيقي:

ـ في حجرة آمنة يا هانم، وآمنة هي التي تحرسها.

قالت شهوة هانم:

ـ إذن هيا بنا . . . ماذا ننتظر.

* * *

صاح قوبلاي آغا في غضب:

ـ كيف لم تمنعاهما من الهرب، لقد كنت أعتمد عليهما وعلى من معهما من مشاديد اعتماداً كبيراً، فهم من الحسينية ويستطيعون أن يدلونا على كل مكان فيها وكل انسان فيها . .

قال قبلق:

ـ لقد خفنا على أنفسنا يا آغا من غضبة العامة.

وقال طقمق:

ـ تحدثا عن السفينة التي ستغرق والريح التي تهب وأنهما لا بد أن يهربا.

قال لاظ آغا:

ـ فئران السفينة الغارقة.

قال قوبلاي آغا:

ـ ماذا تعني يا لاظ آغا؟

ـ لقد أحسوا نفس ما أحسسته إننا نواجه خطراً حقيقياً هذه المرة، لا مجرد عاص يؤدب أو ممتنع عن الضرائب يعاقب، بل هي غضبة عارمة، ولهذا هربا.

قال قبلق:

ـ لو سمعت صياح الناس كلما أخبرناهم بالضرائب الجديدة..

وقال طقمق:

ـ بعضهم كان يثور ويهدد، وبعضهم كان ينظر إلينا في برود وسخرية، ثم يمضون.

قال قبلق:

ـ والكل يقول أشياء لا نفهمها فيضجون بالضحك، وحين نخرج إليهم ملوحين باللتوت والدبابيس يتفرقون ليتجمعوا من جديد.

قال لاظ آغا:

ـ لقد أحس الجعيدي والنادي بحقيقة ما يجري فآثرا الهرب.

قال طقمق:

ـ قالا إن وراءنا من يسندنا أما هما فلن يسندهما أحد.

صاح قوبلاي آغا في عنف:

ـ إذن فهم يحسبون أننا أضعف من تأديب هؤلاء الكلاب.

قال لاظ آغا:

ـ لقد حاصروا الحي كما رأيت، وعيونهم على القصر طوال نهار أمس وطوال الليل وحتى الآن . .

قال قوبلاي آغا:

ـ حانت ساعة تأديب هؤلاء الكلاب، هم لا يعلمون أن رسلي قد وصلت منذ زمن إلى الملك بخيانتهم وأنني سأجلد العملاء اليوم والخونة، حسناً، سوف نرى.

قال لاظ آغا:

ـ أرى أن تترك هذه البنت التي أمسكناها أمس، وأن نهدىء ثائرة الناس، ثم بعد أن ينصرف كل إلى شأنه نفعل ما نريد بمن نريد.

قال قوبلاي آغا في غضب:

ـ أتريدني أن أتراجع . . لا . . . هذا وقت الضرب بشدة وعنف . . أنا أردت أن أصل بهم إلى هذه الحالة، حالة التمرد الواضح لأقمعهم تماماً بحيث لا يرتفع بعد هذا رأس في مواجهتي أبداً، فأكون سيدهم وحاكمهم المطلق، ليصبحوا طوع يدي وطوع إشارة أصبع من أصابعي . . لا . . . هذا وقت الضرب بعنف لا وقت التراجع يا لاظ آغا.

تنهد لاظ آغا في حيرة وقال:

ـ نحن شبه محاصرون داخل السراي، بل وشبه محاصرون داخل الحي، وما معنا من رجال وعبيد عدد قليل.

صاح قوبلاي آغا:

- بل هم كافون، هم مدربون، هم جنود يعرفون واجبهم، أما هؤلاء، أولاد الحسينية فهم حثالة مجرد تجار ومشايخ وصناع ليس لهم في أمر القتال ألم تر أنهم لم يواجهوني وإنما تركوا أمر مواجهتي لنسائهم، وحتى حين اعتقلت واحدة منهم اكتفوا بالصياح وضرب أسوار السراي بالطوب . . . وهذا النواح الذي تطلقه المرأتان عند الباب، ولا شيء غير هذا . .

قال لاظ آغا مذكراً:

- وضرب الشناوي، وأسر قيمق، ورد الرسول وحصار الحسينية، وضرب موكب المنادي بالطوب . .

قال قوبلاي :

- كل هذا محسوب يا لاظ آغا . . أرسل واستدع الحاج محمد أبو الأنوار فهو يستطيع أن يرسل من عنده من يطلب معونة الملك الصالح، وآغا الوشاقية.

قال لاظ آغا في هدوء:

- الحاج محمد أبو الأنوار لن يستطيع لنا شيئاً.

صاح قوبلاي آغا:

- كيف هل فر هو الآخر . . ؟

قال لاظ آغا:

- بل أصابه الشلل، وامرأته تصرخ وتولول، وابنه يبحث عن طبيب والحسينية كلها لا تلق بالاً إليه،

أطرق قوبلاي وقال وقد شابت لهجته رنة تأثر لأول مرة:

- إصابة الشلل، مسكين.

ثم قال في حدة:

ـ هل هذا وقته. . هذه خيانة.

قال لاظ آغا:

ـ يا جناب الآغا، لقد أعوزت الشجاعة الجعيدي والنادي فهربا إلى الجيزة وأعوزت الشجاعة الشناوي فهرب إلى حقده وأعوزت الشجاعة الحاج محمد أبو الأنوار فتهاوى على نفسه. . . وهؤلاء هم من ظننت أنهم رجالك في الحي. .

صاح قوبلاي آغا في عنف:

ـ صدقت يا لاظ آغا لأول مرة. . هم مجموعة من الجبناء، ولكننا نستطيع أن نقهر الحسينية من غيرهم.

قال لاظ آغا:

ـ كيف؟

قال قوبلاي في هدوء، وهو ينظر إلى في حدة. .

ـ عند صلاة الجمعة سيدخل الجميع الزوايا والمساجد لإدائها، وهذا أحسن وقت ليتسلل قبلق وطقمق واحد إلى آغا الوشاقين والثاني إلى قلعة البحرية. . . وفي نفس الوقت يخرج الجند والعبيد لإخلاء الطريق إلى الميدان الكبير، ولن يكون أمامنا إلا النساء والصبية وبعد انتهاء الصلاة سيبدأ جلد المذنبين علناً، وعليك أنت أن تحرس الميدان حراسة كاملة، وأن تضع الجنود فوق المنازل المطلة على ساحة الميدان ومعهم النبل. .

وقال لاظ آغا في تخاذل:

ـ هل ستضربهم بالنبل يا آغا. .

قال قوبلاي آغا في عنف:

ـ إذا اضطررنا إلى هذا نعم، ولو سقط منهم قتيل أو إثنان سيهرب الباقون، ومن صمد قتلناه، وستنفذ أمري ولن يعطله أحد.. أبداً لن يعطل تنفيذ أمري أحد..

ـ ٢ ـ

قال الشيخ زكي وهو يبتسم في ترحيب:

ـ أهلاً بك يا معلم عليوة الفار، وأهلاً بكل رجالك من بولاق..

قال عثمان رزه:

ـ والله زمان يا معلم عليوة، لم نرك منذ مدة.

قال المعلم عليوة وهو يرقب عثمان رزة وعلى شفتية ابتسامة غامضة:

ـ شغلتك عنا خدمة الشلبيه ياعثمان.

واحمر وجه عثمان، ولكنه قال:

ـ وهل في بر المحروسة غير الشلبية يا معلم عليوة.

قال عليوة الفار:

ـ المحروسة تحتاج إلى أبطالها يا رجل.

تدخل الشيخ زكي في الحديث بسرعة قائلاً:

ـ لم نأت إلى هنالنتعاتب يا معلم عليوة.. إنما هو يسألك فيم غيابك..

ازدادت ابتسامة المعلم عليوة الفار اتساعاً وهو يقول:

ـ ألم يخبرك رسولك أننا كنا نتعقب الوشاقية في كل بولاق.

وقال سيد الساكت الذي كان يجلس إلى يمين عليوة الفار؛

ـ عوض الفران هذا ولد ولا كل الأولاد يا مولانا الشيخ.

التفت إليه الشيخ زكي في دهشة وقال:

ـ هل أشترك معكم في قتال الوشاقية؟

ـ الوشاقية ورجال الأمير بختياري وكل مشاديدهم.

إبتسم الشيخ زكي وهو يقول في رضاء:

ـ لم يخبرني عن هذا كله.

قال عثمان رزه:

ـ أرجو ألا يكون الوشاقية في أذيالكم فيقودهم هذا إلى هنا وما نحن فيه.

لم يغضب عليوة الفار وإنما ابتسم وهو يقول:

ـ نحن الذين كنا في أذيال الوشاقية يا عثمان رزة..

ثم سكت لحظات وقال وفي صوته نبرة ساخرة ولم تفت إذن عثمان رزة:

ـ لماذا تركت الرزة وخطف العمايم لخدمة بيبرس يا عثمان؟

وظهر الغضب على وجه عثمان، وبدا أنه يبذل مجهوداً كبيراً للسيطرة على نفسه بينما قال الشيخ زكي متدخلاً بينهما من جديد:

ـ لقد هداه بيبرس إلى عبادة الله وتقواه يا عليوه.. وهو يضع كـ
ما تعلمه من بيبرس في خدمتنا الآن، فقد تركنا له أمر قيادة مواجهه لقوبلاي آغا:

قال عليوة الفار:

ـ ونعم الهداية يا شيخ زكي، ولكني أريد أن أسمع منه الآن إنه تخلى عن خدمة بيرس..

احمر وجه عثمان رزه، ونهضَ واقفاً في غضب وهو يقول:

ـ هذا أكثر مما أحتمل يا شيخ زكي، ولولا أننا في بيتك لكان لي شأن آخر مع هذا الرجل.

قال عليوة الفار دون أن يتحرك من مكانه:

ـ أنا سألتك سؤالاً واضحاً يا عثمان، فلماذا الغضب؟

نهض الشيخ زكي من مكانه في المندرة، ليمسك بذراع عثمان رزه ويحثه على الجلوس ويقول:

ـ عليوة لا يقصد إهانتك يا عثمان، إجلس إجلس، لقد كنتما منذ الطفولة الباكرة تتعاركان على كل شيء، وكان وجودكما معاً في الزاوية أثناء ساعات التعليم متعباً دائماً بالنسبة لي، إجلس يا رجل إجلس..

قال عثمان رزة وهو يزيح يد الشيخ زكي في رقة:

ـ وهل لا بد من الإجابة على سؤاله هذا يا شيخ زكي؟

قال الشيخ زكي وهو يعود إلى مكانه:

ـ وهل في الإجابة عليه من بأس.

قال عثمان رزة وهو ينظر في عيني عليوة الفار في تحد.

ـ أنا هنا في خدمة أولاد الحسينية يا عليوة الفار.

ـ والأمير بيرس؟

ـ لا تعارض بينه وبين أولاد الحسينية.

ـ هو أمير من الأمراء البحرية الصالحية، وهو بلديات هؤلاء المماليك الذين استجلبهم قوبلاي آغا.

قال عثمان رزة في إصرار:

ـ ليس بين بيبرس وبين أولاد الحسينية عداء يا عليوة.

قال عليوة:

ـ هو شلبي ونحن أولاد بلد، وطالما هذه البلد يتحكم فيها الشلبية فلا أمان لأولاد البلد..

قال عثمان رزة:

ـ يا عليوة، بيبرس معنا، فلا هو ولا الأمير البندقداري ولا الملك الصالح أيوب يرضون عن هذه الأفعال التي يرتكبها قوبلاي آغا في الحسينية.

قال الشيخ زكي:

ـ كنت أعرف هذا، فالملك الصالح مؤمن يخشى الله ويرعى ذمامه.

قال عليوة الفار:

ـ لا أمان لشلبي أبداً يا شيخ زكي.

قال الشيخ زكي:

ـ ليس هذا وقته، فنحن لن نخرج الشلبية من المحروسة يا عليوة، نحن فقط نكف أذى قوبلاي آغا، ولو كان الأمير البندقاري في صفنا كسبنا تأييد الملك الصالح وعرف أن كل ما يقوله قوبلاي عنا من الإتصال بالإفرنج والخيانة والحقد كذب في كذب..

قال عليوة الفار:

ـ وما الفائدة. . نخرج قوبلاي آغا، ليحل محله قوبلاي آغا آخر. .

قال الشيخ زكي:

ـ سنعلم الآغا الجديد أن الظلم لن يجدى معنا، وسيحترم وجودنا وإنسانيتنا. .

قال عليوة الفار:

ـ هو آخر الأمر شلبي لا هو منا ولا هو يعرفنا، ولا تهمه مصالحنا في شيء. .

قال عثمان رزة:

ـ يا عليوة السلطان يجلب الشلبية ليحاربوا ضد الأفرنج، ولا بد أن يرضيهم بالمناصب والمال، وليس كل الشلبية مثل قوبلاي آغا، والشلبيه يحتاجون منا أن نفهمهم وأن نعاونهم في أن يفهمونا ولا يسيؤن حكمنا، ولهذا فأنا أساعد بيبرس ليفهم ويعرف ما هي المحروسة ومن هم أهلها. .

وجلس عثمان رزة، وظل صامتاً للحظات، وصمت عليوة الفار لصمته. . ثم رفع رأسه وقال:

ـ ظللت مثلك يا عليوة فترة طويلة، عايق الحسينية، كما أنت عايق بولاق الآن، أفرض الأتاوات على كل صاحب مال، واركب الكل بأذى، حقيقة كنت أحمي الضعفاء وأقتص لهم من الأقوياء، وحقيقة كنت أوزع الأتاوات التي أحصل عليها على فقراء الحي، ولكني كنت أحس أنني أدور في دائرة مفرغة، فمن أنا حتى أحكم أن هذا الرجل يطغي ويحتاج إلى من يلقنه درساً قاسياً لا ينساه، ومن أنا

أليس أتلاف مال الناس وتشويه أجسادهم حراماً في حرام. .

قال عليوة وقد فقد صوته نبرة السخرية التي كانت فيه:

ـ نحن نعرف من هو الظالم ومن هو المظلوم، من هو الذي امتلأ بما عنده حتى فاض ما عنده عن حاجته، ومن هو الذي ندر ما عنده حتى غدا لا يجد ما يقيم أوده ويصون له مجرد الحياة . . هذه المسائل لا تحتاج إلى بحث طويل، وإنما هي أشياء معروفة وواضحة.. حتى أعرف معرفة اليقين أن هذا الرجل أو هذه المرأة يستحقان أن أسلب من غيرهما لأعطيهما، ثم أليس كل ما أفعله حرام في حرام. . أليست السرقة حراماً؟ أليس الإعتداء على من هم أضعف منا حرام. . ؟

إبتسم عثمان رزة ابتسامة مرة، وظل مطرقاً برأسه وهو يقول:

ـ قلت لك كنت مثلك متأكداً من كل الأشياء، أضرب بلا رحمة أو هوادة، وأفرض الأتاوات وأهزم الرجال وأحطم الدكاكين، وأنا عايق الحسينية ولا أحد يقوى على قهري. .

قال عليوة وقد عادت نبرة السخرية إلى صوته:

ـ والآن قهرك الشلبي بيبرس.

هز عثمان رأسه وهو ليقول:

ـ لا يا عليوة، وإنما هزمني أنني بدأت أنظر إلى الأشياء نظرة أكثر نضجاً وأكثر معرفة، فمهما أسميت ما أفعل، فهو بلطجة، ومهما لونته وجملته فهو لصوصية، لم يكلفني أحد أن أفعل ما كنت أفعل، ولم يضع أحد في يدي القدرة على الحكم على الأشياء. . لقد كنت

رجل الشرطة والقاضي والجلاد معاً، وهذا يفوق إمكانية رجل واحد مهما ظن أنه على الصواب، وأن الآخرين على الخطأ. . فكل مسألة لها أكثر من وجه، أنا عند من يحبونني ويستفيدون مني بطل وأنا عند الآخرين لص. . فأين الحقيقة في هذا يا عليوة. .

قال عليوة وقد فقد وجهه ابتسامته:

ـ الحقيقة ما تعرفها في داخلك يا عثمان رزة.

قال عثمان رزة:

ـ والحقيقة التي في داخل الآخرين يا عليوة؟

قال عليوة:

ـ كلامك هذا يعجز أي إنسان عن الحركة، من قال أن الحق في جانب، والخطأ كله في جانب، يكفيني أنني مقتنع أن ما أفعله هو الصواب. . . ولا شك أن فيه بعض الخطأ، ولكن لن يمنعني أبداً من فِعل الصواب.

قال عثمان رزة:

ـ أرأيت هناك خطأ إذن، ومن أجل هذا تركت كل هذا لأكون جزءا من الجهاز الضخم الذي يحاول أن يعرف الصواب قبل أن يقدم على أي فعل. .

فقال عليوة في سخرية:

ـ وهل ما يفعله قوبلاي آغا هنا. . وهو جزء من هذا الجهاز الضخم الذي تتحدث عنه، صواب. . .

فقال عثمان:

ـ ولهذا فأنا أعارضه، ولهذا أنا جئت هنا لأقاوم ما يفعل.

وجاء السؤال الساخر المر:

ـ بحكم من نفسك وحدها يا عثمان؟ وأين إذن الخطأ والصواب وكل ما قتله الآن؟

قال عثمان رزة:

ـ بل بحكم من هدا الجهاز الضخم الذي حدثتك عنه، والذي انا جزء فيه.

تدخل الشيخ زكي في الحديث لأول مرة قائلاً:

ـ إذن فالأمير بيبرس يعرف أنك هنا، ويعرف ما تنوي أن تفعل؟

قال عثمان رزة وهو ينظر لا إلى الشيخ زكي، وإنما إلى عليوة الفار:

ـ نعم

هز عليوة الفار رأسه في استنكار، بينما قال سيد الساكت وكأنما يحدث نفسه:

ـ هل يرضى الشلبيه أن يهاجم أبناء البلد أمثالهم الشلبية هنا في الحسينية: ؟

فقال الشيخ زكي:

ـ هذا ما كنت أعول عليه وأنا أرسل رسولي إلى عثمان رزة يا بني.

رفع عليوة الفار بصره إلى الشيخ زكي وهو يسأل:

ـ كيف ذلك يا مولانا؟

قال الشيخ زكي:

ـ المفتري قوبلاي آغا اعتقل رجلين وفتاة وقتل صبياً بحد

اتصالهم بالإفرنج فهو يرفع تهمة الخيانة في وجوهنا، وإذا صدقه الملك الصالح فقل على الحسينية العفاء، ولهذا فإن من المهم جداً أن يعرف الأمير فخر الدين يوسف، بن حمويه، وكذلك كبار الأمراء أننا لسنا خونة، وأن التهمة كاذبة، وهنا يأتي دور عثمان رزة وصديقه الأمير بيبرس.

قال عثمان رزة في هدوء:

ـ وهذا ما قدرته ولهذا فقد صحبت كريم الدين إلى بيبرس حيث فسمع منه القصة بنفسه.

قال الشيخ زكي في أمل:

ـ إذن فنحن نستطيع أن نعتمد على معاونة الصالحية البحرية.

قال عثمان رزة:

ـ ليس الأمر هكذا تماماً، فالمماليك لا يريدونها حرباً بينهم وبين أنفسهم والفرنجة على الأبواب..

صاح عليوة الفار:

ـ ألم أقل هذا من قبل، لن يحارب الشلبي شلبياً من أجل خاطر واحد من أبناء المحروسة..

إستأنف عثمان حديثه دون أن يلتفت إلى اعتراض عليوة فقال:

ـ لن ينجد أحد من الصالحية قوبلاي، ولكنهم سيوقفونه عند حده، إذا ما زاد الأمر وخرج من يده.

قال الشيخ زكي:

ـ ومتى يكون هذا؟

قال عثمان رزة:

ـ عندما يخرج من حدود ما نصب من أحله آغا على الحسينية، أي عندما يبغي ويفتري بغير حق . .

قال الشيخ زكي :

ـ هل عرف الأمراء بأمر الضرائب الجديدة التي فرضها على الناس، ضريبة الدفاع وضريبة الجهاد وضريبة الأمن، وهل عرفوا كيف استولى على دكاكين الناس وحولها إلى مراكز لجمع هذه الضرائب . .

قال عثمان رزة :

ـ عرف، من عرف يا شيخ زكي، ويجب أن نصمد في وقفتنا معه، والفرج لا شك قريب

قال عليوة الفار :

ـ نصمد له ونحاربه، ونضيع رؤوس، ونخرب بيوت، رغم أن كل هذا يمكن أن ينتهي بكلمة من أصحاب الأمر.

قال الشيخ زكي :

ـ يا عليوة يا بني يجب أن يطالب صاحب الحق بحقه، وأن يدافع عنه، ويضحي من أجله، ليكون جديراً بهذا الحق الذي يطالب به .

قال عثمان رزة :

ـ ونحن لن نفشل أبداً، فالآغا محاصر داخل الحسينية بل داخل قصره، وسنمنع تنفيذ حكمه بجلد الشيخ الشماع والأسطى عقيرب، وسنفرج عن زينب، أما قاتل علاء الدين فهو في يدنا الآن . .

قال عليوة الفار في مرارة :

ـ وماذا سنفعل به، كان يجب أن نقتله منذ البدء، أليس قاتلاً، والقاتل يقتل.

قال عثمان رزة:

ـ لو قتلناه لأصبحنا مجرد قتلة، لكن لو سلمناه لأصحاب الأمر أصبحنا أصحاب قضية، ولأصبح الحكم عليه رمزاً لأنتصارنا في قضيتنا.

قال الشيخ زكي:

ـ هذا ما قدرته ولهذا طلبت من عم داود والأسطي شلضم الإحتفاظ به حتى يرى الله رأيه..

وفي امتعاص وضجح قال عليوة الفار:

ـ إذا فعل الشلبيه أمراً غدا صواباً، وإذا فعلناه نحن غدا خطأ. . أليس لنا في بلدنا وحيِّنا الحق في أن نقرر ونفعل، أليسوا هم أغراباً يا خلق الله، كيف يصبح ما يفعلونه مشروعاً وما نفعل نحن جريمة؟. . ونحن نقرر ونفعل في أرضنا التي ولدنا عليها ونعيش فيها، وهم كلهم جلبهم النخاس من أرض بعيدة ليسرقوا أرضنا ويتحكموا في حياتنا ومالنا.

قال الشيخ زكي:

ـ يا عليوة يا بني، هذا أمر يحتاج تغييره إلى زمن، أما الآن فعلينا أن نطيع أولي الأمر منا، وندفع الظلم والأذى قدر ما نستطيع.

أطرق عليوة، ثم قال:

ـ لكم ما أنتم فيه ولي ما أنا فيه.

قال عثمان في تحفز:

ـ فأنت لست معنا.

رفع عليوة رأسه ثم وقف، ووقف لوقوفه سيد الساكت ثم قال:

ـ بل أنا معكم في هذا الأمر حتى نهايته، وبعد هذا لكل طرقة يا عثمان رزة.

تنهد عثمان في ارتياح وهو يقول:

ـ وتقبل أن يكون تدبير الأمر لي.

ـ وهو لك.

ـ فأنت ورجالك تحاصرون الميدان الكبير، ففي حسباني أن الآغا سينتهز فرصة صلاة الجمعة ليتسلل إليه وينصب كمينه لنا فيه.

قال عليوة الفار وعيناه تلمعان في بريق التأهب:

ـ ما أن يخرجوا من السراي حتى ننقض عليهم.

رفع عثمان رزة يده محذراً وهو يقول:

ـ بل نتركهم يخرجون من السراي، ونتركهم ينصبون كمينهم في الميدان الكبير وكل رجل يقف عنده رجلان بحيث لا يراهما، فنحن لن نتحرك إلا بعد الصلاة.

قال سيد الساكت:

ـ ونتركهم يجلدون الشيخ الشماع والأسطي عقيرب.

قال عثمان رزة في ثقة:

ـ أتركوا هذا الأمر لي..

ـ التفت عليوة إلى الشيخ زكي في تساؤل، فقال وهو يهز رأسه دلالة موافقته:

ـ نعم نترك الأمر له، فالحيلة هنا أهم من الشجاعة.

نظر عليوة إلى الشيخ زكي طويلاً، ثم نقل بصره إلى عثمان رزة وتنهد وهو يقول:

ـ لقد جئنا عندما طلبتمونا، ونحن معكم حتى ينتهي الذي طلبتمونا من أجله.

ابتسم الشيخ زكي وهو يقول:

ـ هذه سمة أولاد الحسنية يا عليوة، هيا صالح أخاك عثمان، وتعاهدا على الحب الدائم..

ومد كل من الرجلين يده إلى الآخر، والتقت كفاهما في ضمة قوية فاهمة..

قال صيام النجار في حيرة:

ـ أسمع صوته وأبحث عنه ولكني لا أجده.

فقال عوض الفران:

ـ منذ الأمس وأنت تجرني وراءك من حارة إلى حارة ومن زقاق إلى زقاق وراء صوت عبادة، ولكن لا عبادة.

ـ مهما بحثنا وجرينا وراء ندائه وصوته تبخر في الهواء كأنه بسم الله الرحمن الرحيم، جن أو شيطان.

ـ ما دام الشيخ زكي يريد أن يراه فلا بد لنا أن نجده.

قال صيام النجار في مرارة:

ـ لقد ملأني الشك منذ اللحظة الأولى إنه لا يريدني أن أقوم بدوري كما قام به كل فتيان الحسينية، والآن أكاد أكون واثقاً من أن شكي كان في محله.

قال عوض في جدية:

ـ الشيخ زكي لا يهزل في مواطن الجد يا صيام، وإذا كنا نحن كلنا نعتبر أنفسنا أبناءه لأنه علمنا وأقرأنا القرآن، فما بالك وأنت ابنه من صلبه.

احمر وجه صيام وهو يندفع قائلاً:

ـ ماذا تعني يا عوض..

قال عوض:

ـ لو كان لي أب مثله لفخرت به، ولسرني أن أنفذ ما يأمر به، ولعرفت أنه ما انتدبني لأمر إلا وله من الأهمية ما يجعله جديراً بابني..

قال صيام مطرقاً:

ـ لقد قال لي أنه يريدني لهذا الأمر لأنني ابنه، وأن عبادة لن يسمع إلا لي..

قال عوض الفران وهو يضحك ليزيل العبوس الذي بان على وجه صيام:

ـ فماذا ننتظر هيا بنا إذن نبحث عنه.

وقبل أن يكمل جملته انبعث صوت عبادة الحزين المشروخ في جملته التي يرددها دائماً:

ـ يا جعيدي النار حامية يا جعيدي.. تكون نار تصبح رماد له رب يدبرها. مدد يا مبرقعة يا أم الأنوار مدد، مدد يا رفاعي مدد..

وصاح صيام:

ـ عبادة، صوته يأتي من هنا.

قال عوض:

ـ لا ، بل هو يأتي من هذه الناحية.
وارتفع صوت عبادة من جديد يصيح :
ـ وحدوه.
صاح صيام :
ـ أسرع يا عوض فلا شك أن الصوت يأتي من ناحية حارة على لوز.
ولكن قبل أن يتحرك أحدهما امتدت يد تقبض على ذراع صيام وصاحبها يقول :
وتخلص صيام من يد الأسطى رجب المناشفي التي كانت تقبض على ذراعه في عنف وقال :
ـ إبحث عنه في مكان آخر يا أسطى رجب فأنا مشغول.
ولكن الأسطى رجب المناشفي تشبث بذراعه وهو يقول :
ـ ألم تر حميد الدين يا صيام؟
ـ بل لا بد لي أن أجده، فاليوم الحسينية مزدحمة بالأغراب، ولا بد لي أن أفتح الحمام حتى لو كان الآغا لا يريدني أن أفتحه، هذه فرصة يا سي صيام لا يجب ألا أتركها تمر، لو رأيتهم لعرفت ما أعني، كلهم مغبر بتراب الصحراء، ومتعب من طول الطريق وليس مثل الحمام ضرورة لازمة لهم.
قال صيام :

ـ أتركني يا أسطى رجب، وإن وجدته سأخبره أنك تبحث عنه.

ولكن الأسطى رجب المناشفي هز رأسه في حيرة وهو يزداد تشبثاً بذراع صيام، ويقارب فمه من أذنه ويقول في همس:

ـ ولكني أخاف أن أفتح الحمام فيقتلني الشلبية كما قتلوا علاء الدين، أو حتى يمسكون بي ليجلدوني كما سيجلدون الشيخ الشماع والأسطى عقيرب.

وعاد صوت عبادة يدوي من جديد في كلمته الطويلة الممدودة الباكية.

ـ وحدوه..

وصاح عوض في قلق:

ـ اسرع يا صيام، الصوت فعلا يأتي من ناحية حارة على لوز.

أمسك صيام بيد الأسطى رجب المناشفي ونزعها من ذراعه وهو يقول:

ـ فكر في الأمر يا أسطى رجب جيداً قبل أن تفعل شيئاً.

نظر إليه الأسطى رجب في قلقه وهو يقول:

ـ هل أفتح الحمام أم أقفله.

وكأنما فقد كل اهتمام بصيام وحميد الدين، إذ مضى يتمتم لنفسه:

ـ هل أفتح الحمام أم أقفله؟

* * *

وأمسك عوض بيد صيام ومضيا مسرعين ناحية حارة على لوز من حيث جاءهما صوت عبادة بكلمته الوحيدة المكررة.

! وحدوه..

تجاوبت الصحراء عند مدخل الحسينية بأصوات الطبول والصنج والدفوف وصيحات:

ـ لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ترددها عشرات الحناجر، وموكب الشيخ أبو المكارم وتلاميذه يقترب من مداخل الحي وقال المعلم شعبان أبو ضفر:

ـ ما هذا يا هريدي

قال هريدي:

ـ ربما مولد أحد المشايخ يا معلم.

وقال مكادى..

ـ يرفعون البيارق ويمسكون الأعلام، ويسيـرون في خطين منتظمين وسطهم هذا الشيخ الوقور، لا بد أنه مولد أو موسم يا معلم.

قال المعلم أبو ضفر:

ـ أسرع يا هريدي إلى عثمان رزة عند الزاوية وأخبره بأمر

هؤلاء، أهم معنا فيدخلون أم ليسوا معنا فنمنعهم.

قال مكادى:

ـ كيف نمنعهم يا معلم وهم من رجال الطرق.. حتى هذا حرام.

قال المعلم شعّبان:

ـ أسرع يا هريدي قبل أن يصلوا إلينا أسرع..

وقبل أن تصل طلائع المركب حيث يقف المعلم أبو ضفر ورجاله كان عثمان رزة والشيخ زكي ومعهم عليوة قد وصلوا يقودهم هريدي محمر الوجه بادي الإنفعال.. وصاح المعلم شعبان أبو ضفر منفعلاً..

ـ لقد حضرتم في الوقت المناسب، وقبل أن أضطر إلى منع هؤلاء من دخول الحسينية.

ضحك الشيخ زكي وهو يقول:

ـ إنما هم جاءوا لأننا طلبنا منهم الحضور، هيا نتجه إلى استقبالهم كما يليق بهم..

وأسرع يهرول إلى ناحية الشيخ أبو المكارم الذي وقف متوسطاً تلاميذه وهو ينقل بصره بين المسرعين نحوه قائلاً:

ـ لقد وصلنا قبل صلاة الجمعة لنؤديها معاً يا شيخ زكي.

وسرعان ما كان الشيخان يتصافحان في حرارة، وعينا كل منهما

تتأمل الآخر كأنما تبحث فيه عن اثار السنين الطويلة التي مرت منذ التقيا لآخر مرة. . قال الشيخ زكي:

ـ مرحباً بك في الحسينية مرة أخرى يا شيخ أبو المكارم.

ـ أكرمك الله يا شيخ زكي، ها نحن هنا، فماذا تريد منا، قل نفعل.

همس هريدي في أذن مكادى:

ـ هل المشايح هذه الأيام يضربون بالنبوت يا بلديات.

همس مكادى في أذن هريدي:

ـ هم لا يحملون نبابيت يا ولد العم وإنما هم يحملون البيارق والأعلام. .

وقال الشيخ زكي:

ـ سيقودهم عليوة إلى حيث تستريحون، ثم نجلس مع عثمان رزة ليخبركم بما يريده. .

قال عثمان رزة:

ـ مرحباً بك يا سيدنا الشيخ أبو المكارم. .

والتفت إليه الشيخ أبو المكارم، وأشرق وجهه ببسمة عريضة وهو يمد يده مصافحاً ويقول:

ـ هداك الله يا عثمان رزة. . وسبحان من يهدي من يشاء وهو على كل شيء قدير. .

وانحنى عثمان رزة محاولاً تقبيل يد الشيخ، ولكنه سحب كفه من يده وهو يقول:

ـ استغفر الله يا ابني . . تعال أعرفك باخوة لك . .

ثم التفت الشيخ أبو المكارم فرأى عليوة بين الواقفين فأشار إليه وهو يقول :

ـ تعال يا عليوة يا ابني أصافحك ، فلم أر رسولاً خيراً منك في بشارته .

قال الشيخ زكي ، وعليوة يتقدم مصافحاً الشيخ أبو المكارم .

ـ هذا واحد من أولاد الحسينية كاد يجرفه الضلال يا مولانا ، ولكنه بدأ يعرف طريق الهداية . .

هز الشيخ أبو المكارم رأسه وهو يقول :

ـ الأزمات تصهر معادن الرجال يا أخي يا شيخ زكي :

همس مكادى في أذن هريدي :

ـ هذا الشيخ بركة يا ولد العم ، عثمان رزة يقبل يده .

همس هريدي في أذن مكادى :

ـ هو بركة يا بلديات ، الشباب يقف أمامه وعيونهم في الأرض

همس مكادى في أذن هريدي :

ـ تعال نقبل يده يا ولد العم .

همس هريدي في أذن مكادى :

ـ تسأل المعلم شعبان أبو ضفر يا بلديات .

وقال عثمان رزة :

ـ قبل الصلاة يا مولانا لنا جلسة مع المعلمين والأسطوات .

قال الشيخ زكي :

ـ بيتي جاهز يا عثمان . .

قال عثمان رزة:

ـ أرسل فاجمعهم عندك فلم يعد هناك وقت.

قال الشيخ أبو المكارم:

ـ أنار الله بصيرتك يا عثمان، هكذا تكون همة الرجال.

قال الشيخ زكي:

ـ المعلم شعبان أبو ضفر معنا هنا ومحمود المصارع وكفتة البهلوان في المندرة منذ فترة وعليوة الفار أرسلت له أبو سريع ليحضره إلى هناك..

قال الشيخ أبو المكارم..

ـ ماذا تنتظر إذن هيا بنا، خير البر عاجله..

ـ ٣ ـ

شهقت الست أم فكيهة وضربت صدرها بكفها وهي تقول:

ـ أهذه زينب، راحت البنت والله وعدمت بالحياة..

قالت شهوة هانم وهي تجلس زينب على خشبة في الحجرة:

ـ أخفضي صوتك يا أم فكيهة حتى لا يسمعك أحد..

وكانت زينب ممزقة الثياب باهتة الوجه.. تائهة النظرات مشوشة الشعر قد تكومت حيث أجلستها شهوة هانم وكأنها لا تدري أين هي، ولا ماذا يحدث حولها،

وقالت مرجانة:

ـ أماتت نفسها بكاء حتى جفت دموعها..

وقالت شهوة هانم:

ـ ألم تأكل؟

قالت مرجانة:

ـ لم تأكل شيئاً منذ جرها العبيد إلى حجرة آمنة أمس..

قالت شهوة هانم:

ـ أحضري لها ما تأكله وشيئاً ساخناً تشربه..

وفجأة صاحت زينب وهي تلطم وتمزق شعرها بيدها..

ـ أعيدوني إلى الست حفيظة، أريد الست حفيظة، يا أمي..

ثم انخرطت في بكاء أليم.. واهتزت أم فكيهة وأخذت تبكي في صمت بينما اقتربت شهوة هانم من الفتاة الباكية وربتت على كتفها في رقة وهي تقول:

ـ سنذهب بك حالاً إليها يا بنية، فقط كفي عن بكائك.

وتحت يدها تخشب جسد زينب فجأة، وكفت عن بكائها ورفعت وجهها شاحباً غطته الدموع، والعينان شاخصتان فيه بلا حركة وهي تصرخ:

ـ أبعدوا هذا الرجل السمين، يده لزجة، يده السمينة الغليظة لزجة، وأنفاسه بشعة الرائحة، أبعدوا هذا الرجل السمين عني.. أبعدوه..

ثم فجأة عادت تبكي من جديد وهي تتمتم من بين دموعها الغزيرة:

ـ إحفظيني يا ست أم الأنوار، إبليس التخين يريد أن يأكلني، في عينيه جوع الشياطين، وفي يده نار تحرقه.. يا ست يا أم الأنوار.. شفاعة للنبي يا ست يا طاهرة..

وانخرطت تبكي من جديد.. وارتفع عويل أم فكيهة وهي تولول وتقول:

ـ هذا الوحش ماذا فعل مع البنت.

وصاحت شهوة هانم:

ـ إلزمي حدك يا أم فكيهة أنت تتحدثين عن جناب الآغا.

وانكمشت أم فكيهة وهي تتمتم وسط عويلها:

ـ آغا أو غير آغا... هذا حرام.. لا يقره شرع ولا دين..

وقالت مرجانة:

ـ لم يستطع أن يفعل معها شيئاً، حكت لي آمنة أنه دخل عليها بالأمس وحاول أن يلاطفها فخمشته وعضته وظلت تصرخ حتى خرج جارياً من عندها.. وقال لآمنة أنه سيستجوبها مرة أخرى عندما تفيق..

ابتسمت شهوة هانم وهي تقول:

ـ يستجوبها.. حقاً.. يا له من استجواب.

بينما مسحت أم فكيهة دموعها وهي تقول:

ـ شريفة يا بنت الحسينية شريفة، ترفعين الرأس في كل مكان، أمال..

وصاحت شهوة هانم:

ـ كفي يا أم فكيهة، ألا يرضيك شيء.. مرة أنت غاضبة لأن زينب ضربتك ومرة أنت غاضبة لأن الآغا سجن زينب، ومرة أنت غاضبة خوفاً على شرف زينب ومرة أنت غاضبة لأن شرف زينب مصون لم يمس.

صاحت أم فكيهة وهي تقف وتزوي حاجبيها وتمر بيدها على خصلات شعرها، وجسدها يهتز:

ـ لا يا ست هانم، حد الله وهذا. . أنا أغضب لأن شرف زينب لم يمس من قال هذا شرفها من شرفي وشرف حارة على لوز وشرف الحسينية كلها. .

وفجأة صاحت زينب:

ـ أريد أن أروح، أين أمي حفيظة، أنا أريد أمي حفيظة.

وعادت عينا أم فكيهة تسحان الدموع وهي تقول:

ـ يا عيني عليك يا زينب، والله حفيظة ما تستحق أن تكون أماً لمثلك، رحم الله أمك وبل التراب تحت رأسها في تربتها. .

وقالت مرجانة في صوتها الهادىء:

ـ لو ظللنا نستمع إلى صراخ هذه المرأة وبكائها اكتشف العبيد والحراس أننا أخرجنا زينب من السجن وأعادوها إليه. . .

قالت الست شهوة هانم:

ـ أسرعي يا مرجانة بشيء لها لتأكل وابحثي عن ثياب تلائمها، واسرعي.

ثم التفتت إلى أم فكيهة وهي تقول:

ـ خذيها إلى الحمام لتغسلي لها وجهها، وتصففي شعرها فمنظرها هكذا لا يليق. .

صاحت أم فكيهة وهي تقود زينب من يدها:

ـ تسلم كلماتك يا ست هانم، تعالي يا زينب يا بنتي معي تعالي، ستعودين بإذن الله وفضل الست شهوة هانم إلى بيتك ودارك.

* * *

قبل موعد صلاة الجمعة بساعة تسلل محمود المصارع وكفتة البهلوان ومعهما عويس السعران وحميد الدين إلى الساحة الواقعة خلف حمام الأسطى رجب المناشفي والتي يفصلها عن الميدان الكبير زقاق ضيق. . . وقال محمود المصارع:

ـ من هنا نستطيع التسلل إلى الميدان دون أن يحس بحركتنا من فيه.

تلفت كفتة البهلوان حوله مشيراً بيده إلى وسط الميدان. .

ـ هذه الشجرة في وسط الميدان تصلح تماماً. .

قال حميد الدين وهو يهز رأسه موافقاً:

ـ بالفعل هي التي سيربط تحتها المجلودان إلى عروستين من الخشب لجلدهما. .

قال كفتة البهلوان:

ـ أنت لا تفهمني يا حميد الدين. .

قال محمود المصارع:

ـ أنا أفهمك يا كفتة ولكنك ستكون وحيداً وسطهم.

قال كفتة البهلوان:

ـ مهمتنا كما رسمها عثمان رزة أن تستنقذ الشيخ الشماع والأسطى عقيرب من أيدي الجلادين بسرعة، فإذا فاجأناهم شللنا حركتهم حتى يقوم الباقون بمهمتهم. .

تأمل محمود المصارع في وجه كفتة لحظات ثم قال:

ـ أحسنت القول يا كفتة. . هذه الشجرة تصلح لك تماماً، ولن يراك أحد وسط أغصانها البعيدة أبداً. . سيكمن هنا في هذا الزقاق

حميد الدين وعويس السعران، ولحظة أهجم على الآغا عليكما برئيس الجرس. .

قال حميد الدين:

- وأنت؟

قال محمود أمصارع:

- بالقرب من الشجرة هناك حوض لشرب الحمير وهو مملوء بالماء وسيخفيني تماماً. .

قال عويس السعران:

- لو طال الأمر ابتللت يا معلم محمود وعاقتك الثياب عن الحركة.

ضحك محمود المصارع وهو يقول:

- لست أريد الثياب يا عويس يا بنهاوي يا ابن بلد العسل.

وضحك حميد الدين بعصبية وهو يقول:

- وفقك الله يا معلم محمود. .

ضخك محمود المصارع وهو يقول:

- هيا يا كفتة أنت أولاً.

ودون كلمة تحرك كفتة بقوامه المشوق وحركته الرشيقة يجتاز الميدان، وخطوة خطوة اقترب من الشجرة التي تتوسطه، ثم التفت ناحية اليمين ثم ناحية اليسار ليتأكد أن أحداً لا يراه، ثم قفز فجأة فتعلق بغصن عالٍ من أغصان الشجرة وتطوح في الهواء لحظات ثم طوى جسده وقفز إلى أعلى وإذا به يختفي تماماً بين أغصان الشجرة الكثيفة. . وتنهد عويس السعران وهو يقول:

ـ هل سيأتي عليّ يوم أقفز مثل هذه القفزة.
قال حميد الدين ضاحكاً:
ـ حيرتنا يا عويس: أتريد أن تكون مصارعاً أم بهلواناً؟..
قال محمود المصارع:
ـ لا بد للمصارع أن يتقن حركات البهلوان يا حميد الدين..
قال عويس السعران:
ـ أمامنا الكثير يا بلديات.
قال حميد الدين:
ـ يعيش المعلم يتعلم ولا يتعلم..
قال محمود المصارع وهو يتحرك ناحية الميدان..
ـ ليلزم كل منكما مكانه، ولا يتحرك أحد حتى أتحرك أنا والبهلوان..

ثم غادرهما بحركات سريعة متوفرة، وبدا وكأنه نمر هائل الجثة يتحرك بخفة وسط الميدان الخالي، وكان يقترب من الشجرة وهما يتابعانه بأعينهما وفجأة اختفى، كان قرب الشجرة وفجأةً اختفى، وصاح عويس السعران في دهشة:
ـ أين ذهب؟
إبتسم حميد الدين وهو يقول:
ـ وأين تظنه ذهب، ألم يقل بنفسه أنه سيختفي في حوض الماء، لا بد أنه في حوض الماء..
واستمر عويس يقول في ذهول:
ـ ولكني كنت أراقبه، ولم أعرف إلا أنه اختفى، كأنه تبخر في الهواء.

ضحك حميد الدين وهو يقول لعويس السعران:

ـ غداً تصبح مثله يا بطل أما الآن فتعال معي نختفي في المستوقد خلف الحمام ولن يرانا أحد وسنرى ونرقب كل شيء..

قال عويس وهو يضرب كفاً بكف:

ـ وأنا الذي جئت من بنها العسل لأهزم محمود المصارع..

ضحك حميد الدين وهو يقول:

ـ يكفيك أنك أصبحت من مشاديده، وأنه أحضرك معه دون كل رجاله لتشهد ما سيجري هنا في الحسينية..

قال عويس وهو يتبع حميد الدين إلى داخل الحمام:

ـ ونعم الحي يا ناس، الذي يخرج منه أمثال هؤلاء الرجال..

* * *

كان غضب قوبلاي آغا قد بلغ الذروة حين عاد كل من قبلق وطقمق معلنين فشلهما في مغادرة الحي، وقال قبلق:

ـ حاصرونا تماماً،من أي مخرج حاولنا الخروج من الحسينية ظهر لنا من يردنا قائلاً.. الخروج من هنا حرام يوم الجمعة يا شلبي، فإذا ما حاولنا ظهر عشرات الرجال يحملون الشماريخ ويقفون في صمت وهم يفتلون شواربهم ويبرقون بعيونهم..

قال لاظ آغا:

ـ من أين جاء كل هؤلاء الناس؟ ما تعودنا أن يحمل أولاد الحسينية الشماريخ

قال قوبلاي آغا:

ـ لقد زادت جرأتهم عن الحد... ولا بد أن يتعلموا درساً لا ينسونه على مدى الأيام..

ولكن لاظ آغا كان مطرقاً إلى الأرض مستغرقاً في التفكير، وساد الصمت، وأحس قوبلاي بعبء هذا الصمت وثقله، فالتفت إلى لاظ آغا قائلاً:

ـ لماذا الصمت.. ألست معي من أنه قد حان الوقت لنلقنهم درساً..

رفع لاظ آغا رأسه في بطء وقال:

ـ يا آغا لسنا نواجه مجموعة عاجزة من التجار والحرفيين من أولاد البلد.. لا.. وراء كل ما يحدث في الحسينية منذ أمس عقل منظم ورأس مدبر..

صاح قوبلاي آغا في دهشة:

ـ عقل منظم..؟ ماذا تعني؟

قال لاظ آغا:

ـ المسألة ليست مسألة خروج إلى الميدان وجلد المذنبين، ثم تهديد الصائحين وضربهم، بعضهم بالكرابيج وبعضهم بالنبال، ثم خروج الأمراء إلى الحوارى باللتوت ومعهم المشاديد والعبيد وانتهى الأمر. المسألة أننا أمام أسر أحد الأمراء، وفرار اثنين من أهم المشاديد وضرب الثالث وأسره ثم مظاهرة من النساء، ثم إغلاق الحسينية بحيث لا يخرج منها أحد من السراي، ثم ظهور لوجوه جديدة تحمل العصى'' والشماريخ، ومن يدري ماذا يحملون أيضاً..

قال قوبلاي آغا في ثقة:

ـ لا مجال لكل مخاوفك، فسيتم الأمر كما رسمت أنا.. وتأكد من هذا.

قال لاظ في احتجاج:
ـ يا جناب الآغا:
صاح قوبلاي:
ـ لا مكان لهذا الشك والخوف أبداً. . وما دمت قد ذكرت ما حدث فأنا أريد من الأمراء أن يقوموا بمهمة تنهي شككهذا تماماً. .
قال قبلق:
ـ أمرك يا آغا. .
وقال طقمق:
ـ بعد الذي حدث أنا مستعد أن أفعل أي شيء يزيل الإبتسامة الصفراء الساخرة عن هذه الوجوه التي كانت لا تظهر إلا الخوف والمسكنة.
صاح قوبلاي آغا:
ـ عظيم. . عظيم. . هذه هي الروح التي أحبها فيمن معي، أسمعت يا لاظ آغا. .
قال لاظ آغا وهو يرفع ذراعيه وينزلهما في استسلام. .
ـ إنسى ما قلته لك يا قوبلاي آغا، فما بنيت في نفسك لا جدوى من محاولة تغيـيره وأمر بما تشاء فكلنا طوع أمرك. .
فرك قوبلاي آغا كفيه في ارتياح وهو يقول:
ـ كنت أعرف أنك ستقول هذا، فأنت تحاول كما تشاء، ولكنك تنفذ آخر الأمر كل ما أطلبه وليس فيك من عيب إلا تقديرك الزائد لأولاد الحسينية هؤلاء، وسأثبت لك خطأك قبل أن ينقضي هذ النهار. . والآن إسمعوا ما أريده من كل منكم. . قبل نهاية صلاة

الجمعة بقليل يخرج قبلق على رأس عدد من الجنود والعبيد، لإنقاذ قيمق وهو محبوس في الحظيرة، أما طقمق فمهمته إنقاذ هذا الرجل من مشاديدنا من الذين أسروه. . وأظنه في مغلق الخشب، وعند نهاية الصلاة تماماً وقبل انصراف الناس من الزاوية يخرج الموكب وأنا على رأسه إلى جواري لاظ ومعنا المذنبين لجلدهما علناً في الميدان الكبير. .

قال لاظ آغا:

ـ رجالي بالفعل الآن على أسطح المنازل وفي ثنيات الحوارى حول الميدان لحراسته

قال قوبلاي آغا:

ـ ينبغي ألا يظهر واحد منهم إلا إذا استدعى الأمر. . ونبه البواب أن يغلق البوابة خلفنا وإن يكمن هو والعبيد وباقي الحرس عند الباب ليندفعوا نحونا إذا أردنا أو ليدافعوا عن السراي إذا هاجمها الغوغاء. . ولكنني أريد من قبلق وطقمق أن يعودوا لنا بالآسيرين ونحن في الميدان، حتى يكون تأثير فك أسرهما كاملاً ويحدث أثره في نفوس الجميع.

قال قبلق:

ـ ولو اعترضنا أحد.

ـ أضربوا بلا رحمة.

قال طقمق:

ـ حتى لو كانت ضرباتنا قاتلة؟

قال قوبلاي:

ـ لا وقت للتردد، بل يجب أن .تكون ضرباتكم مميتة ومخيفة أيضاً.

* * *

قال عليوة الفار وهو ينظر في عيني عثمان رزة:

ـ لن نحضر صلاة الجمعة، ولن يحس بغيابنا أحد، فما أظن السراي ورجالها يعرفون بوجودنا أصلاً، وقد راقبنا الحراس الذين وضعهم قوبلاي فوق الأسطح ومداخل الحارات وستكون مهمتنا معروفة..

قال سيد الساكت:

ـ لن يتحرك واحد منهم لحظة أن يجد الجد ـ..

قال عثمان رزة:

ـ يجب أن يتم هذا كله بسرعة حتى تساعدونا على العساكر الذين سيكونون في الميدان..

قال عليوة الفار:

ـ مفهوم يا عثمان.. عندما يخلص محمود المصارع المأسورين، سنكون قد أجهزنا على كمين لاظ آغا وتفرغنا لمن في الميدان..

قال سيد الساكت

ـ هذه لعبتنا يا معلم عثمان، ولعبناها كثيراً مع آغا بولاق، ولعبناها مؤخراً مع الوشاقية.

قال عثمان رزة:

ـ ما زال قلبي غير مطمئن من ناحية الوشاقية، فآغا الوشاقية يعرف الآن بالقطع أنكم غادرتم بولاق، ولو كان يقظاً لعرف أين تكونون الآن . .

قال عليوة الفار:

ـ لا تخشى أمره، سنكون على استعداد له لو تعقبنا إلى هنا . .

وقال سيد الساكت:

ـ لا بد من وضع من يراقب الطرق المؤدية إلى الحسينية قبل الصلاة، وحتى ينتهي هذا الموضوع كله . .

ابتسم عثمان رزة وهو يقول:

ـ لقد تم هذا يا سيد يا ساكت، ولن يقترب أحد من الحسينية إلا ونحن نعرف أمره.

* * *

صاحت الحاجة بهية في صوت أشبه بالصراخ:

ـ قلت لك مائة مرة الحاج لن يقابل أحداً . . . الحاج مريض، ألا تفهم.

قال رجب المناشفي في توسل واسترحام:

ـ أريد أن أكلمه يا ست الحاجة، هو وعدني أن يكلم الآغا في أمر الحمام، ويتركني أفتحه واليوم يوم الجمعة، والحسينية مليئة بالناس أتوا من أماكن بعيدة، وسيكون الرزق اليوم وفيراً، فقط يكلم لي الآغا، أفتحه اليوم، وأغلقه غداً . .

صاحت الحاجة بهية من جديد:

ـ لقد جننت يا رجل، ملعون حمامك، وناسك، الحاج مريض وأنت لا تسأل عنه وإنما تسأل عن حمامك... إذهب من أمامي ولا تريني وجهك مرة أخرى.

عاد رجب المناشفي يقول في صوته ذلة:

ـ يا حاجة قطع الأرزاق حرام، وكلمة منه للآغا تفتح الحمام ولو ساعة..

صاحت الحاجة بهية وهي تولول:

ـ يا مصيلحي.. أغثني يا مصلحي..

قال رجب المناشفي في إصرار ذليلي:

ـ نعم يا سي مصيلحي، أغثنا وقل لوالدك الحاج محمد أبو الأنوار الأسطى رجب المناشفي يريد أن يحظى برؤيتك أكرمك الله..

لطمت الحاجة بهية خديها، وهي تصيح:

ـ يا عالم أغيثوني من هذا الرجل المجنون، أما كفانا ما أصاب الحاج، ليس وراءكم سوى المصائب يا أولاد الحسينية..

ثم اندفعت نحو الأسطى رجب تدفعه بيديها إلى خارج باب الدار وهي تصيح:

ـ أخرج يا رجل يا مجنون... يا مصيلحي، أغثني يا مصيلحي، أغثني يا مصيلحي..

وما أن تمكنت من إخراجه من باب الدار حتى أغلقت الباب

وراءه في عنف، ووقف رجب المناشفي يهز رأسه خارج الباب في أسف وهو يقول:

ـ ماذا جرى للناس هذه الأيام، الحاجة بهية ست الكرم والأصول وزوجة محمد أبو الأنوار سيد الحتة تطردني من بيتها، وتدفعني بيديها. . . . آخر زمن. . . من كان يصدق هذا يا عالم. .

ثم جلس عند عتبة الباب، وهو يضرب كفاً بكف ويقول:

ـ لا أحد يريد أن يدلني هل أفتح الحمام أم أغلقه.

* * *

قالت زينب:

ـ أخرجوني من هنا، أنا لا أريد أن آكل. .

قالت أم فكيهة:

ـ بعد الأكل ستخرجين يا زينب. .

قالت زينب في إصرار:

ـ بل أريد أن أخرج الآن.

كانت زينب قد استردت بعض هدوءها، كما أنها تركت أم فكيهة تسرح لها شعرها، ووافقت بعد تردد في ارتداء ماجاؤ وهابه من ثياب، إلا أنها بين الحين والحين كانت ترتجف من قمة رأسها إلى أخمص قدمها، كلما تذكرت الليلة المخيفة التي قضتها في هذا المكان البغيض، وعادت تقول:

ـ لا أريد أن أرى الرجل السمين ذا اليد الغليظة والنظرة المخيفة مرة أخرى. .

ربتت شهوة هانم على كتفها وهي تقول:

ـ ما شاء الله أحسن، ما شاء الله أحسن، من يراك الآن لا يعرفك، أنت حلوة يا زينب والله حلوة وذكية ودمك خفيف..

والتفتت زينب إلى الست شهوة هانم وكأنما تراها لأول مرة، وهدأت نفسها قليلاً وظهر الإعجاب في عينيها الصريحتين وهي تقول:

ـ أنت الست الكبيرة يا هانم.

إبتسمت شهوة هانم في رضاء وقالت:

ـ أنا هي يا ابنتي.

وزال العبوس عن وجه زينب، وارتسمت على شفتيها ابتسامة شاحبة ولكنها حيرت شهوة هانم التي كانت ترقبها بإمعان، فعبست قليلاً وقطبت حاجبيها وهي تقول:

ـ يسعدني أن تعود البسمة إلى شفتيك، ولكني أحس أن وراءها شيئاً يملأ رأسك الصغير الجميل هذا يا ابنتي..

وهنا ضحكت زينب ضحكة مبتهجة أدهشت شهوة هانم، وجعلت مرجانة تبتسم رغمًا عنها وعن عبوسها التقليدي الصارم، بينما دقت فكيهة صدرها وهي تقول:

ـ سبحان مغير الأحوال يا رب.. ماذا أصابك يا زينب.

وأعادت شهوة هانم سؤالها قائلة:

ـ ماذا وراء ضحكتك هذه.

وقبل أن تكمل جملتها ضحكت زينب وهي تقول:

ـ يا ابنتي..

ثم عادت تغرق في الضحك من جديد.
وصاحت أم فكيهة دون غضب:
ـ الضحك من غير سبب قلة أدب يا زينب.
ـ هي لا تكبرني بأكثر من سنين قليلة، وتسمونها الست الكبيرة أليس هذا حراماً، ثم هي قمر يا أم فكيهة كيف يحكون عنها كل هذا الكلام الكاذب الذي لا أصل له.. ولماذا تقطب وجهها وهي تتكلم، لو ضحكت لكان وجهها أجمل وجه في الدنيا كلها..

واحمر وجه شهوة هانم، وامتلأت عيناها فجأة بدموع، وضحكت مرجانة من قلبها وفتحت أم فكيهة فمها في بلاهة... بينما قالت شهوة هانم:
ـ هل تتحدثين عني أنا يا زينب.
وقالت زينب وهي تكف عن ضحكتها..:
ـ طبعاً أليست لديك مرآة يا هانم تخبرك بحقيقة سنك وجمالك..

وضحكت شهوة هانم في عصبية، وحركت يديها في حيرة، وبدت في سنها الحقيقي لا تزيد فعلاً عن زينب إلا بسنوات، وقالت:
ـ لم تقل لي فتاة من قبل مثل هذا أبداً..
قالت زينب:
ـ يغرن منك يا هانم، شباب وصحة وجمال ومركز وجاه ومال، من منهن لا تغار منك، ولا تتحدث عنك من وراء ظهرك بما ينقص من كل هذا..

وقالت مرجانة وقد انفرجت أسارير وجهها في سعادة حقيقية:

ـ شهوة هانم، هذه البنت تحبك..

ضحكت شهوة هانم في اضطراب وهي تقول:

ـ هكذا من أول نظرة وبلا سبب..

وقالت زينب وقد استردت هدوءها تماماً، وعاد إلى عينيها المرح الذي جعل كل فتيان حارة علي لوز يحلمون بها في صحوهم ونومهم على السواء..

ـ من كل ما كان يقال عنك كنت أخافك، وأتصورك امرأة أعجمية عابسة، فإذا بك فتاة في مثل سني كلك حنان والرقة.. تخرجيني من السجن وتعيديني إلى الحياة والحرية والشرف، ثم لا تنسين أن تجمليني وتنظفيني وأنت من أنت بهاء وجمالاً ورقة.. كنت لا أحبك يا هانم.. نحن يا هانم تأسرنا الكلمة الحلوة، والسلوك الطيب، وأنت كنت الحلاوة والرقة كلها...

قال أم فكيهة وهي تمصمص بشفتيها:

ـ عجايب، أكل هذا يخرج منك يا زينب... والله عشنا ورأينا، أهكذا تخاطبين الست الكبيرة يا زينب..

قالت شهوة هانم:

ـ أتركيها يا أم فكيهة، أحب أن أسمع حديثها وصوتها..

قالت مرجانة:

ـ وهي حلوة وجميلة وتعرف كيف تقول ما في قلبها.

زوت أم فكيهة ما بين حاجبيها ولوت فمها في دهشة وهي تقول

ـ أصبحت أنا الذي أسكت، وهي التي تتكلم.. أليست هي

فوراً يا ست هانم. .

ضحكت شهوة هانم وهي تقول:

ـ عيون قوبلاي لم تخطىء، ما خلف المظهر الساذج أبداً. . أخبريني يا زينب لماذا ضربت أم فكيهة، ولماذا شتمت السراي والآغا. .

نظرت زينب بسرعة إلى أم فكيهة التي أطرقت رأسها وسكتت، فقالت زينب:

ـ يا ست هانم أم فكيهة جاءت إلى معزى علاء الدين لتقول لنا وسط حزننا وصواتنا أنه خائن، وأنه يستحق الموت. . هل هذا يصح؟

قالت شهوة هانم وقد عادت الصرامة إلى وجهها:

ـ ولكن كل هذا صحيح، وأنا التي أخبرتها به. .

صاحت أم فكيهة وهي ترفع رأسها من إطراقتها:

ـ أرأيت يا زينب، كل هذا صحيح، أنا مظلومة دائمًا، كل هذا صحيح.

قالت زينب وقد بدت الدهشة على وجهها:

ـ ولكنه غير صحيح يا هانم، علاء الدين لا يمكن أن يكون خائناً، هو فتى طيب، أو كان.

واغرورقت عيناها بالدموع وتحشرجت الكلمات في حلقها وهي تحاول أن تتمالك نفسها وتقول:

ـ لا يعرف غير عمله وأمه، ولا يختلط بأحد من فتيان الحارة الأشقياء. .

قالت شهوة هانم في صوت بارد:

ـ هناك أشياء لا تعرفها النساء.. ولكنها حقائق..

استمرت زينب تقول وكأنها لم تسمع كلمات شهوه هانم:

ـ كله النبل والرقة.. إذا نظر خفض بصره، وإذا سار لم يلتفت لغير طريقه، وإذا تحدث لا ينطق إلا بأرق الكلمات وأنظفها، والست حفيظة لا ترى الدنيا إلا فيه، هو كل أملها وكل وجودها، من بعد موت أبيه تقدم إليها الرجال يخطبون، ويعرضون، ولكنها أبت إلا أن تعيش له، له هو وحده، تربيه وتعلمه، وتعيش من خلال شبابه ونموه كل حياتها من جديد.. علاء الدين لم يعرف الكذب، لم يعرف الزور، لم يعرف الملق ولا الوقاحة... علاء الدين كان نظيفاً حلواً، رقيقاً، عذباً..

أخذت أم فكيهة تبكي في صمت، بينما وجمت المرأتان الأخريتان، وظلت زينب تقول:

ـ في عمر الزهور كان، وفي رقة الزهور عاش، وعطر الزهور ما أعطى الحياة والناس، كان كل الناس يتمنون أن يقف ليسمعوا كلماته، أن ينظر إليهم ليحسوا برقة نبض قلبه، إن يبتسم ليشرق للحياة بمعاني الرقة والرجولة معاً..

وفي صوت هامس قالت شهوة هانم:

ـ كنت تحبينه يا زينب..؟

ـ لا أعرف، لم أكن أعرف، لم يقل لي في حياته، وما أقصر العمر الذي نسميه حياته، كلمة واحدة مما تعود كل الفتيان في الحي أن يقولوها لي. .أبداً لم ينظر إليَّ تلك النظرات الملوثة التي كنت ألمحها في

عيون الكبار والصغار من رجال الحارة، هو وحده لم يقل لي، ولم ينظر لي إلا بما يشعرني بأنني شيء غال وثمين. . ثم ضربه الشبلي فمات، هو وحده دون الكل مات، وكأن الله استكثر علينا أن يكون فينا مثله فأرسل له هذا الشبلي، الذي جاء من بلاد بعيدة لا نعرفها، ولا تعرفنا، ليضربه باللت فيموت. .

لم تكن زينب تبكي، ولكن النسوة الأخريات كن جميعاً يبكين، وعادت زينب تقول:

- نحن لا نعرف هذا الشلبي ولا غيره من الشلبية، ولم نذهب إلى بلاده ولم نسيء إليهم أبداً، لا نحن الذين خطفناهم من وسط أهلهم، ولا نحن الذين علمناهم القسوة والعنف ولا نحن الذي جعلنا الموت صناعة حياتهم. . . ومع هذا فهم يكرهوننا نحن دون غيرنا، يتعالون علينا ويصبون سخطهم على بساطتنا وسهولة حياتنا. .

وصمتت لحظات ثم أجالت بصرها في النسوة حولها وقالت:

- من يخون أو لا يخون هم الشلبية لأنهم طماعون لا يكتفون بما رزقهم الله، ويريدون الكون كله في بطونهم، فهم لا يعرفون القناعة لأن الخوف يحكمهم، ولأنهم لا ينتمون إلى الأرض التي تعطينا الرضا والقناعة، لماذا نخون، علاء الدين لا هو يطمع أن يكون آغا، ولا أن يصبح حاكمًا. .

قالت مرجانة:

- كفى يا ابنتي كفى. .

قالت شهوة هانم:

ـ لقد أبكيتني يا شابة . .

وقالت أم فكيهة :

ـ هذا اللسان هو الذي أخرج نساء الحسينية من بيوتهن يطلبن العدل . .

وقالت زينب :

ـ وهل هذا حرام . . ؟ نحن نعيش في حالنا لا نريد من أحد شيئاً . . تركنا لكم المال والثروة والسلطة والجاه . . تـأمرون فنطيع . . هاتوا المكوس ندفع، ترفعـون الأسعار لا نتكلم، تتاجرون في بيوتنا ونحن نعرف ونسكت . . ولكن القتل . . والإتهام بغير حق هذا لا يرضي الله يا هانم . .

كانت شهوة هانم تبكي في صمت، وقالت في صوت هامس :

ـ ماذا تريد الفتاة منا أكثر من أن تحس في قلبها مثل هذا الحب العظيم لترمي نفسها في كل المهالك من أجله، وأنت يا زينب تدافعين عن حب مات ومع هذا . .

صاحت زينب :

ـ لا يا هانم الحب لا يموت أبداً، علاء الدين مات حقاً، ولكنه سيظل حياً في قلبي أبداً، وستسمي كل فتاة إبنها البكر علاء الدين . . يا هانم أنت لا تعرفين كم نحب الحياة وكم نكره الموت. ولكننا مع هذا لا نخافه لأننا لم نفعل ما يجعلنا نخجل أن نواجه خالقنا يوم الدين . .

قالت مرجانة وهي تكفكف دموعها :

ـ صدقت يا شهوة هانم، لمثل هذا الحب تعيش المرأة منا، ويكون لحياتها هدف ومعنى . .

قالت شهوة هانم:

ـ أنا أعرف أننا ظلمنا فتاك يا زينب، بل ظلمنا الرجلين اللذين يجلدان اليوم، بل ظلمنا الحي كله، فنحن لم نعرفكم فخفناكم وأردنا قهركم، فخسرناكم وخسرنا أنفسنا . .

صاحت أم فكيهة:

ـ أكان كل هذا افتراء وظلمًا . .

قالت مرجانة وقد عاد الجمود يكسو وجهها كله:

ـ لم أر أغبى منك ولا أكثر شراهة . .

صاحت أم فكيهة:

ـ أنا صدقت الآغا والهانم! ليس فينا من يعرف الفرنجة، ولكن الآغا قال، والقول ما قاله الآغا، والهانم قالت والقول ما قالته الهانم هو القول التمام . .

قالت شهوة هانم في مرارة:

ـ لم نعرف من نساء الحي إلا أنت وأمثالك، لا يهمكن سوى الكسب والقربى . . ومن أجل الحصول عليها كنتن تزين لنا تريد أن نعتقده . . لم نعرف منكن الحقيقة أبداً . .

صاحت أم فكيهة في حيرة:

ـ أنا لم أخالفك يا هانم أبداً، والله أنا لم .

صاحت شهوة هانم في عنف:

ـ أصمتي . .

فسكتت أم فكيهة وقد عادت علامات البلاهة والحيرة ترتسم على وجهها، وقالت مرجانة

ـ تأخر الوقت يا هانم. . وفات أوان التراجع. .

قالت شهوة هانم

ـ هذا صحيح يا مرجانة. . لو سمع الآغا كلمات زينب بدل أن يحجب جمالها كل شيء عن عقله لتجنبنا ما سيحدث الآن. . ولكن لماذا لا أسرع إليه ربما. .

قالت مرجانة:

ـ فات الوقت يا ابنتي، وما يريده الله سيكون.

قالت زينب:

ـ وأمي حفيظة والست نعيمة.

قالت شهوة هانم:

ـ سندخلهما إلى السراي، أسرعي يا مرجانة مع زينب إليهما، وادخليهما إلى داخل السراي حتى لا يراهما الآغا وهو خارج من البوابة فيؤذيهما من جديد.

صاحت زينب:

ـ أخرج إليها حالاً.

قالت شهوة هانم:

ـ ويجب أن يطمئنا عليك، ثم يجب أن تطمئن نساء الحسينية عليك وعليهما أيضاً. .

قالت زينب:

ـ نحضرهما هنا أولاً. .

ثم توقفت فجأة وهي تقول وقد عاد الخوف يظهر في عينيها. .
ـ ولكن الآغا لو رآني أو عرف فسوف.
قالت شهوة هانم في حزم:

ـ لن يعرف الاغا من كل هذا شيئاً، هيا يا مرجانة أسرعي وأحضري البواب إلى هنا حتى أفهمه ما أريد، وحتى لا يفتح فمه بكلمة مما سيحدث. .

* * *

قال أبو سريع:
ـ لماذا القلق يا معلم شعبان، نحن حتى الآن لم ندع أحداً يدخل إلا من نريد، كما منعنا كل محاولات الشلبية ورسل السراي من الخروج. .
قال المعلم شعبان أبو ضفر:

ـ المهم الصلاة يا أبو سريع. . من الذي سيقف عند المداخل أثناء الصلاة. .
قال هريدي:

ـ أنا لا أستطيع أن أترك صلاة الجمعة، خاصة وخطيب اليوم هو الشيخ أبو المكارم. .
وقال مكادى:

ـ الشيخ بركة، والصلاة وراءه لها ثوابها.
قال أبو سريع:

ـ سيجد عثمان رزة حلاً لهذه القضية، فلا يعقل أن نترك المداخل دون حراسة أثناء الصلاة.

قال المعلم شعبان أبو ضفر:

ـ أنا لا أستطيع أن أترك فرض الله أبداً.

وقبل أن يجيبه أبو سريع جاءهم صوت عليوة الفار مقترباً وهو يقول:

ـ يا معلم شعبان، أنزل للصلاة أنت ومن معك، سيتولى أولاد بولاق حراسة المداخل حتى تنتهي الصلاة...

قال أبو سريع:

ألم أقل لك يا معلم، عثمان رزة سيجد للمشكلة حلاً..

قال عليوة الفار:

ـ نحن أشقياء لو يهمنا إداء فرض الله فادعو لنا في صلاتكم يتوب علينا..

قال أبو سريع:

ـ هل ستكون هنا طول الصلاة يا معلم عليوة..

قال عليوة الفار:

ـ لا يا أبا سريع، ولكن بعض أولاد بولاق سيكونون هنا، والبعض لهم مهمات أخرى..

قال شعبان أبو ضفر:

ـ وما هو دورنا نحن بعد الصلاة يا عليوة يا فار؟

قال عليوة الفار:

ـ في الزاوية سيخبرك عثمان رزة بما عليك أن تفعله أنت

والرجال، وكفاكم ما فعلتم حتى الآن، فيفضلكم لم يخرج أحد من السراي إلى خارج الحسينية..

قال هريدي:

ـ أسرع بنا يا معلم شعبان فأنا أريد أن أتوضأ..

وقال مكادى:

ـ هذه جمعة لنا أنساها أبداً، أصلي فيها خلف الشيخ أبو المكارم نفسه..

* * *

قال عم داود السروجي للأسطى شلضم:

ـ قلبي لا يحدثني بخير من بقاء هذا الشلبي مربوطاً هنا..

قال الأسطى شلضم:

ـ قال عثمان رزة أن نبقيه حتى بعد صلاة الجمعة، ثم يرسل من يطلبه منا...

عاد عم داود السروجي يهز رأسه في إلحاح وهو يقول:

ـ نستطيع أن نبعده عن هنا حتى يطلبه، فقد رآه هنا عشرات، ولا نعلم أن يكون واحد منهم من رجال لاظ آغا فيبلغه بمكانه..

قال الأسطى شلضم وقد بدا الإهتمام على كلماته ووجهه:

ـ لك حق يا عم داود، والحل.

ـ نأخذه إلى مكان آخر، فإذا ما حاولوا العثور عليه هنا لم يجدوه، واستطعنا أن نقدمه لعثمان رزة حين يطلبه..

قال الأسطى شلضم:

ـ إذا فتشوا عنه نهبوا الإصطبل والخيل، ولست مطمئناً على بقاء الخيل أيضاً هنا..

قال عم داود السروجي:

ـ هذا أنت محق فيه يا أسطى شلضم، أسرع وابحث عن عنتر العربجي، هو يأخذ الخيل مع العربة إلى خارج الحسينية.

ـ والشلبي؟

ـ داخل العربة مقيداً يا أسطى شلضم، ويبعد في الصحراء في مكان نتفق معه عليه حتى إذا بحثنا عنه وجدناه..

قال الأسطى شلضم:

ـ هذا هو التدبير.

قال عم داود:

ـ إذن أسرع وابحث عن عنتر فقد أوشك موعد الصلاة أن يحين.

* * *

ما كادت الشيخة زهيرة تفيق إلى نفسها وسط جيرانها المحتشدين حولها حتى سألت لتعرف ماذا حدث بعد أن أفقدتها ضربات العبيد صوابها فحملها النسوة معهن في فرارهن من أمام باب السراي وحكى المتحلقون حولها لها عن كل ما حدث، فصاحت في انفعال:

ـ هل هذا يرضي الله أو يرضي رسوله.. كيف نترك البنت ليلة

كاملة في السراي. وكيف نترك حفيظة ونعيمة وحدهما أمام السراي. . هذا لا يرضي الرب ولا يرضي العبد الصادق في عبادته الحريص على طاعة ربه. .

ثم التفتت عن الوجوه المحتشدة حولها. . وجوه رجال ونسوة وصبيان وعجائز وأطفال:

ـ لو كانت لي عينان، لو كنت أرى لما عجزت عن القيام بواجبي وحدي. .

وارتفع أكثر من صوت حولها يصيح:

ـ أمرك يا ست الشيخة، قولي يا ست الشيخة.

قالت الشيخة:

ـ كل النساء يتجمعن عندي، ونذهب إلى السراي ولا نغادرها إلا وزينب معنا. . وسنقف جميعاً مع حفيظة ونعيمة على باب السراي، وما يحدث لهن يحدث لنا كلنا. وصاح أصحاب الوجوه، وارتفعت التعليقات والصرخات والتهديدات، وأسكتهن صوت الشيخة زهيرة الذي استعادهدوءه ووقاره وهي تقول:

ـ إذا كان الرجال قد نسوا شهامتهم ورجولتهم، فسنرغمهم أن يتحركوا عندما يشاهدون ما سيفعله عبيد الآغا وجنوده بنساء الحسينية. .

* * *

قال عم أحمد الفوال:

ـ هذا كلام لا يصح أبداً، الشناوي في مغلق الخشب معناها أن الفراخة كلها في خطر. .

قال أبو سلامة:

ـ أنا قلبي لا يحدثني بخير هذا النهار أبداً، ومنذ رموه في المغلق أمس وأنا أحس أن شيئاً يقبض على قلبي بأيد من حديد. .

قالت أم سلامة:

ـ ما هذا الجبن يا رجل، هو هنا كالجثة بعد علقة الأمس، ولن يجرؤ أحد على تخليصه، وسنسلمه للمعلم عثمان رزة حين يطلبه. .

قالت حسنية:

ـ هل سيأتي المعلم عثمان رزة بنفسه إلى هنا يا خالتي؟

قالت أم سلامة:

ـ أسكتي يا حسنية، وهل هذا وقته.

صاحت حسنية:

ـ أريد أن أراه يا خالتي، يقولون أنه طول بعرض، وأنه جميل الصورة حلو الصوت.

صاح أبو سلامة بضيق:

ـ اسكتي يا حسنية حتى نتدبر أمرنا في هذه الواقعة. . فلو عرف الآغا مكان الشناوي وما حدث له لما نجا من غضبه بيت واحد من بيوت الفراخة كلها. .

قال عم أحمد الفوال:

ـ هذا هو الكلام الذي لم يضعه أحد في اعتباره، وماذا لو أن

الآغا أحس أن إهانة الشناوي انتقاص من هيبته، وماذا لو أنه أراد استرداد الشناوي ليتعرف على من أهانوه لينتقم له منهم..

صاح أبو سلامة:

ـ إنه يجلد اليوم الشيخ الشماع والأسطى عقيرب لغير سبب إلا أن الشيخ الشماع طالب الشلبي بحق العرقسوس والعلى لوز، والأسطى عقيرب لأنه دافع عن صبية المرحوم علاء الدين الذي راح دمه هدراً...

وهنا صاحت أم سلامة وهي تولول:

ـ وسيأتي الدور علينا، أنا أعرفهم أشراراً لا يتورعون لشيء، لعن الله الشناوي ولعن يومه الأغبر، ولعن الساعة التي ولدته أمه فيها، كان مشؤوماً من يومه، ظلت أمه مريضة بين الحياة والموت أسبوعاً..

صاح أبو سلامة في ضجر:

ـ أهذا كلام يا أم سلامة، هل هذا وقته؟

وقال عم أحمد الفوال:

ـ لا بد من إخراجه من المغلق، والبحث عن مكان آخر نخفيه فيه..

وصاحت حسنية:

ـ أليس هذا كريم الدين ابن الشيخ يحي الشماع؟

والتفت الكل ناحية مدخل الحارة، وبالفعل كان كريم الدين يسرع إليهم مهرولاً، وقال عم أحمد الفوال وهو يتقدم للقائه:

ـ خيراً يا كريم الدين؟

ـ بعد صلاة الجمعة كل إنسان في الحسينية يلزم بيته ولا يخرج منه

أبداً، ولا يفتح شباكاً ولا يطل من طاقة، الرجال والنساء والأطفال على السواء..

قال أبو سلامة:

ـ هل هذه أوامر الآغا؟

قال كريم الدين في ضجر:

ـ لا ولكنها أوآمر عثمان رزة حتى نترك الشوارع والحواري لرجال الآغا وحدهم..

وقالت أم سلامة في استنكار:

ـ نلزم الديار ولا نظرة من طاقة أو باب أو شباك، نسجن بالحياة؟

قال أبو سلامة في ضيق:

ـ يا أم سلامة هذا لصالحنا، لصالح الحسينية في هذا اليوم الأغبر، لا بد أن عثمان رزة لديه من الأسباب ما يجعله يريد هذا منا.

قال كريم الدين:

ـ لقد ظللت الهث منذ الصباح من حارة إلى حارة، ولا بد أن أترككم لأكمل إبلاغ الرسالة قبل صلاة الجمعة..

تغير وجه أم سلامة وبدت عليه علامات الإشفاق وهي تقول:

ـ كل الحسينية وحدك يا عيني يا بني، كان الله في عونك.

وقال عم أحمد الفوال:

ـ إنتظر يا كريم الدين، ألم يخبرك عثمان رزة ماذا نفعل بالشناوي المرمي هنا في المغلق..

قال كريم الدين في دهشة:

ـ وماذا سيقول؟ أتركه مكانه حتى يطلبه منك.

ثم لوح مسلمًا وانطلق مسرعاً، وعم أحمد الفوال يقول في إصرار:

ـ إنتظر يا كريم الدين، إنتظر، ولا بد لنا من حل يا ناس. . لا بد لنا من حل

ولكن كريم الدين كان قد اختفى من مدخل الحارة تماماً، وقالت حسنية وهي تتنهد:

ـ لم يلتفت إليّ مرة واحدة وكأنني غير موجودة بالمرة.

وقال أحمد الفوال:

ـ إسمع يا سلامة، الحل في أيدينا نحن، لماذا لا نحمله إلى المستوقد خلف المغلق ونخفيه وسط الوقود هناك. . ونقيده من قدميه إلى الشباك ونكمم فمه، ونحن وحظنا بعد هذا. .

قالت أم سلامة:

ـ وما الفرق بين المغلق والمستوقد؟.

ـ الكل يعرف أنه في المغلق، فإذا لم يجدوه هناك انصرفوا عنا، وظل الشناوي تحت يدنا فنعطيه لعثمان رزة حين يطلبه.

قالت حسنية:

ـ لا بد أن يطلبه منا بنفسه، ليأتي إلى الفراخة وأراه.

قال أبو سلامة:

ـ وماذا تنتظر هيا بنا فقد أوشك الشيخ زكي أن يؤذن لصلاة الجمعة.

وبينما اندفع الرجلان ومعهما أم سلامة إلى مغلق الخشب،

أخذت حسنية تعبث بضفيرة شعرها وهي تتنهد وبصرها عالق بحلم بعيد . .

* * *

كان صيام وعوض الفران قد دارا بكل زقاق وحارة في الحسينية وراء نداءات عبادة التي كانت تأتي إليهما بكل وضوح، وكانا يحددان مكان النداء ثم يسرعان إليه، ولكنهما لا يعثران لعبادة على أثر، وبعد قليل يسمعان النداء من جديد من ناحية أخرى غير التي أتى منها أول مرة فيهرعان إلى الجهة التي جاء منها الصوت وكلهما أمل في أن يجدا عبادة هناك، ولكنه أبداً لم يكن هناك. . . ووقف عوض الفران مسنداً ظهره إلى حائط أحد المنازل وهو يقول وأنفاسه تتلاحق في سرعة :

ـ لقد جريت اليوم كما لم أجر في حياتي كلها. .

قال صيام :

ـ لقد تعبت أنا أيضاً، ويبدو أنه لا فائدة، لن نلحق به أبداً. .

قال عوض الفران، وهو يحاول أن يسترد أنفاسه اللاهثة:

ـ إنه لا يستقر في مكان واحد أبداً.

ـ لماذا تنظر إليَّ هكذا؟

ـ هل هو حقيقي؟

ـ من هو الحقيقي يا صيام؟

ـ هذا الصوت الذي نسمعه ونتبعه منذ أمس، هل نسمعه حقاً أم هو وهم. ؟

هز عوض الفران رأسه في حيرة وخرجت الكلمات من فمه بطيئة وهو يقول:

ـ ألم نسمعه معاً، هل يمكن أن يكون وهماً ما يسمعه إثنان في وقت واحد. . ؟ . . لو كنت أنا سمعته وحدي وأنت لم تسمعه أو لو كنت أنت تسمعه وحدك وأنا لم أسمعه لشككنا في أنه وهم. . ولكن إثنين لا يتوهمان الشيء الواحد في نفس الوقت. .

ازدادت عينا صيام اتساعاً، وهو يتلفت حوله في قلق، فقال عوض الفران:

ـ ماذا بك، كأنك ترتجف. .

قال صيام:

ـ أنا خائف؟ يا عوض

ـ خائف؟ مم؟

ـ بدأت أخاف أن يكون عبادة هذا عفريتاً أو جنياً.

ـ العفاريت لا تظهر في النهار، وفي ضوء الشمس يا صيام، والجن تحبس يوم الجمعة، واليوم هو يوم الجمعة، ونحن نقترب من ساعة الصلاة. .

لم يقلل هذا من نظرة الخوف التي بدأت تتسرب إلى عيني صيام اللتين ازدادتا اتساعاً وكانت كلماته هامسة مبحوحة وهو يقول:

ـ ربما كان ولياً من أولياء الله الصالحين.

قال عوض الفران:

ـ ليكن من يكون يا صيام. . ابوك قال أحضره فلنذهب ونحضره. .

ولم يجب عوض الفران، وساد الصمت بينهما كثيفاً وثقيلاً، وفجأة من بعيد، من خلفهما تماماً انبعث صوت عبادة أسياناً حزيناً ضارعاً يصرخ. .

ـ يا جعيدي النار حامية يا جعيدي. .

وقفز صيام وكأنما لدغته عقرب وهو يتلفت حوله ويصيح في ذعر. .

ـ إنه هو. . إنه هو.

قال عوض وهو يمسكه من ذراعه الذي أخذ يرتجف مع ارتجاف جسده كله:

ـ هذا صوته، وأنا سمعته مثلك وراءنا تماماً.

وعاد صوت عبادة من جديد يكمل جملته المحفوظة المكررة:

ـ تكون نار تصبح رماد لها رب يدبرها.

وهمس عوض الفران وقد بدأ الإرتجاف يدب في أوصاله هو نفسه:

ـ الصوت هذه المرة يأتي من أمامنا.

ولم يجبه صيام فقد كانت أسنانه تصطك في رعب، بينما ارتفع صوت عبادة مرة ثالثة وهو يقول:

ـ آن الأوان وحل الوقت، الوقت لصاحب الوقت، الوقت لصاحب الوقت يا جعيدي الوقت لصاحب الوقت. . مدد يا مبرقعة يا أم الأنوار مدد مدد يا رفاعي مدد.

وكان الإثنان يرتجفان تماماً حين جاءت كلمته المدوية الحزينة:

ـ وحدوه . .

وهمس صيام:

ـ أسرع بنا من هنا، أنا لا أريد أن أبقى هنا دقيقة واحدة.

قال عوض الفران:

ـ ألم نكن نبحث عنه هو هنا، بالتأكيد هو هنا.

وارتفع فجأة صوت الشيخ زكي الجهوري منادياً للصلاة.

فتنفس صيام الصعداء وهو يقول:

ـ الصلاة، أذَّن أبي للجمعة هيا بنا إلى الزاوية.

قال عوض الفران:

ـ لو كان هنا سنجده في المسجد يؤدي الصلاة مع الآخرين

قال صيام:

ـ هيا بنا بسرعة فلا بد لي من الوضوء من جديد. .

قال عوض الفران:

ـ وأنا كذلك. . هيا بنا.

وبينما ارتفع صوت عبادة يكرر كلمته الأسيانة:

ـ وحدوه. . .

وكان صوت الشيخ زكي يكمل الآذان لصلاة الجمعة من عند باب الزاوية، والناس تتدفق من كل صوب نحو الزاوية لأداء الصلاة. . .

- ٤ -

بينما كان المصلون يستمعون من الشيخ أبي المكارم إلى خطبة الجمعة التي كان يلقيها بصوته الهادىء القوي والكل مشدود إليه وإلى كلماته النارية، فتح باب السراي الرئيسي وخرج البواب ومعه زينب ومرجانة وأم فكيهة إلى حيث جلست الست حفيظة والست نعيمة وقد خارت قواهما تماماً.. ولم تبد المرأتان أية مقاومة ومرجانة وأم فكيهة تحملانهما واحدة إثر الأخرى إلى داخل السراي فقد أنهكهما الجوع والإنفعال والصراخ حتى كادتا تكونان فاقدتي الوعي.. وأغلق البواب البوابة وهو ينظر إلى الشوارع المحيطة به وقد خلت من كل إنسان في قلق وخوف.. وعند الباب الخلفي كان قبلق يقول لطقمق:

- سأنتظرك في الإصطبل بعد أن أخلص قيمق، وتكون أنت قد جئت بهذا الشناوي لنعود إلى السراي معاً.

نظر إليه طقمق في أمعان وهو يقول:

- إذن فأنت تحس كما أحس بالضيق لهذه المهمة.

قال قبلق

- سمه ما شئت ولكني أريد أن أنهي هذا الأمر بسرعة.

ثم نظر إلى من معه من جند وعبيد، وهو يقول:

- هيا بنا بسرعة قبل أن ينهي هؤلاء صلاتهم..

قال طقمق:

- صدقت، سأسرع إلى مغلق الخشب، وألقاك في الإصطبل بأسرع ما أستطيع.. وخرج كل منهما برجاله من السراي مسرعاً،

وإحساس عارم بالقلق يجتاح كلا منهما لهذا السكون الغريب الذي ملأ شوارع الحي..

وفي داخل السراي كان قوبلاي آغا ينهي آخر الترتيبات قبل أن يغادر السراي على رأس الموكب الذي يسير فيه الجلاد والمذنبان وعلى رأسه المنادي بطبلته، وكان قوبلاي يتحرك في كل مكان بسرعة، يتفقد أسلحة الجند والعبيد، ويشد سرج جواده ليتأكد من سلامة أربطته ويتفقد اللجام والركاب، ثم يلتفت بين الحين والحين إلى لاظ آغا قائلاً:

ـ يجب أن يكون الموكب مهيباً، أولاً المنادي ينطلق بطبلته ثم مجموعة لا تقل عن ثمانية من الأمراء على خيولهم ثم رئيس الجند مام بغل المذنبين يجره أحد الخصيان السود ووراءه عبدان يحملان لعروستين ثم الجلاد، ثم مجموعة من الجند ثم أنا وأنت ورائي بخطوات ثم ثلاثة من حاملي الطبول يدقون بانتظام ثم الجند المسلحون، وأخيراً العبيد..

قال لاظ آغا في صبر نافذ:

ـ لقد أعددت كل هذا كما طلبت يا جناب الآغا، ولو أني لا أدري سر كل هذه الرسميات أمن أجل جلد شربتلي وسايس يخرج الآغا نفسه مع كل هذا الموكب.

قال قوبلاي آغا مكرراً ما قاله أكثر من مرة قبل هذا، وكأنما ليقنع نفسه بما يقول:

ـ ليست المسألة جلد الشربتلي والسايس، وإنما المسألة هي جلد الحسينية كلها، أنت حتى الآن لا تفهم، ولكنك ستفهم بعد حين

قليل جداً من الآن. . .

ثم أسرع يجري إلى داخل السراي ليعود متمنطقاً بسيفه المتدلي من حزام جلدي لامع، وأحكم وضع عمامته، واقترب من حصانه وهو يقول للاظ آغا:

- هل انتهت الصلاة؟

قال لاظ :

- هناك أحد العبيد عند باب المسجد

- لحظة انتهاء الصلاة ليخبرنا بانتهائها . .

وعاد قوبلاي يقول في صبر نافذ:

هذا الرجل الشيخ زكي يطيل في خطبته دون داع. .

قال لاظ آغا في هدوء:

- ليس خطيب اليوم هو الشيخ زكي يا جناب الآغا، وإنما خطيب اليوم، وأمام صلاة الجمعة هو الشيخ أبو المكارم.

- من؟

قالها قوبلاي آغا صارخاً كأنما أصابته لطمة مفاجئة، فعاد لاظ يقول في هدوء:

- الشيخ أبو المكارم، شيخ الإمام الشافعي يا جناب الآغا. . . ومعه كوكبة من تلاميذه جاءوا خصيصاً هذا الصباح للصلاة في زاوية الشيخ زكي ببيارقهم

وصمت قوبلاي آغا، وابتسم لاظ وهو ينظر إليه، ويرى علامات القلق تغزو وجهه، الذي بدت عليه سمات التفكير العميق، وأحس لاظ بسرور داخلي يملأ نفسه، الآن فقط بدأ هذا

الآغا يدرك أن المسألة ليست هينة، وأنه لا يواجه صبيان وعجائز ونساء الحسينية، دعه يدرك هذه الحكاية على مهل. . . دعه يفهم أخيراً كيف يجب أن يعتمد على رئيس الحرس في تقدير الأمور ووزنها. . دعه أيضاً يعرف معنى التمهل والتأني في الخطوات التي تمس الأمن والنظام، وكأنما أفاق قوبلاي آغا من كابوس مخيف إذ رفع رأسه وهو يقول في صوت أجش:

ـ ما الذي جاء به إلى الحسينية يا لاظ آغا؟

ولم يجب لاظ آغا لفترة، وكأنما كان يلذ له أن يرى تيار الشك والقلق الذي بدأ يغزو فكر قوبلاي يحرق إحساسه العارم بالثقة بالنفس، ويهز إلى حد كبير ذاته التي كان يرى أنها لا تعرف القلق ولا الحذر ولا الإهتمام بأي شيء. . وعاد قوبلاي يسأل وقد ازدادت خشونة صوته:

ـ سألتك ما الذي جاء به الحسينية اليوم؟

قال لاظ في هدوء وبطء شديدين:

ـ لم أسأله يا آغا، ولكن ربما هو نفس السبب الذي جاء بعثمان

ـ رزة أيضاً إلى الحسينية منذ أمس. .

وفي صوت مبحوح شاحب النبرة قال قوبلاي:

عثمان رزة؟. .

وابتسم لاظ وهو يقول في نفس الصوت الهادىء البطيء الكلمات:

ـ نعم عثمان رزة مشدود ببيبرس مملوك البند قداري يا آغا. .

ولكن قوبلاي كان يحملق أمامه مفتوح الفم وكأنه لم يسمعه، وكان يقول لنفسه. .

ـ الشيخ أبو المكارم وعثمان رزة.. ما معنى هذا؟ هل هناك مؤامرة تحاك ضدي..؟

وعاد لاظ آغا يقول وهو يحس بسرور خفي يملأ أعماقه.

ـ هما من أولاد الحسينية يا جناب الآغا... ولدا هنا وتربيا هنا، وظلا فترة طويلة من الطفولة والصباوهما يعيشان في حواري هذا الحي، بل أن السيدة فاطمة أم عثمان رزة ما زالت تعيش هنا في إحدى حواري الحسينية وهو يزورها منذ زمن من فترة إلى فترة..

وكأنما وجد قوبلاي آغا قشة النجاة من الدوامة التي أخذت تجرفه فجأة، إذ تنهد في ارتياح وهو يقول هازا ذراعيه كأنما يؤكد ما يقول:

ـ هي الصدفة إذن، عثمان رزة هنا يزور أمه، والشيخ أبو المكارم يقوم بجولات لمريديه ولا شك أن الشيخ زكي من مريديه، صدفة مجرد صدفة..

لم يزد لاظ عن قوله:

ـ ربما..

ثم سكت.. وجاء سكوته وقوداً لثقة قوبلاي، فقال وقد بدأ صوته يسترد شيئاً من ثباته:

ـ لا داعي للقلق، ثم نحن لن نتحرك إلا بعد الصلاة، وليس لأحدهما ما يدفعه إلى التدخل فيما لا يعنيه، فالشيخ أبو المكارم يعرف أن عيون الملك الصالح تراقب نشاطه، وعثمان رزة مشدود لأحد المماليك الصالحية البحرية وهو لن يرفع يداً ضد أحد أغوات الملك..

ـ ولكن لاظ آغا الذي استرعى انتباهه عبد يجري ناحية السراي

اكتفى بأن يقول:

ـ ربما. . !

وكاد قوبلاي آغا يغلظ في الرد عليه لولا أنه رآه ينظرْ باهتمام ناحية المدخل وهناك رأي العبد يجري مسرعاً فنسى الكلمات الغاضبة التي كانت تتدافع عند شفتيه، وأخذ يرقبه بدوره الى أن أصبح أمام لاظ آغا وقال لاهث الأنفاس:

ـ انتهت الخطبة وبدأت الصلاة، ولن يمضي إلا وقت قليل حتى تنتهي الصلاة. والتفت لاظ آغا ناحية قوبلاي، الذي تحرك نحو جواده وهو يرفع يده ويقول:

ـ ليأخذ كل مكانه، ويبدأ دق الطبول بعد مغادرتنا السراي ورأً، كما يبدأ المنادي نداءه عند سكتات الطبول، وليتحرك الجميع لى إشارة من يدي. .

تنهد لاظ آغا وهو يتجه إلى حصانه في استسلام، إلا أن صيحة من قوبلاي أوقفته مكانه ليلتفت إلى آغا الذي سأله في لهفة واهتمام:

ـ هل رجالك في أماكنهم من الميدان يا لاظ. .؟

قال لاظ آغا:

ـ نعم يا جناب الآغا. . فوق الأسطح وعند المداخل، لقد أخذوا أماكنهم قبل الصلاة بزمن طويل. .

وبدت معالم الإرتياح على وجه قوبلاي آغا وهو يقول:

ـ سندور بالموكب في الحسينية كلها. . ولن يكون الميدان الفسيح إلا في نهاية المطاف

كان قبلق يتلفت حوله في قلق وهو يقول للرجال والعبيد من حوله:

ـ سننتظر هنا دقائق أخرى فإن لم يصل طقمق عدنا في الحال. . .

كانت مهمته فاشلة تماماً، لا أحد في الإصطبل، لا قيمق ولا السايس ولا شيء بالمرة، الصمت هو الشيء الوحيد الموجود في هذا الإصطبل اللعين، بل لعل الصمت هو الشيء الوحيد الموجود اليوم في الحسينية، صاحبه منذ خرج من السراي، وحتى وصل إلى الإصطبل، كل الطريق من السراي إلى هنا لم ير إنساناً إلا هؤلاء الذين كانوا يهرعون نحو الزاوية للصلاة، وحتى هؤلاء على قلتهم لم ينظروا إليه، ولا إلى من معه من الرجال كأنه لا يوجد فوق الأرض ولا يسير في نفس الطريق. .

وظلت سحابة الصمت تتبعه وهي تزداد كثافة كلما تقدم في طريقه ناحية الإصطبل، ولم تكن مفاجأة له أن يجد الإصطبل خالياً، ولكنها كانت مفاجأة قاسية لمن معه من الجند والعبيد الذين أخذوا يتلفتون حولهم في قلق، لم يفت قبلق وإن تجاهله لأنه كان يعرف أنه في أعماقه يحس نفس هذا القلق وإن كان يحاول أن يخفيه وراء القناع الصارم يضعه بأرادته القوية فوق ملامح وجهه. .

ولم يطل انتظار قبلق إذ سرعان ما بلغه صوت وقع أقدام تسرع السير نحو الإصطبل وما هي إلا دقائق حتى ظهر طقمق ومن معه من الرجال يهرولون في سيرهم وهم يتلفتون حولهم في قلق لا يقل عن قلقه هو ورجاله، وابتسم قبلق في مرارة وهو يقول مرحباً، بطقمق الذي كان يجفف وجهه وجبهته من عرق غزير ملأهما:

ـ يبدو أنك صادفت في مغلق الخشب نفس الذي صادفته أنا هنا . .

قال طقمق وهو يجيل بصره في الإصطبل الخالي من كل شيء :

ـ هل اختفى كل شيء هنا؟

ثم ضحك وهو يقول :

ـ الحال معي كان أحسن ، فأكداس الخشب ما تزال موجودة في المغلق .

ضحك قبلق لضحكته وهو يربت على كتفه ويقول :

ـ من حسن الحظ أننا اتفقنا على اللقاء هنا ، فنحن ومن معنا من رجال وعبيد قوة لا يستهان بها ، ولن يجرؤ أحد على الإحتكاك بنا . .

تلفت قيمق حوله في قلق ، ومرت بجسده رعشة أحسها نبلق تهز راحته التي وضعها على كتفه ، وكان صوته هامساً وهو يقول :

ـ كأننا لسنا في الحسينية الصاخبة بأصوات نسائها ورجالها وأطفالها ، بل كأننا في مدينة ماتت وهجرها الناس .

وكان صوته قد انخفض بحيث أصبح لا يكاد يسمع وهو يقول :

ـ كأننا في مدينة أشباح .

وما كاد ينهي حديثه الهامس المرتجف حتى انفتح فجأة باب عن يمينهما فقفز كل منهما إلى ناحية ويده على اللت الحديد ، ولكن الباب ظل مفتوحاً للحظات ثم خرجت منه امرأتان ترتديان السواد ودون أن تلتفت أي منهما ناحية الشلبية ومن معهما من جند وعبيد ، مضيتا مهرولتين إلى مدخل الحارة ، وسرعان ما اختفتا عن ناظريهما . .

وتنهد الإثنان وقال قبلق:

ـ ماذا حدث لنا، نور الشمس ساطع، والجو هذا اليوم رائع، ونحن نقف كمجموعة من الصبية المذعورة ترتجف لأي صوت وكأننا في بيت مهجور وسط ظلام دامس..

وتنهد طقمق وقال:

ـ لقد وصلت المحروسة منذ أيام بل يكاد يكون هو اليوم الرابع ومع هذا فأنا أحس أنني شخت وهرمت، وتقدمت بي السنون كما لم تفعل بي كل أيام عمري السابقة رغم كل ما فيها من أسر وغربة وتمرينات شاقة وارتحال لا ينتهي.

قال قبلق:

ـ صدقت.. ما هذا؟

قطع قبلق حديثه عندما فتح باب آخر لتخرج منه امرأة تتشح بالسواد وتهرول مسرعة نحو مدخل الحارة ثم تختفي خلاله، وقبل أن يجد قبلق وقتاً للتعليق فتح باب آخر وخرجت منه مجموعة من النسوة مسرعات ليكررن نفس ما حدث في المرتين السابقتين، وأخذ قبلق وطقمق يراقبان هذه الظاهرة الغريبة التي تكررت في كل بيت في الحارة يفتح الباب، وتخرج نسوة لابسات السواد يهرولن في صمت إلى خارج الحارة..

قال طقمق:

ـ هل مات أحد من اعيان الحسينية؟..

ضحك قبلق ضحكة جافة وهو يقول:

ـ صدقت كأن هناك عزاء يقام في ناحية ما يقصدن جميعاً إليه.

ولكن رغم الضحكات المتبادلة بين الإثنين أحس من معهما من الجند والعبيد بمايعتمل في داخلهما من قلق، وبدأ الهمس والتحرك العصبي يسود رجال قبلق ورجال قيمق على السواء وقال قبلق:

- لنتجه إلى الميدان كما طلب منا الآغا.

قال طقمق:

- الآغا قال بعد الصلاة، فهل انتهت الصلاة أم لا..

- لقد مر زمن طويل منذ سمعت الأذان وأظن أن الصلاة قد انتهت أو في طريقها إلى الإنتهاء..

وأطرق طقمق عابساً وهو يقول:

- ولكن ماذا ستقول للآغا؟

وعاد القلق يملأ صوت قبلق وهو يرد عليه قائلاً:

- صدقت، ما أوفدنا إلى أمر إلا وعدنا مخفقين.. ولن يقبل هذه المرة منا عذراً..

وساد الصمت بينهما من جديد، وامتد صمتهما فشمل الرجال والعبيد الذين وقفوا إلى جوار الإصطبل ينتظرون أوامرهما..

* * *

عندما انتهى المنادي من آخر كلماته وعاد يدق طبلته من جديد وحاملوا الطبول في أماكنهم من الموكب يدقون الطبول لدقاته، قال لأسطي عقيرب للشيخ الشماع..

ـ لا أحد في الشوارع كلها يا شيخ يحيي ما معنى هذا ألم تنقض الصلاة بعد. . ؟

ـ انقضت أو لم تنقض، ما صلة هذا بما نحن فيه؟

ـ بالأمس وهم يجوبون بنا حواري الحسينية كان الناس يتدفقون لرؤية عارنا، وكنت أموت مع كل حركة، ومع كل نظرة، كنت أحس وقع العيون على كل جزء من جسدي، وكانت أصوات الناس تمزق كل جلدي وتنفذ إلى لحمي ليسيل دمه داخلي، وأموت. .

قال الشيخ يحي الشماع وهو يهتز مع كل حركة من حركات البغل الذي قيد إليه وظهره يلاصق ظهر الأسطى عقيرب في وثاق واحد:

ـ هذا أمر الله يا أسطى عقيرب، ولا راد لأمره. .

قال الأسطى عقيرب، وصوته يزداد همساً:

ـ ونعم بالله يا شيخ يحي . . ولكني أحس أنه يكرمنا اليوم حين يخلي الناس الشوارع والحواري، فلا يشهدون مهانتنا، من جديد، وهذه الذلة التي حكم علينا بها صاحب الأمر. .

قال الشيخ يحي الشماع وهو يجيل نظره في الطريق الخالي إلا من الموكب الذي أخذ يسرع في سيره وقد دب فيه اضطراب مكتوم. .

ـ صدقت يا أسطى عقيرب كأن الحي قد هجره سكانه، نحن يا أسطى عقيرب نسير في حي مهجور لا أحد فيه إلا هذا الموكب. .

قال الأسطى عقيرب وهو يمعن النظر أمامه وخلفه إلى أفراد

الموكب الغريب الذي يشكل هو والشيخ يحي جزأه الرئيسي والهام . .

ـ الآغا والمنادي والشلبية ومن معهم من عسكر وعبيد ليسوا كما تعودناهم يا شيخ يحي . .

ـ لهم حق يا أسطى عقيرب، فلم تكن الحسينية أبداً على مثل ما هي فيه هذا اليوم من صمت ووحشة .

ـ أليس هذا غريباً . . ؟ لماذا اختفى كل الناس من الشوارع والحواري، بل اختفت كل الوجوه من المشربيات والأسطح، لم يعد هناك إنسان واحد في كل الحسينية، أين ذهب الناس يا شيخ يحي ؟

وصمت الشيخ يحي وهو يجيل النظر حوله وقال :

محير يا أسطى عقيرب، وليس المسؤول بأعلم من السائل . .

ـ هو شيء

ونفس الحيرة والدهشة والقلق كانت تنتاب الآغا قوبلاي والآغا لاظ ، فقد أخذ كل منهما ينظر حوله ولا يجد أحداً عند الطرقات أو على عتبات المنازل أو حتى في النوافذ، وتبادل كل منهما نظرات التساؤل الحائرة مع الآخر، بينما أسرع جواد الآغا قوبلاي فأسرعت لسرعته كل الدواب في الموكب، كما أسرع لسرعته كل الراجلين الذين يسيرون معه في الموكب . . وعند مدخل حارة علي لوز وقف الموكب ليتعالى صوت المنادي وقد ساد الصمت إلا من نداءاته المتكررة بنفس الجمل المعادة والمكررة والتي بدا أن أحداً لا يسمعها إلا من يسيرون في الموكب من أغوات وشلبية وعساكر وعبيد ومذنبين ولا أحد، ولا شيء إلا الصمت حول الموكب، والفراغ

يحيط به من كل جانب، وأشعة الشمس الحارقة تلفح الوجوه والأجساد في عنف شمس وسط النهار القائظة التي لا ترحم أحداً، آغا أو عبداً أو أسيراً، كلهم عندها سواء. . وبينما شد قوبلاي على ناجذيه في ضيق، اكتفى لاظ بأن يطرق برأسه وأن يثبت عينيه إلى سرج جواده، كأنه لا يرى أهمية لشيء في الدنيا سواه، بينما عاد الشيخ يحيي الشماع يهمس:

ـ كنا نعيش في حالنا، لا نهتم إلا بما يرضينا ويرضي جيراننا ويرضي الله، ولكن لا مهرب من الشر، ولا من قدر الله، سعى إلينا الشر إلى بيوتنا ودكاكينا دون أن نسعى إليه، ولم يجدنا أننا لم نصنعه بأيدينا ولا لأنفسنا ولا لغيرنا.

قال عقيرب همساً:

ـ لقد فكرت في هذا في ليلي الطويل بالأمس وأول الأمس، نحن حقاً لا نريد أن نشارك أحداً حياته، ولكننا لا نستطيع أن نمنع الطامعين أن يحاولوا أن يشاركونا هم حياتنا. .

نحن نعطيهم ما يطلبون ونترك لهم البريق الذي يعميهم، الطمع في المال والسلطة والشهرة بل نترك لهم الإغراق في اللذائذ والشهوات، وندخل داخل حوارينا، داخل أنفسنا لنحاول أن نعيش سلامنا، وكان هؤلاء الطامعون يتركونا نعيش على الفتات، ليستمتعوا هم بكل ما نكدح من اجله. . . ولم نكن نتعس لهذا، بل كنا نحس أننا ندفع عن رضى ضريبة أمننا وسلامنا ورضائنا. . ولكن بعض هؤلاء، لا يرضيهم حتى هذا يا شيخ يحي، ولا يرضيهم إلاّ قهرنا وإذلالنا. . .

ـ كم دخل المحروسة يا عقيرب، وكم رأينا في الحسينية من أمم، من فهمنا وعاش معنا ذاب فينا، وأصبح منا وأصبحنا منه، ومن تغطرس وطغا كهذا الآغا ذهب إما إلى المقابر المزينة في الصحراء، وإما في المقابر المجهولة في أرض أخرى مجهولة لا يقيمون للموتى فيها شواهد على القبور:

تنهد الأسطى عقيرب والموكب يدخل إلى حارة الشهد وقال:

ـكان يمكنه أن يصل إلى الميدان من زمن، لماذا يلف ويدور. . ؟

قال الشيخ يحيى الشماع وهو يهتز مع حركة البغل الذي نفر من نحلة دارت حول رأسه، ثم مضت مذعورة من حركة البغل النافرة. .

ـ كان يريد فضيحتنا في كل حارة من حواري الحسينية. .

وفجأة توقف الموكب أمامه في وسط الحارة تماماً وقف عباده مصلوباً رافعاً يده إلى السماء وفيها العصا تتجه إلى ناحية الموكب وهو يصيح:

ـالوقت لصاحب الوقت، حان الوقت يا جعيدي، يا جعيدي تكون نار تصبح رماد لها رب يدبرها، مدد يا أم الأنوار مدد. . . مدد يا رفاعي مدد. .

وقبل أن يفتح قوبلاي آغا فمه ليأمر بإبعاده أو نهره صاح صيحته الحزينة الأسيانة:

ـ وحدوه. . .

وصاح لاظ آغا لاكز جواده وانطلق ناحية عباده. ولكن عباده كان أسرع منه إذ تحرك فجأة مختفياً في عطفه إلى جواره، وعندما وصل

إليها لاظ آغا لم يجد لعبادة أثراً . . . . . فعاد بجواده إلى حيث وقف قوبلاي آغا وقال:

ـ سآمر الجند بالبحث عنه في هذا الزقاق.

قال قوبلاي آغا:

ـ لا أتركه يمضي، ماذا سنفعل به حتى إذا وجدناه. . . . هيا نسرع إلى الميدان.

قال لاظ في دهشة:

ـ ولكن يا جناب الآغا نحن لم نجل إلا بجزء بسيط من الحي.

ـ قلت نسرع إلى الميدان. .

واستمر لاظ في الحاحه قائلاً:

ـ لا يجب أن نسرع إلى الميدان دون إكمال الجولة وإلا ظن هؤلاء المتمردون أنهم انتصروا علينا.

صاح قوبلاي آغا في غضب:

ـ حيرتني يا لاظ آغا، دائماً تدافع عن أولاد الحسينية كلما قلت رأيي فيهم والآن تسميهم بالمتمردين. . .

ـ هم متمردون يا جناب الآغا، وإلا فما معنى اختفائهم من الحواري والشوارع، وعدم الظهور أثناء سير الموكب، هذا تحد واضح لك وللسلطة وللسراي. .

قال قوبلاي آغا في ضيق:

ـ ولهذا فلنسرع إلى الميدان، فلن يظهر منهم أحد مهما أوغلنا السير في داخل أعماق الحي.

قال لاظ:

ـ إن هذا الأمر يحيرني، فلقد عشت معهم سنوات طويلة، لم أجد منهم إلا الرقة والطاعة، في بعضهم كبرياء أتجاهلها، وفي بعضهم ضعة أستغلها، وفي بعضهم قناعة أحترمها، وفي بعضهم شراهة أنفذ إليهم من خلالها، ولكن هذا الذي يحدث اليوم ما كنت أحلم أن عندهم القدرة عليه، أو حتى على مجرد التفكير فيه..

قال قوبلاي آغا:

ـ ولكنه حدث رغم كل حساباتك ومعلوماتك، وها نحن منذ خرجنا من باب السراي لا نلمح رجلاً أو امرأة أو طفلاً، حتى الكلاب والقطط اختفت من الشوارع، ولولا هذا الرجل المجنون الذي ظهر أمامنا الآن لحسبت أنني أسير في مدينة الموتى..

قال لاظ آغا:

ـ كل الأبواب مغلقة، وكل النوافذ مغلقة تسخر بضلفها الخشبية من الموكب ومن في الموكب..

صاح قوبلاي آغا في عنف:

ـ هذا لن يغير من الأمر شيئاً أسرع بنا إلى الميدان لنجلد هذين الكلبين وسيجلب صياحهما كل من تحصنوا بالبيوت واختفوا وراء الجدران..

أشار لاظ آغا بيده ليتحرك الموكب مسرعاً وسكت المنادي وإن ظل يدق طبلته ومن خلفه تأتي دقات الطبول الأخرى في إيقاع سريع يواكب لخطوات السريعة التي كان الموكب يهرول بها نحو الميدان الكبير...

* * *

في نفس الوقت الذي كان فيه موكب قوبلاي آغا يتجه مهرولاً ناحية الميدان الكبير، كان هناك موكبان آخران يتجهان في سرعة ناحية الحسينية، وكان أحدهما يتجه إليها من الجنوب من عند الروضة بينما كان الثاني يتجه إليها من الغرب. . . وكان كل من الموكبين مكوناً من عدد كبير من الفرسان الذين يلبسون الملابس الثمينة المزركشة، ويحملون أسلحة لامعة ويركبون خيولاً أصيلة مطهمة، قد زينت سروجها بالفضة والذهب وفي صدر أحد الموكبين كان يسير فارسان أحدهما متوسط العمر ضخم الجثة يركب حصاناً ضخماً كبيراً والثاني شاب حديث العمر طويل القامة مفتول العضلات يمتطي حصاناً قوياً كثير الحركة متناسق الجسد وقال الأول للثاني:

ـ ها نحن نقترب من الحسينية يا بيبرس، هل تظن أننا فعلاً سنستقر فيها هذه المرة. . .

قال الثاني:

ـ أيها الأمير نجم الدين البندقداري، لا أظن أنك ستغادر الحسينية بعد الآن، بل لا أظن أن اليوم سيمر دون أن تصبح آغا الحسينية. . .

ضحك نجم الدين البندقداري وهو يربت على عرف جواده وجسده يهتز كله مع حركة الجواد، وتلفت وراءه حيث يسير مماليكه وجنده وعبيده، وعلت شفتيه ابتسامة ارتياح، وقال:

ـ لقد عملت من أجل هذا اليوم كثيراً. . .

قال بيبرس ضاحكاً:

ـ لقد خدمك قوبلاي آغا من حيث لم يقدر.

قال البند قادري وهو يزيح ذبابة مرت أمام وجهه بيده الغليظة:

ـ لم أعرفه إلا مندفعاً لا يفكر في عواقب الأمور، وكنت واثقاً أنه إن آجلاً أو عاجلاً سيحدث من الضرر بنفسه ما لا يحدثه به أحد. . .

وضحك وهو يقول:

ـ لهذا طلبت منك منذ البدء أن تستأنس هذا الحيوان الوحشي الذي أخاف كل المحروسة، أعني مشدودك عثمان رزة، فهو قوة لا يستهان بها في الحسينية ويوم يصبح لنا الأمر في الحسينية سيكون هو ساعدنا الأيمن.

ضحك بيبرس لضحك البندقداري وهو يقول:

ـ عثمان رزة هو الذي يتولى كل الأمر في الحسينية الآن يا أمير نجم الدين.

ـ أعرف، فهذا اليوم هو يومه. .

ـ لست أريد غدراً به يا أمير بندقداري، فهو قد عاملنا بشرف منذ توبته عن العياقة والفتونة، وما دام قد تعرض لقضية الحي فيجب أن ينصف الحي وأهله. .

عاد البند قداري إلى الضحك وهو يحرك يديه تمسكان مقود الجواد حتى لا يسرع في سيره، وقال:

ـ من الذي يتحدث عن الغدر يا بيبرس؟ لا، نحن على وفاء بما طلبه، العدل لأهل الحسينية، والعقاب لمن قتل الولد الذي قتل منهم، والإفراج عن المسجونين ظلمًا. .

قال بيبرس وهو يكبح جماح جواده ليوافق في سيره سير جواد (البندقداري):

ـ عثمان رزة يا آغا هام جداً لنا، ولا يجب أبداً أن يحدث ما يجعله في مظهر لا ترضاه كرامته، ولا يرضاه انتماؤه إلى الحسينية..

قال البند قداري وهو يلوح بيده في الهواء مستحثاً من خلفه من الفرسان إلى الإسراع في السير..

ـ يا بيبرس يجب أن تعرف أن البطل اليوم هو عثمان رزة.. ونحن كلنا أعوان له نساعده ونؤيده، ولكنه هو البطل، وهو وحده الذي يجب أن يكون محط الإعجاب.. فهو زعيم الحسينية ورجلها القوي وابنها البار بها.. مفهوم يا بيبرس..

ضحك بيبرس وحصانه يتواثب في مقدمة الصفوف وقال:

ـ مفهوم يا آغا:

أما الموكب الثاني الذي كان يتقدم متجهاً إلى الحسينية فقد كان أضخم منظراً، وأكثر مهابة، كان يتقدم الموكب مجموعة من المماليك يمتطون الخيول السريعة ويحملون في أيديهم الرماح، ويسبقون الموكب بمسافة... ثم يأتي الملك الصالح أيوب على فرسه الضخم المزركش بالذهب والفضة، وفوق رأسه عمامة تتوسطها جوهرة تنعكس عليها أشعة الشمس فتبهر العيون، ووراءه بخطوات كان يسير ثلاثة من الفرسان أوسطهم هو الوزير الآغا شاهين وعن يمينه الأمير فخر الدين يوسف بن حموية قائد جيش الملك وعن يساره الأمير أقطاي قائد المماليك الصالحية البحرية.. ووراءهم بمسافة تأتي طوابير المماليك بخيولهم السريعة المزركشة السروج واللجم،

وأجسادهم الفارهة ووجوههم المتشابهة وفي أيديهم الرماح وعلى جوانبهم السيوف. . ثم يأتي الجند وأخيراً العبيد، وتتحلق مجاميع الناس تقف لمرورهم وعيونهم تتعلق بهذا الموكب في انبهار، وما أن يتبينوا أنه موكب الملك حتى تتصاعد الصيحات والدعوات والتكبيرات. . وقال الآغا شاهين:

ـ أدام الله عليك حب أبناء المحروسة يا مولاي:

قال الملك الصالح:

ـ نحن في حاجة إلى هذا الحب يا آغا شاهين فالحرب على الأبواب، بل لعّلنا نحتاج إلى أكثر من حبهم يا آغا، فالحرب تريد الولاء الكامل والإحتمال والصبر. .

قال فخر الدين بن حموية :

ـ إنهم يصلحون لهذا الوَلاء والإحتمال والصبر ولكنهم أبداً لا يصلحون للحرب. .

قال أقطاي:

ـ لسنا نريد منهم إلا هذا، أما الحرب فالصالحية البحرية تعرف كيف تتصرف فيها.

قال الملك الصالح:

ـ الحرب يا أقطاي ليست مجرد جنود بواسل، وإنما لا بد وراءها من شعب باسل، وهذا شعب باسل يعرف كيف يخرج كل جوهره في النصر والهزيمة على السواء. .

فقال الوزير شاهين:

ـ لهذا يا مولاي نصحت بهذه الزيارة للحسينية فوجودك في قلب

كل مكان مضطرب يعيد إليه الهدوء وإلى الناس الثقة في عدلك، ويؤكد حب الناس وولاءهم لك..

قال الملك الصالح:

ـ إنه طموح قوبلاي الذي سبب كل هذا، هؤلاء المماليك الذين ساعدوني في تولي الحكم يحسون بالقلق لمناصبهم المحدودة ويريدون القفز إلى المناصب الأعلى وبسرعة..

ضحك الأمير أقطاي وهو يقول:

ـ من يعرف ربما كان طموحهم يصل إلى أعلى منصب..

فضحك الملك الصالح لضحكه وقال:

ـ صدقت يا أقطاي، وعيوني في كل مكان تعرف تحركاتهم ومدى تورطهم، وحين يصل الأمر بواحد كقوبلاي إلى درجة تحطيم الناس لمجرد الظهور بمظهر القوة يجب أن يتنحى عن مكانه...

قال الوزير شاهين:

ـ نحن اليوم سنراه متورطاً في سلوكه المجنون ولن يكون له عذر.

قال الملك الصالح:

ـ نعم، رجلك عبادة لا يخطىء أبداً.

ضحك الآغا شاهين وهو يقول:

ـ إنما هو مجذوب من المجاذيب يا مولاي، مكشوف عنه الحجاب.

فضحك أقطاي لضحكها وقال:

ـ نحن نحتاج إلى أمثاله من المجاذيب كثيراً.

وضحك الأمير فخر الدين وهو يقول:

ـ لو لدينا في بلاد الإفرنج مجموعة من المجاذيب أمثاله لتجنبنا الكثير من الأخطار.

قال الملك الصالح:

ـ عبادة مخلص فيما يفعل يا آغا شاهين..

قال الآغا شاهين:

ـ صدقت يا مولاي فهو لا يطلب أجراً، وإنما هو يرى أجره في بقاء السلام في بلاد المسلمين.. وهو يكره كل منحرف، وأنا لا أعرف منه ما أعرف إلا لأننا معاً في الطريقة..

قال أقطاي في صوت هامس:

ـ هذا سلاح ذو حدين.. وأنا أطئمن إلى من يخدمني بأجر، الذي أعرف أطماعه وأسوقه منها، أما أمثال عبادة هذا فأنا أخشاهم لأنهم لا يحترمون سيداً..

قال الآغا شاهين:

ـ فكره هو سيده يا أمير أقطاي، وهو يعرف أن وجود الإفرنج في أرض المسلمين يفرض عليهم أن يكونوا يداً واحدة، ويفرض عليهم أن يخلصوا صفوفهم، من أصحاب المطامع الصغيرة الذين قد يذهبون بوحدتهم ويفرقون صفوفهم، هؤلاء الذين تغطي أنانيتهم على عيونهم فلا يرون ما يهدد أمتهم كلها بالأخطار، من جراء استسلامهم لمطامعهم الغبية القصيرة النظر...

قال الأمير أقطاي:

ـ مازلت أرى أن أمثالهم أسلحة خطيرة قد تصيب اليوم من حمته أمس

قال الملك الصالح:

ـ لا يمكن أن نعتمد إلى الأبد على من يقبلون اليد التي تطعمهم يا أمير أقطاي، بل لا بد من وجود أصحاب الموقف والفكر.. ولنحمد الله أن هؤلاء لا يشغلهم أمر الحكم وإنما يشغلهم أمر دفع الغزو الصليبي عن البلاد..

ثم ضحك وهو يقول:

ـ إن هؤلاء يا أمير أقطاي هم سندنا الحقيقي داخل البلاد..

قال أقطاي:

ـ لن أطمئن يا مولاي إلا إذا أصبح الصالحية البحرية في كل منصب من مناصب البلاد، وبعد هذا وجد عبادة أم لم يوجد لن أخشى من خطر داخلي يهدد ملكك وعرشك..

قال الملك الصالح:

ـ آخر منصب تركناه لغير الصالحية كان آغا الحسينية، وها نحن ندفع ثمن الوفاء لقوبلاي ولدوره الهام في مستهل حكمي، كل هذه الضجة والإضطراب التي يثيرها في أشد الأوقات حرجاً ودقة..

ضحك أقطاي وهو يقول:

ـ فلنصحح الأخطاء يا مولاي..

مس الملك جواده بيده فانطلق به إلى أمام وهو يقول:

ـ نعم يا أقطاي فلنصحح الأخطاء.. قبل أن تدفننا تحت ركام ما تهدم..

* * *

قالت الشيخة زهيرة:

ـ لقد اكتمل عددنا يا ستات، وأصبحنا عدداً لا يستهان به . . فهيا بنا إلى السراي . .

ولم تعقب واحدة من النسوة المتشحات بالسواد واللاتي تجمعن في صحن الدوار، بل تقدمت امرأتان تقودان الشيخة زهيرة واحدة من يمينها والأخرى من يسارها، ثم بدأت النساء مسيرتهن الثانية ناحية السراي . . وعادت الشيخة زهيرة تقول:

ـ لا تتكلم واحدة منكن بل اتركن الكلام لي عندما نصل إلى باب القصر . .

ولم يكن هناك من يشاهد الموكب الغريب المتشح بالسواد المتجه نحو السراي في خطوات ثابتة وصمت كامل . . ولكن بواب السراي ما أن شاهدهن حتى فتح فاه في ذهول ثم أسرع يغلق الباب، ويهرول إلى جناح الآغا ليخطر شهوه هانم بما رأى . .

* * *

- ٥ -

التفت قبلق إلى طقمق قائلاً في صوت شاحب مرتعش:

ـ هذا ما كنا نخافه فإما أن نقاتل أو نستسلم . .

قال طقمق وهو يجيل النظر في الوجوه الصارمة التي أحاطت بهما وبمجموعة الرجال القليلة الذين وقفوا خلفهم:

ـ لا طاقة لنا على قتال كل هؤلاء.

ضحك المعلم شعبان أبو ضفر وهو يقول:

ـ سلم تسلم يا شلبي.

وقال طقمق:

ـ من أنت؟ . . وبأي حق تأمرنا، أبعد عن الطريق لنمر فنحن من رجال آغا الحسينية . .

قال المعلم شعبان أبو ضفر:

ـ ونحن من أولاد الحسينية نفسها يا شلبي . .

وقال مكادي:

ـ لماذا تسأل يا شلبي، من أنت وبأي حق تسأل . . .

ووجم طقمق واحمر وجهه، ومد قبلق يده يجذبه من ثوبه ليحذره من الإندفاع والغضب، وقال المعلم شعبان:

ـ أسلمونا سلاحكم ولن يحدث لكم شيء.

وقال هريدي:

ـ وستكون في الحفظ والصون حتى نعيدها إليكم مرة أخرى . .

قال قبلق وهو يحاول أن يجعل نبرات صوته هادئة:

ـ ومتى يكون ذلك . .

قال المعلم شعبان أبو ضفر وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

ـ كل شيء بأوانه يا شلبي، كل شيء بأوانه يا ابن آدم وحواء . .

صاح طقمق في اندفاع:

ـ لن نسلم سلاحنا، وسنشق طريقنا وسطكم والويل لمن يقف في طريقنا . .

وتحرك هريدي فوقف إلى جواره بينما تحرك مكادي فوقف إلى جوار قبلق واحتاط الصعايدة والمراكبية والعتالون بالجند والعبيد، وصحك المعلم شعبان أبو ضفر وهو يقول:

ـ يا شلبي نحن نعرف أنك شجاع وقوي، ولكن الكثرة تغلب الشجاعة يا بني ولا ضير عليك إن سلمت سلاحك لمثل هذا العدد الذي يحيط بك، ولن يحسب أحد أبداً أنك سلمته خوفاً أو جبناً . .

وقبل أن يجيب طقمق أو قبلق ارتفعت ضجة من مؤخرة رجال المعلم شعبان الذين أفسحوا في وسطهم طريقاً لأبي سريع وعليوة اللذين كانا يلهثان وقد انهكهما الجري حتى يصلا بسرعة إلى مكان المعلم شعبان وقال المعلم شعبان:

ـ خيراً يا أبا سريع، خيراً يا عليوة.

قال أبو سريع:

ـ أسرع يا معلم شعبان، عثمان رزة يريدك ورجالك في الميدان حالاً.

قال المعلم شعبان:

ـ وهؤلاء؟

قال عليوة:

ـ نحفظ الجميع في نفس المكان الذي وضع فيه الأسطى شلضم زميلهم . .

قال المعلم شعبان وهو يلتفت إلى المملوكين.

ـ أرأيتما لا وقت لدينا للجدل الطويل . . ماذا قلتما . . ؟

قال أبو سريع في اندفاع:

ـ لماذا تسألهما عن رأيهما، ما هما وما كل من معهما، أنتم تستطيعون أكلهم أحياء . .

قال المعلم شعبان أبو ضفر:

ـ هم رجال يا أبا سريع، ونحن لا نعامل الرجال إلا كما نحب أن يعاملونا . .

قال عليوة في مرارة:

ـ وهل عاملوا علاء الدين معاملة الرجال يا معلم . .

امتقع وجه المملوكين حين جاء ذكر علاء الدين، بينما سرت موجة من الهمهمة والقلق في صفوف أتباعهما . . ولكن المعلم شعبان رفع يده وهو يقول:

ـ هذا موضوع آخر يا عليوة . .

ثم مد يده نحو المملوكين قائلاً:

ـ والآن سلاحكما يا شلبية . .

قال قبلق:

ـ أنت وعدت أن تعيد السلاح إلينا حين تطلقوا سراحنا . .

قال المعلم شعبان أبو ضفر:

ـ لقد أعطيتكما كلمتي، وكلمة المعلم شعبان أبو ضفر لا يردها أحد في المحروسة كلها . .

مد قبلق يده بسلاحه إلى المعلم شعبان في صمت، وتناوله المعلم شعبان ليسلمه إلى هريدي، ثم نظر إلى طقمق وهو يمد يده إليه والإبتسامة ما تزال على شفتيه، وتردد طقمق وأجال بصره في الوجوه العابسة حوله، ثم في الوجوه الشاحبة خلفه، ثم عاد ببصره إلى قبلق وهو يقول:

ـ هل جئنا من آخر الدنيا لنسلم سلاحنا لأول من يطلبه منا . . لا هذا لن يكون . .

ورفع الدبوس في يده. . ولكن قبل أن يتحرك كان هريدي قد احتضنه ورفعه في الهواء بينما مد مكادي يده فنزع سلاحه من يده في عنف. . وعبثاً حاول طقمق أن يفلت من حصار ذراعي هريدي الحديدتين، بينما قال المعلم شعبان:

ـ كنت أحب أن أجنبك العنف يا شلبي، ولكن لا بد من شد وثاقك الآن. . ثم التفت إلى قبلق قائلاً:

ـ أما أنت فستسير معنا كريماً كما أنت. .

وبسرعة شد وثاق طقمق الذي حاول أن يفلت من أيديهم عبثاً، ثم ساقوا الجميع أمامهم عائدين إلى الإصطبل. . والمعلم شعبان يقول لمكادي:

ـ أسرع فابحث عن الأسطى وعم داود السروجي لنسلمهما هذه الأمانة الجديدة يضيفانها إلى من عندهما.

قال عليوة:

ـ سأسرع أنا إلى عم أحمد الفوال ليأتي بالشناوي لتضموه إلى هؤلاء. .

قال المعلم شعبان:

ـ أسرع يا عليوة:

ثم التفت إلى هريدي قائلاً:

ـ اختر مجموعة معك لتحرسوا الكل، أما الباقون فيأتون معي إلى الميدان. .

* * *

قالت زينب لشهوة هانم:

ـ لو اطمأن نساء الحسينية عليَّ وعلى الست حفيظة والست نعيمة انصرفن لحالهن.

قالت الست حفيظة وهي تنظر إلى الطعام الموضوع أمامهما:

ـ أنت أكرمتنا يا ست هانم، ورددت الروح فينا لسلامة زينب، وبعنايتك بها وبنا وهذا جميل لا تنساه حرة أبداً..

وقالت الست نعيمة وهي تلتهم إحدى الفطائر على استحياء ولكن في اشتهاء:

ـ الشيخة زهيرة لو اطمأنت علينا، لصرفت كل النساء..

وقالت أم فكيهة وهي تنظر في ضيق إلى الفطائر التي أخذ عددها يتقلص فوق صفحة الطعام:

ـ تخرج الست حفيظة والست نعيمة اليهن فيسكت ثائرهن..

ثم مدت يدها فجأة فتناولت إحدى الفطائر ونظرت حولها إلى من بالحجرة من النساء، ولما لم تجد واحدة تنظر ناحيتها دستها في فمها في نهم وشراهة، بينما قالت شهوة هانم وهي تنتقل ببصرها بين زينب والست حفيظة والست نعيمة:

ـ لقد حدث خطأ وسوء تفاهم ولا بد من إصلاحه، فهذا الذي تفعله نساء الحسينية لا يليق، ماذا يقولون عنا في المحروسة كلها، عندما يعلمون أن نساء الحسينية يخرجن في جموع كاملة إلى السراي، مرة أمس، ومرة اليوم.. لا هذا كثير، كثير جداً، لن نستطيع بعد هذا أن نرفع رأسنا وسط الأغوات أبداً..

قالت زينب:

ـ يا هانم الخطأ ليس خطؤنا منذ البدء، ونحن الذين تحملنا القتل والسجن، واليوم يتحمل رجلان من رجالنا الجلد، واتهمنا بأننا خونة وعملاء وحاقدون. وكلام كثير من هذا الكلام. .

قبل أن ترد شهوة هانم على زينب، تحركت مرجانة إلى وسط الحجرة وقالت في هدوء:

ـ ليس هذا وقت الجدل فيما فات. . إنما الواجب الآن مواجهة ما يحدث وعلاجه بحيث لا يعرف الآغا ما حدث فيفعل كما فعل أول مرة حين اعتقل زينب، وطرد الباقيات بسياط العبيد والجند.

قالت شهوة هانم بسرعة:

ـ ـ صدقت يا مرجانة. . يجب أن نخرج إلى الشيخة زهيرة ومن معها من نساء وندعوهن إلى داخل السراي لتطمئن قلوبهن على سلامة زينب وسلامتكن. .

قالت الست حفيظة:

ـ أنزل إليهن وأدعوهن إلى الدخول لو أعطتني الست هانم الأمان. .

ولكن الست نعيمة تركت ما في يدها من طعام، وهبت واقفة وهي تقول:

ـ لن تأمن واحدة منهم على نفسها داخل السراي بعد الذي حدث أمس أبداً. .

وقالت الست حفيظة:

ـ نخرج ومعنا زينب والهانم إليهن. .

قالت شهوة هانم:

ـ أخشى لو خرجت إليهن أن تصدر من بعضهن ألفاظ تجرحني . .

قالت زينب:

ـ يا هانم، سأخرج أنا إليهن ومعي الست حفيظة والست نعيمة، وأدخلهن السراي، وحين يلقينك سيعرفنك كما عرفتك أنا، وسيأمن على انفسهن وعلى ما جئن من أجله . .

وقالت الست أم فكيهة في استفزاز وقد بدأت تعود إلى طبيعتها . .

ـ وما هذا الذي جئن من أجله يا زينب، إياك أن تظني أنك جئت أنت وهؤلاء النسوة لإملاء شروط على الآغا، أم لإملاء شروط على الآغا.

صاحت مرجانة:

ـ كفي عن هذا يا أم فكيهة فليس هذا وقته.

صاحت وهي تهتز وتلعب شفتيها وحواجبها وجسدها كله.

ـ ألم يضربنني، ألم يقلن على عميلة الآغا وجاسوسته، ألم يقل الآغا فوراً، أم أن كلام النساء يغلب كلام الأغوات . .

صاحت الست حفيظة في اندفاع وعصبية:

ـ كل المصائب جاءتنا منك أنت، ولولا كلامك المسموم هذا ما احتجز الآغا زينب، وما ضربنا الجنود والعبيد، إن لم تسكتي أسكت لك صوتك إلى الأبد.

وقبل أن تخرج الكلمات النارية المتحفزة على لسان أم فكيهة صاحت شهوة هانم:

ـ كفى . . هذه الحكاية أكبر من أن تكون مشاجرة في الحارة . . لا يا ستات الحكاية كبيرة وقد تجر وراءها مشكلات لا نهاية لها . . وقبل كل شيء ينبغي أن تدخل النساء إلى السراي حتى نستطيع أن نتفاهم في كل شيء بهدوء وبالعقل.

قالت زينب:

ـ لا داعي للكلام الكثير هيا بنا إلى خارج السراي، ولتنتظر الهانم في الداخل حتى تدخل النساء . .

وخرجت زينب ومعها الست حفيظة والست نعيمة إلى ساحة القصر حيث فتح لهن البواب الباب ليخرجن إلى جمع النساء المحتشدات خارج سور السراي، وما أن رأتهن النسوة حتى علا صراخهن وضجتهن وصاحت الشيخة زهيرة:

ـ ما الأمر يا ستات؟

وتطوعت أكثر من واحدة تشرح وتؤكد وتحكي كيف أن باب القصر فتح وأن زينب بشحمها ولحمها وكذلك الست حفيظة والست نعيمة قد ظهرن من الباب، وقطع عليهن لغطهن صوت زينب تقول:

ـ أنا بخير وسلامة يا شيخة زهيرة . .

وقالت الست حفيظة:

ـ وأنا والست نعيمة أيضاً بخير وسلامة يا شيخة زهيرة.

قالت الشيخة زهيرة . .

ـ الحمد لله على نعمته، فضل وعدل من الله سبحانه وتعالى . .

وفجأة تعالت الزغاريد من جمع النساء المحتشد، بينما عادت

الشيخة زهيرة تقول:
ـ تعدن معنا يا ست حفيظة..
قالت نعيمة:
ـ بإذن الله يا شيخة زهيرة.. ولكن الهانم تريد أن ترى كل الستات.
صاحت الشيخة زهيرة:
ـ ندخل السراي بأقدامنا مرة أخرى، حد الله بيننا وبين السراي..
قالت الست حفيظة:
ـ ولكننا من الأصل جئنا لنكلم الهانم في موضوع علاء الدين يا شيخة زهيرة..
وقالت زينب:
ـ والست على استعداد الآن لأن تسمع منا، فقد كانت أم فكيهة تدس بيننا وبينها ولكنها الآن ستسمع منا..

ظلت الشيخة زهيرة على ترددها، بينما استخف النساء حولها أنهن سيدخلن السراي.. وسيكلمن الهانم ويرينها، فارتفعت بينهن أصوات تستحث الشيخة زهيرة، بينما بدأت بعضهن في التحرك نحو البوابة المفتوحة، وأحست الشيخة زهيرة بما يحدث حولها، فقالت:
ـ ندخل ونتوكل على الله ـ فلن يحدث لنا إلا ما قدره الله في سابق حكمته..
قالت الست حفيظة وهي تشهد اندفاع النساء:
ـ الهدوء يا ستات الهدوء، ويجب أن تحافظن على الأدب..

وقالت الشيخة زهيرة:

ندخل بكمالنا يا ستات، ونتكلم بكمالنا ونخرج بكمالنا..

قالت زينب:

- سنأخذ حقنا لو استعنا بالصبر..

وقالت الست نعيمة التي تحدثت لأول مرة..

- الهانم ست ولا كل الستات، لو وضعت على الجرح طاب، وليس بيننا وبينها عداوة، إنما نحن نواسطها لتأخذ لنا بحقنا..

قالت الشيخة زهيرة:

- صدقت ياست نعيمة، هيا بنا يابنات الحسينية.

* * *

- كان عليوة يتحرك بخفة القط قافزاً من سطح منزل إلى سطح منزل، ثم يكمن خلف العشش المقامة فوق الأسطح ليتأكد من أن أحداً لم يلمح حركته، ويعود ليقفز على سطح منزل جديد مقترباً من المنازل المواجهة للميدان الكبير.. وفي خفة كاملة كان رجاله من فتوات بولاق يتحركون في اتجاه المنازل التي أخبر أصحابها أن جنود الآغا قد تسللوا إلى أسطحتها منذ ساعات.. وفي نفس الوقت كان سيد الساكت يقود مجموعة أخرى من أولاد الحسينية وفتوات بولاق في الدروب المفضية إلى الميدان..

وحين وصل عليوة الفار إلى السطح الأخير زحف على بطنه بحذر حتى أصبح خلف الجندي الجاثم على حافة السطح ومد يده بسرعة فقبض على فمه بينما كانت يده الأخرى تضع سن الخنجر على رقبته، وارتسمت علامات الذعر على وجه الجندي وترك قوسه وسهامه،

وبسرعة ودرية كاملة أوثق عليوة الفار الجندي وتركه مكانه لينتقل إلى سطح آخر، وعلى كل الأسطح التي أعد فيها لاظ كمينه تكرر ما فعله عليوة الفار، فقد كان رجاله يعرفون ما يجب عمله تماماً، وما هي إلا دقائق حتى كان رجال لاظ آغا قد أصبحوا جميعاً مقيدين مكممين عاجزين عن الحركة أو الصياح. . وفي نفس الوقت كان السيد الساكت يحيط أحد الجنود الكامنين عند مدخل أحد الأزقة المطلة على الميدان بذراعيه يشله عن الحركة بينما يحيط به إثنان من أولاد الحسينية وفتوات بولاق يقيدونه ويكممونه، ويلقونه مكانة بحيث لا يلمحه من يقفون في الميدان، وما كاد عليوة الفار ورجاله ينتهون من الكامنين على الأسطح حتى كان سيد الساكت ومن معه قد انتهوا من الكامنين على مداخل الأزقة والحواري المطلة على الميدان الكبير. . .

وكان حميد الدين يرقب من مكانه عند مستوقد الحمام كل هذا الذي يحدث في صمت. . وإلى جواره يكمن عويس السعران الذي كانت أنفاسه تتلاحق كلما اقترب واحد من أولاد الحسينية من أحد الجنود، ثم يحبس كل نفس في صدره حتى يتم الإنتهاء من أمر الجندي فيطلق زفرة ارتياح طويلة. . وقال حميد الدين في صوت هامس.

ـ وقع الجنود في الكمين الذي أعدوه لنا. .

فأشار عويس السعران له أن يسكت وهو يقول هامساً:

ـ إسمع. .

ومن بعيد ارتفعت أصوات الطبول تدق بانتظام وتقترب مع كل دقة، قال حميد الدين:

ـ موكب الآغا يقترب هل أنت على استعداد؟

قال عويس السعران:

ـ أشعر أن فمي جاف، وأن العرق يملأ رقبتي ومنابت الشعر في رأسي ولكني بعد هذا كله على استعداد، وأنت؟

قال حميد الدين:

ـ إذا كان مثلك وهو من أعد نفسه لحياة الصراع والعراك يقول هذا، فما بالك بي، إن ركبتي ترتجفان وأسناني تصطك ومع هذا فأنا على استعداد. .

قال عويس السعران:

ـ دقات الطبول تقترب فتأهب:

وفي ناحية أخرى من الميدان كان عثمان رزة يجثم بعيداً عن الأنظار، خلف جدار دوار المناديلي، وإلى جواره الشيخ زكي الذي كان لا يفتأ يردد آيات الذكر الحكيم بصوت هامس تعروه رجفة واضحة، وإلى جواره جثم الشيخ أبو المكارم وكريم الدين بأنفاسه اللاهثة من أثر عودته من جرية كل أزقة وحواري الحسينية. .

وقال عثمان رزة في همس وأصوات الطبول تقترب:

ـ أسرع إلى عليوه الفار يا كريم الدين يدخل برجاله من حارة الشهد، أما المعلم شعبان فيدخل من حارة على لوز، والأسطى عقيرب وأولاد الحسينية يدخلون من الفراخة. .

قال الشيخ أبو المكارم:

ـ أنا وتلاميذي ندخل من الوسط يا عثمان رزة.
قال عثمان رزة:
ـ أمرك يا شيخ أبو المكارم، ولكن أحداً منا لن يتحرك إلا بعد أن يتحرك محمود المصارع وكفته البهلوان من معهما.
قال كريم الدين وأصوات الطبول تزداد اقتراباً:
ـ سأسرع لأبلغ رسالتك يا معلم عثمان.
قال عثمان رزة:
ـ قل للأسطى شلضم وعم داود وعم أحمد الفوال ومعهم هريدي ومكادي إلا يتركوا أماكنهم في حراسة الأسرى مهما حدث
ـ مفهوم؟
قال كريم الدين وهو يتسلل مسرعاً:
ـ مفهوم يا معلم..
وتسلل كريم الدين مبتعداً، بينما قال الشيخ أبو المكارم:
ـ سأذهب لأنضم إلى أولادي، ولحظة يتحرك الكل سندخل الميدان ببيارقنا وأعلامنا وكلمة التوحيد على ألسنتنا وليفعل الله ما يشاء..
قال الشيخ زكي:
ـ على بركة الله يا شيخ أبو المكارم.
وانسحب الشيخ أبو المكارم في صمت بينما عاد الشيخ زكي يقول لعثمان رزة:
ـ لهذا اليوم أدخرتك الحسينية يا ولدي..
قال عثمان رزة:

ـ لقد حسبنا حساب كل شيء، ولو جاء بيبرس في الوقت الملائم لأصبح لكل شيء نهايته..

قال الشيخ زكي:

ـ أنا أنتظر من هو أكثر من بيبرس يا ولدي ليصبح لكل شيء شرعيته..

إنتبه عثمان رزة فجأة وقال:

ـ ماذا تعني يا شيخ زكي؟

ابتسم الشيخ زكي وهو يقول:

ـ لا شيء يا عثمان يا ابني، دعنا نلتفت إلى ما نحن فيه الآن، والله يدبر أموره كما يشاء..

وازداد وقع الطبول اقتراباً، وازدادت الأعصاب توفزاً، ولم يجب عثمان رزة وإنما تحرك مسرعاً ليتبادل الإشارات مع المعلم عليوة الفار من ناحية، والمعلم شعبان أبو ضفر من ناحية ثانية، والشيخ أبو المكارم الذي اتخذ موقعه ومعه تلاميذه من ناحية ثالثة..

* * *

قال صيام النجار في صبر نافذ:

ـ يا أسطى رجب يا مناشفي، أبعد عن طريقنا أكرمك الله.

وقال عوض الفران في ضيق:

ـ كلما دخلنا حارة وجدناك أمامنا، هل أنت تسبقنا، أم أنت تتبعنا يا أسطى رجب..

قال الأسطى رجب في مسكنة وذلة:

ـ يا إخوان الحاج محمد أبو الأنوار شل، أتعرفون هذا، شل الحاج محمد أبو الأنوار. .

قال صيام:

ـ ليس في الحسينية كلها واحد لا يعرف أنه شل. .

قال الأسطى رجب في نفس اللهجة الذليلة:

ـ وهو قال لي أنه سيكلم الآغا لأفتح الحمام، ولكنه مرض وشل، ولا أحد يكلم الآغا واليوم الجمعة، والناس جاءت إلى الحسينية من كل مكان، خير وبركة. . وهذا يوم يكسب فيه الحمام كما لا يكسب كل الأسبوع. . ولكن الحاج محمد أبو الأنوار مشلول ولا أحد يكلم الآغا، ولا بد أن أفتح الحمام. . ولكني أخاف أن أفتح الحمام فأغضب الآغا. . والآن يا جماعة من يخبرني بالصواب، هل أفتح الحمام أم أغلقه؟

قال صيام النجار وهو يتمالك نفسه بصعوبة بالغة:

ـ يا أسطى رجب، اليوم انقضى والناس صلت الجمعة، ولم يعد أحد يحتاج إلى الحمام.

وقال عوض الفران:

ـ أتركنا في حالنا أكرمك الله.

ولكن الأسطى رجب المناشفي نظر إليهما نظرة باهتة وكأنه لا يراهما ولا يسمعها، وعاد يقول في إصرار حزين تعس:

ـ لا يريد أحد أن يقول لي هل أفتح الحمام ام اغلقه.

صاح صيام في عنف وقسوة.

ـ يا أسطى رجب يا مناشفي أستيقظ لنفسك، حتى لو فتحت الحمام الآن من سيدخله؟

وقال عوض الفران وهو يمسك بذراع صيام:

ـ هيا بنا يا صيام فهذا الرجل اصبح يخلط في كلامه.

قال رجب المناشفي:

ـ ياجماعة الحاج محمد أبو الأنوار قال لي..

وفجأة ارتفع دوي الطبول من بعيد، فصاح عوض الفران.

ـ هل تسمع ما أسمع؟

ـ قال صيام النجار:

ـ نعم.. طبول موكب العقاب للأسطى عقيرب والحاج يحي الشماع.

قال صيام في انفعال:

لست أقصد هذه الطبول يا عوض.. أسمع.. إسمع..

وساد الصمت بينهما برهة.. اندفع فيها الأسطى رجب المناشفي قائلاً:

ـ إسمع يا رجب يا مناشفي أنا سأقابل الآغا، وغداً تفتح الحمام، وكان هذا الكلام من أول الأمس أو لعله اليوم الذي سبقه أو...

صاح صيام وصوته يكاد يبلغ حد الصراخ:

ـ أصمت..أسمعت يا عوض.. هذا نداء عبادة، أنه يقول وحدوه وحدوه.. نظر عوض إلى وجه صيام المحتقن في دهشة وذهول، وأطرق بأذنيه فإذا به لا يسمع سوى صوت الطبول تقترب

وتقترب، وعاد صيام يقول:

ـ إسمع.. بم.. بم.. وحدوه.. بم بم وحدوه.. بم بم وحدوه..

صاح عوض وهو يهز جسد صيام كله ويدفعه بسرعة إلى أمام:

ـ لا أنت ستجن، هيا أسرع معي بسرعة نلحق بهذا الموكب لترى بنفسك أنها الطبول، والطبول فقط.. أسرع بنا أسرع.

ومضى يدفعه في الطريق وقد ازداد احمرار وجه صيام، وبدت في عينيه نظرة ذاهلة.. بينما قال رجب المناشفي وهو يدق كفاً بكف:

ـ هل يصدق أحد هذا الكلام.. شباب هذه الأيام حمقى لا يفهمون شيئاً. الحاج محمد أبو الأنوار، قال لي بنفسه، وما دام الحاج محمد أبو الأنوار هو قد قال فكلامه الكلام المظبوط وعلى هذا لا بد أن أفتح الحمام.. نعم لا بد من أن أفتح الحمام وسأذهب الآن لأفتح الحمام..

* * *

ـ ٦ ـ

دخل قوبلاي آغا إلى الميدان الواسع الخالي من الحياة تماماً.. وأسرع لاظ آغا يصف عساكره والعبيد في نصف دائرة بينما أمر الجلادين بحمل العروستين إلى ما تحت الشجرة التي تقف وحيدة في وسط الميدان وإلى جوارها حوض السقاء الذي يملأ لشرب الخيل والحمير بصورة منتظمة، ووقف المنادي وقارعوا الطبول في الناحية الأخرى من الشجرة، بينما سيق المذنبين بعد إنزالهما من فوق البغل ليقفا إلى جوار العروستين وقد قيدت أيديهما خلف ظهريهما.. وظل

قوبلاي آغا ولاظ آغا والمماليك على ظهور الخيل يتوسطون الميدان، ويواجهون الشجرة والمذنبين الواقفين تحتها.. وخلع الجلادون سترتيهما ووقفا وقد ظهرت عضلات ظهريهما وسواعدهم المفتولة وفي أيديهما سوطين طويلين يحركانهما حركات سريعة ليحكما القبضة الملائمة عليهما..

بينما تقدم المنادي ليقف أمام الشيخ يحيي الشماع والأسطى عقيرب ويصيح في صوته الجهوري:

ـ يا أهالي الحسينية، بأمر مولاي آغا الحسينية سيدي قوبلاي آغا دام وعز سلطانه، وارتفع في الدنيا مقامه يجلد كل واحد من الخائنين الحاقدين عملاء الفرنجة عشرين جلدة على رؤوس الأشهاد، ليأخذ كل خائن جزاءه، وليتعظ من في قلبه جبن الخيانة وكفرها، وليحق أمر الشرع والسلطان الملك العادل الصالح أيوب، المظفر على كل الأعداء والخونة والحاقدين والآن حانت الساعة وجاء وقت القصاص، فاشهدوا يا أبناء الحسينية عدل مولانا الآغا، آغا الحسينية المعظم وهو ينفذ في هذين المذنبين جزاءاً وفاقا بما صنعت أيديهما، ولينقل من شهد هذا منكم إلى من غاب، حكمة الآغا وعدله..

ثم طوى الورقة الطويلة التي كان يقرأ منها وتراجع ليقف إلى جوار حاملي الطبول وأخذ يدق طبلته، والآخرون يدقون طبولهم مع دقته.. وفي مدخل حارة الشهد أمسك عوض بيد صيام حتى لا يندفع إلى الميدان وقال له هامساً:

ـ أرأيت، ليس سوى الطبول وأصوات الطبول فقط.

وهمس صيام، وما زالت النظرة الذاهلة تملأ عينيه:

ـ ولكني أسمعه.. أسمعه بأذني.. كيف لا تسمعه مثلي هذه المرة يا عوض..

ضغط عوض على ذراع صيام وهو يقول:

ـ اصمت وإلا سمعك من في الميدان فلا تحمد العقبى..

وجاءهما صوت قوبلاي آغا عالياً آمراً متغطرساً وهو يصيح في المدنيين المقيدين:

ـ سمعتما ما قاله المنادي، وحالاً سينفذ أمرنا فيكم.

وكان الرجلان صامتين ينظران إليه بعيون لا تعبير فيها ولا خوف ولا أمل أيضاً، وضايقه هذا، ضايقه أن أحداً من أولاد الحسينية لم يشهد الموكب على طول الطريق من السراي إلى الميدان، وإن أحداً من أولاد الحسينية لم يظهر في الميدان ليشهد العقاب الذي أراده لهذين الرجلين، بل للحسينية كلها، وتذكر وجه زينب المتقلص بالألم أثر وقع كفه على وجهها، وأحس بالرغبة تملأ جسده كله، هذه البنت لو عاد إليها لاستطاع أن ينسى كل شيء ولكنها مهر حرون لا تعطي أبداً إلا الصراخ واللكمات والضربات.. ابتسم قوبلاي آغا لنفسه ابتسامة لزجة وهو يتصور ماذا يمكن أن يحدث لو اجهدت البنت، واستنفذت نفسها صراخاً وضرباً ولكماً، ثم انهارت بين ذراعيه وأحس بنفسه يضحك، فتلفت حوله ليجد لاظ آغا ينظر إليه وفي عينيه نظرة دهشة واستفسار، فاستجمع نفسه.. وأمسك بسرج جواده يمنعه عن الحركة وهو يواجه الرجلين المقيدين تحت الشجرة ويقول:

ـ هل لديكما ما تدفعان به عن نفسيكما قبل تنفيذ الحكم:

وشد اللجام ولكز الحصان بكعب حذائه، فرقص الحصان واهتز، وتقدم قليلاً إلى الأمام يهتز، ثم تراجع إلى الوراء وهو يهتز، ونسي الآغا كل إحباطات هذا اليوم المشؤوم وهو يركز نظره على الرجلين البائسين المقيدين أمامه، وكل منهما يقف مرتجف الأوصال أمام العروسة التي سيقيد إليها بعد قليل، وإلى جوارها الجلاد بعضلاته المفتولة والسوط يدور في يده.. وصاح:

ـ تحدثا، ألا يريد أحدكما أن يقول شيئاً؟

تحرك الشيخ يحي الشماع من مكانه وتقدم قليلاً، ثم رفع رأسه إلى الآغا وقال:

ـ أنت رجل ظالم، وعلم الله أنك أيضاً رجل كاذب.

وصمت لحظات وسط حنق الآغا وضيقه، ثم قال.

ـ ألا تتق بالله يا رجل؟ أنت تعلم أن كل التهم التي تقولها كاذبة، وستقابل يوماً من لا ينفع كذبك معه..

وصاح الأسطى عقيرب:

ـ نحن لا نخشى بأسك ولا جلادك، وأعلم أن يوم الحساب قريب.

صاح الآغا، ثم اندفع بجواده ناحية الرجلين، ولطم كل منهما وهو يميل فوق صهوة جواده لطمة قوية فوق وجهه بسوطه القصير، ثم دار بالميدان وجواده يتراقص ثم عاد ليقف أمام المذنبين وعلى رأس رجاله ورفع يده بالسوط إيذاناً ببدء تنفيذ العقاب..

وتقدم الجلادان أحدهما ناحية الشيخ يحيي الشماع والثاني ناحية

الأسطى عقيرب وبحركة سريعة مد كل منهما يده فنزعا سترة الإثنين، ثم أمسك كل واحد منهما بكتاف أحدهما ليربطه عارياً إلى العروسة . . ولم ينطق الرجال بكلمة . . وساد الصمت الميدان الكبير كله، حتى الخيل كفت عن الحركة أو الصوت . . وأحس قوبلاي آغا بوقع الصمت حوله فتلفت ذات اليمين وذات اليسار في قلق، والتقت عيناه بعيني لاظ آغا فهز كتفيه في استسلام يائس وهو يقول:

ـ نحن وحدنا في الميدان يا آغا، ولن يحضر أحد من أولاد الحسينية تنفيذ العقاب . .

قال قوبلاي آغا في مرارة:

ـ أعرف هذا، شيء ما حدث جعلهم يتمردون على إرادتي ويعلنون هذا التمرد بغيابهم عن مشاهدة الموكب منذ خروجه م السراي، وبغيابهم الآن عن مشاهدة تنفيذ العقاب.

وكان الجلادان خلال هذا الحديث قد أحكما وثاق الرجلين إلى العروستين ووقف كل منهما على رأس واحد من الإثنين، وتقدم المنادي إلى أمام وهو يصيح:

ـ العقاب ينفذ الآن في المذنبين على رؤوس الأشهاد، وليعلم الحاضر الغائب وكل منهما يجلد عشرون جلدة بأمر آغا الحسينية المعظم، مولاي قوبلاي آغا.

وتراجع الجلادان إلى الوراء وفي أيديهما السوطين الطويلين يحدثان في الهواء لحناً مخيفاً وهما يدوران بهما دورات ممتالية وعيناهما

متعلقتان بشفتي قوبلاي آغا في انتظار أمره ببدء عملية الجلد، وقال لاظ آغا في محاولة يائسة أخيرة:

- يا مولاي الآغا في يدك العفو، فلو عفوت عنهما الآن لحملا لك هذا الجميل إلى آخر العمر، ولحمله أيضاً كل أولاد الحسينية.

صاح قوبلاي آغا في غضب:

- هل تريدني أن أتراجع عن أمر قررته، بل سينفذ العقاب..

قال لاظ آغا:

- إذن نؤجله ليوم آخر، نسبقه بالمنادين يعلنون الجميع أن يحضروا بالأمر إلى هذا الميدان ثم.

صاح قوبلاي آغا في غضب:

- كفى هذا العقاب سينفذ الآن حضره أولاد الحسينية أو لم يحضروه.

ثم التفت إلى الجلادين ليصدر إليهما أمره، حين ارتفع فجأة صوت مزق السكون وهو يصيح:

- جاء الوقت.. الوقت لصاحب الوقت، يا جعيدي النار حامية يا جعيدي الوقت لصاحب الوقت يا جعيدي.. جاء الوقت.

ولا يدري أحد من أين ظهر عبادة، فقط رأوه جميعاً يقف مصلوباً خلف الشجرة وذراعه مرفوعة إلى السماء في يده عصاته تمتد مع امتداد يده، وعيناه لا تنظران إليهم وإنما تنظران إلى السماء فوقهما، وعاد يصيح:

- مدد يا أم الأنوار مدد.. مدد يا رفاعي مدد، جاء الوقت يا جعيدي، جاء الوقت..

وهمس الشيخ يحي الشماع من مكانه فوق العروسة.
ـ من إين جاءعبادة يا أسطى عقيرب؟
قال الأسطى عقيرب:
ـ الله وحده يعرف يا شيخ يحي .
ثم جاء صوت عباده في كلمته الممطوطة الحزينة الأسيانة:
ـ وحدوه.
صاح قوبلاي آغا وهو يهمز جواده بكعبه:
ـ الطبول أغرقوا صوته في الطبول.
ثم اندفع ناحية عبادة الذي صاح من جديد:
ـ وحدوه. ثم قفز فإذا به خارج الميدان لا يدركه جواد الآغا، الذي وصل إلى حيث كان يقف عبادة ثم توقف حائراً:
وعند مدخل حارة الشهد قال صيام في اندفاع:
ـ أسمعت يا عوض يا فران. . دم، دم، دم وحدوه، دم، دم، دم، وحدوه ألم أقل لك؟
همس عوض الفران في صوته ارتعاشة خوف واضحة:
ـ نعم سمعت يا صيام. . سمعت، وصدقتك. . سمعت الآن بأذني.
وصاح قوبلاي آغا في غضب وهو يعود بجواده إلى مكانه من الميدان. .
ـ هذه الآعيب حواة. . لو ظهر هذا الرجل مرة أخرى أرموه بالنبال، والآن يأخذ المذنبان جزاءهما، أيها الجلادان:
ورفع كل من الجلادين سوطه في يده، ولكن قبل أن يكمل

قوبلاي آغا أمره انفجر الميدان فجأة بالحركة السريعة المذهلة فمن فوق الشجرة قفز كفتة البهلوان في زيه الذي اعتاد الناس أن يشاهدوه به وهو يقوم بألعابه في الرميلة، وحملته قفزته القوية تجاه واحد من الجلادين فهبط على صدره بقدميه وسقط الجلاد الذاهل وقد طار السوط من يده، بينما قفز كفتة إلى الأرض بذراعيه ليرتد واقفاً أمام الجلاد الثاني الفاغر الفم في دهشة فحمله من حزامه رافعاً إياه، ودار به في الهواء دورات ثم قذف به الجلاد الأول الذي كان قد بدأ يستعيد نفسه الذاهلة، ويحاول الوقوف على قدميه فعادت به هذه الرمية هو وزميله إلى الأرض مرة أخرى، وقبل أن يفتح قوبلاي آغا فمه مصدراً أوامره بالهجوم قفز محمود المصارع من وسط حوض الماء المبني إلى جوار الشجرة واندفع ناحية حصان الآغا فأمسكه من لجامه بيد، بينما امتدت يده الأخرى بسرعة تجذب قوبلاي من فوق سرج جواده، وفي نفس الوقت اندفع عويس السعران وحميد الدين ناحية لاظ آغا، الذي دار بحصانه وهو يتلفت بعينيه إلى أسطح المنازل المحيطة بالميدان ويصيح:

ـ أصربوا بالنبال ـ اضربوا بالنبال.

وبدلاً من النبال التي توقعها لاظ آغا، اندفع جمع من أولاد الحسينية والصعايدة قافزين من فوق الأسطح ومن فتحات الحواري ومن النوافذ المطلة على الميدان، بينما ارتفع صوت الشيخ أبو المكارم صائحاً:

ـ الله أكبر. . الله ينصر جنده. . الله يهزم الطاغوت.

واندفع من يمين الميدان جمع من الملتحين يحملون البيارق

والأعلام، بينما اندفع من الناحية الأخرى عليوة الفار ورجاله ووثب عثمان رزة إلى وسط الميدان الذي تحول إلى ساحة حرب حقيقية يمتلىء بصهيل الخيل وصيحات الرجال وأصوات ارتطام الأسلحة بأجساد الرجال . .

لم يستطع عويس السعران وحميد الدين أن يصلا إلى لاظ آغا الذي تحرك بجواده فجأة يحاول أن ينظم صفوف الجند والعبيد وأن يشارك في المعركة بدبوسه الذي حمله في يده ومضى يضرب به هنا وهناك وهو يصيح، ويصدر الأوامر ويواجه صرخات الجند، ويتلفت حوله بحثاً عن قوبلاي آغا الذي غطت مكانه ومكان محمود المصارع غبرة أثارتها حوافر الجياد وتدافع الأقدام وصاح المعلم شعبان أبو ضفر:

ـ اهجموا يا أولاد الحسينية، أذيقوهم طعم سواعدكم وعصيكم . .

واشترك الجميع في المعركة الدائرة في وسط الميدان، وجرف الحماس الجميع . . وأخذ صيام يضرب جندياً يهاجم بكل قوته، وإلى جواره عوض الفران يلتقط عصاً سقطت من يد أحد الرجال ليضرب بها، والصيحات تتعالى، وبدأت الدماء تسيل وصرخات الألم تشارك صيحات الحماس والغضب . . واندفع لاظ آغا بجواده ناحية الآغا قوبلاي يشق طريقه بدبوسه وسط الجموع التي احتشدت حوله، ولكنه لم يستطع أن يصل إليه، وشاهده ومحمود المصارع يحمله بين ذراعيه كالطفل الصغير ويسرع به ناحية حارة الشهد، وحاول أن يدفع بجواده ليصل إليه ولكن الشماريخ التي

انتصبت أمامه كادت تحطم ضلوع جواده فدار بالجواد وهو يصرخ فيمن حوله من المماليك والجند والعبيد:

ـ إلى السراي.. إلى السراي.

وعادت الجموع تطبق عليهم من جديد، بينما أسرع حميد الدين وعويس السعران يفكان قيود الشيخ يحي الشماع والأسطى عقيرب، وبينما أمسك كفته البهلوان بأحد الجلادين يسوقه أمامه، أمسك المعلم شعبان أبو ضفر بالجلاد الثاني يحمله بعيداً عن الميدان.. وحاول المنادي وحاملوا الطبول الهرب ولكن عليوة الفار ورجاله أحاطوا بهم يمنعونهم من الحركة وخاض لاظ آغا ومن تبقى معه من المماليك الراكبين حوله معركة حامية حتى استطاع أن يتقهقر حامياً الراجلين من جنده وعبيده إلى باب السراي. وهناك دارت معركة استعملت فيها كل أنواع الأسلحة من النبال إلى الطوب، ومن اللتوت والدبابيس إلى الشماريخ والعصي، وبينما كان لاظ آغا وجنوده يدافعون عن الباب الرئيسي للسراي، ارتفعت صرخة البواب عن الباب الجانبي حين إقتحمه عثمان رزة على رأس مجموعة ضخمة من أولاد الحسينية الذين اندفعوا يملؤون الساحة الداخلية للقصر يهاجمون أبواب البناية الرئيسية للقصر والتي أغلقها العبيد بسرعة ووقفوا خلفها يرتجفون خوفاً ورعباً.. وتحت ضغط المهاجمين اضطر لاظ آغا ومن معه إلى ترك البوابة والساحة كلها والإلتجاء إلى مبنى السراي الرئيسي نفسه.. وصاح لاظ آغا فيمن حوله من مماليك وجنود وعبيد:

ـ أوقفوهم عند الأبواب، واصعدوا إلى السطح، وامطروهم

بالسهام، ولا تتركوا أحداً يمر إلا على جثثكم، فنحن الآن نحمي شهوة هانم نفسها..

وتدافع المهاجمون نحو أبواب القصر، وصاح الشيخ زكي:

ـ اكسروا الأبواب، هاتوا عروق الخشب من المغلق واكسروا الأبواب..

وفجأة ووسط الضجة ظهرت زينب على الباب الداخلي للقصر وهي ترفع ساعديها وتصيح:

ـ كفى يا أولاد الحسينية كفى..

وساد فجأة صمت كامل.. وظهرت إلى جوار زينب الشيخة زهيرة تقودها الست حفيظة والست نعيمة، ثم ظهر خلفهم مجموعة من نساء الحسينية تتوسطهن أم فكيهة وأم سلامة.. وكف أولاد الحسينية عن الهجوم على القصر، وكف رجال لاظ آغا عن رمي النبال....

وساد الصمت.. وفجأة ارتفع صوت الشيخ أبو المكارم صائحاً:

ـ لا بد من دك معقل الظلم والقضاء على قصر الفساد.

وبسرعة صاحت زينب قبل أن تحدث كلمات الشيخ أبو المكارم فعلها فيمن حولها:

ـ ليس في القصر إلا العبيد والحريم... هل تحاربون العبيد والحريم يا أولاد الحسينية..؟

وصاح عثمان رزة:

ـ كفى، لا يتقدم أحد.. أوقفوا القتال.

وعادت زينب تصيح وقد تبعثر شعرها، وتألقت عيناها وانتصب جسدها في حدة وعنف:

ـ هل يحارب أولاد الحسينية الصبية والحريم، قولوا لي أولاً قبل أن يرفع أحدكم يده ضد السراي.. هل تعودنا أن نحارب العبيد والحريم.

تقدم الشيخ زكي وسط الصفوف المتراصة حول المبنى الداخلي للسراي حتى أصبح يقف أمام زينب وقال في صوته الهادىء الوقور:

ـ كفى يا أولاد الحسينية، نسمع ما تريد زينب أن تقوله.

قالت زينب:

ـ لو دخلتم السراي يا مولاي الشيخ لحطمتم وكسرتم، وليس أمامكم إلا النساء والعبيد فهل فيكم من يقهر النساء والعبيد؟

قال الشيخ زكي:

ـ لا يا زينب نحن لا نحارب العبيد والنساء، ولكن الآغا لاظ قائد الحرس معه من المماليك والجند والعبيد المسلحين من يمنعون سيطرتنا على كل شيء في الحسينية، ونحن قد سيطرنا على كل مكان إلا هذا المكان الذي يدافع عنه الآغا لاظ ومماليكه وجنوده وعبيده:

قالت زينب:

ـ الآغا لاظ لا يملك هذا المكان، وإنما الذي يملكه هي الهانم، والهانم لم تحاربكم.

وتقدمت الشيخة زهيرة تقودها الست حفيظة لتواجه الرجال المحتشدين، فهدأت الأصوات وسكت اللغط تماماً. وقالت في صوتها الهادىء الوقور:

ـ لم نعد في حاجة لان نطلب من أحد شيئاً، فالشيخ الشماع والأسطى عقيرب قد أصبحوا أحراراً. . وقاتل علاء الدين قد أصبح في أيديكم. .

وكذلك الحي كله والآغا نفسه، فلماذا تريدون اقتحام السراي؟

وسط السكون الذي ساد الساحة، قال الشيخ زكي:

ـ السراي هي رمز نفوذ قوبلاي آغا، وبغير دخولنا إياها لا يمثل كل ما فعلناه شيئاً يا شيخة زهيرة. .

وفجأة اندفع وسط النساء المحتشدات عند مدخل الباب الرئيسي لمبنى السراي نفسها، جسد أبيض متشح بالسواد، وظهرت أمام الجميع شهوة هانم، معقوصة الشعر، ناصعة بياض الوجه، سوداء الشعر والملبس وتقدمت وسط النسوة كأنها واحدة منهن، ثم صاحت في الرجال الذين يواجهونها:

ـ أين الآغا، أين قوبلاي، ماذا فعلتم به؟

كان وجهها الأبيض المنور وسط سواد شعرها، وسواد ثوبها، شيئاً ملائكياً مشرقاً أسكت أصوات الرجال، وجعلهم يتطلعون إليها في صمت ذاهل لا يقوى على جواب أو حديث. . وتقدمت زينب من ورائها لتقف إلى جوارها ولتصيح بدورها:

ـ لم يظهر الآغا وسط الرجال العائدين للسراي. . أين الآغا؟

تقدم عثمان رزة وسط الرجال الذين أفسحوا له مكاناً في صدارتهم، وقال:

ـ الآغا أسيرنا.

صاحت شهوة هانم وهي تلطم خديها وتصرخ.

ـ قوبلاي أسير، لا. . أنتم قتلتم قوبلاي. . أين قوبلاي.

وأمسكت بها الست حفيظة من ناحية، بينما أمسكت بها الست نعيمة من ناحية أخرى وخرجت من وسط مجموع النساء المتحلقات في صدر القاعة، الست أم فكيهة التي التفتت إلى الرجال صائحة:

ـ أين رجلها. . هل قتلتم رجلها. . لا كان وجودكم ولا كنتم. . لو حسرتموها في سلامة رجلها. .

صاح الشيخ زكي:

ـ كفى عبث نسوة. . الآغا سالم وهو معنا. . ولا معنى لكل هذا الكلام. . على لاظ آغا أن يسلمنا السراي، والآن، وكل من فيها آمن. . ورجاله آمنون والهانم آمنة، والصبية والنساء والمال كلهم في الأمان.

وكانت شهوة هانم تبكي، وكانت زينب تحتضنها في صدرها وإلى جانبها الست حفيظة من ناحية والست نعيمة من ناحية، بينما كانت الست أم فكيهة تتحرك حول الجميع وتقدمت الست أم سلامة لتقف إلى جوار شهوة هانم وتقول وهي تلف رداءها حول جسدها:

ـ لا أحد يقترب من الهانم هي في حماي وفي حمانا كلها، وفي حمى كل امرأة في الحسينية، هي حمت عرض زينب وكرامة حفيظة ونعيمة، ومن اقترب منها يعتدي على حما كل حرمه في الحسينية، ماذا قلتم يا من تظنون أنفسكم أبطالاً لأنكم قهرتم الآغا والشلبية والجند والعبيد.

وتراجع الرجال خطوات إلى الوراء. . ولم يجبها أحد. . بينما كانت شهوة هانم تصيح:

ـ أين الآغا؟ . . . ماذا فعلتم بقوبلاي؟ . . أين قوبلاي؟ . .

وتلفت الرجال في حيرة . . كل ينظر إلى وجه الآخر في صمت ثم يرخي عينيه في قلق، وتقدم عثمان رزة ليقول في هدوء:

ـ هو أسيرنا كما كان يحي الشماع والأسطى عقيرب أسرى له . .

صاحت شهوة هانم:

ـ ولكنه الآغا:

قال عثمان رزة:

ـ والآغا رجل يخطىء ويصيب . . وحين يخطىء عليه أن يتحمل نتيجة خطئه مثله مثل باقي الرجال. .

وقبل أن تجيبه شهوة هانم، ارتفع من الصفوف الخلفية للجمع المحتشد صوت يصيح:

ـ الشلبية . . الشلبية .

وكان الصوت خائفاً مذعوراً، وانشقت الجموع في هرولة، وبدأ الرجال يتصايحون في اضطراب، وارتفع صوت الشيخ زكي صائحاً:

ـ اثبتوا واهدأوا . . وليبقى كل في مكانه.

ومن وسط الجموع التي أفسحت مكاناً للمتقدمين، برزت الخيول المطهمة تحمل المماليك شاكي السلاح وهم يتقدمون وسط الجموع في بطء . .

ـ هذه نجدة جاءت للآغا، لا بد أنه نجح في إرسال استغاثة خارج الحسينية

قال المعلم شعبان أبو ضفر:

ـ هذا مستحيل فنحن نراقب كل المداخل منذ الأمس. .

صاحت شهوة هانم:

ـ إلي يا أمراء، إلي، لقد أسروا الآغا وضربوا الجنود.

صاحت الست أم فكيهة:

ـ يا هانم، أحالاً تغيرين موقفك، ما هذا الكلام، نحن معك نحميك ولست في حاجة إلى هؤلاء الشلبية. .

ووسط الوجوم والصمت الذي لم يكن يقطعه إلا وقع سنابك الخيل فوق الأرض، والموكب يتقدم في بطء ارتفع صوت عثمان رزة صائحاً:

ـ لا تقلقوا، هؤلاء معنا لا ضدنا، هذا هو الأمير نجم الدين البندقداري، وخرجت من الجمع كله زفرة ارتياح، بينما عاد من أسرعوا بالتواري بعيداً عن العيون إلى الإلتحام بالجمع من جديد. . وتوقف الموكب أمام باب المبنى الرئيسي حيث وقفت النساء يواجهن الجمع المحتشد، وترجل نجم الدين وبيبرس من فوق جواديهما بينما ظل الباقون فوق الجياد يرقبون الجمع في صمت. . وتقدم نجم الدين وبيبرس إلى حيث وقفت شهوة هانم، وانحنى كلاهما أمامها، وقال البندقداري:

ـ يا هانم نحن في خدمتك دائماً. .

ونظرت إليه شهوة هانم وقد اتسعت عيناها، وظهرت الدهشة على ملامحها ولم تتكلم بينما ارتفع صوت الشيخة زهيرة الهادىء الوقور وهي تقول:

ـ أيها القادم إلى حينا، أن كنت جئت بالسلام والرحمة فمرحباً

بك، وإن كنت تجيء بالعداوة والعدوان، فاذهب بعداوتك وعدوانك . .

وصاح عليوة الفار من وسط الجموع المحتشدة أمام الباب:

ـ يا آغا، نحن نحيط بكل من جئت بهم من رجال، فإن أقبلت بالسلم والأخوة فمرحباً بك كما قالت الشيخة زهيرة، وإن كانت الأخرى فنحن لك.

قبل أن يرد البندقداري على هذا الصوت المستفز صاح عثمان رزة:

ـ لا داعي لكل هذا الكلام فالآغا معنا وليس ضدنا.

وقال الشيخ زكي الذي تقدم ليعود إلى مكان الصدارة في الجمع:

ـ لقد وعدنا عثمان رزة أن يؤيدنا الأمير نجم الدين إذا انتصر لحقنا، وها هو يفي بوعده فهذا نصر جديد من عند الله لقضيتنا وحقنا.

تقدم المعلم شعبان أبو ضفر، وحوله هريدي ومكادي إلى الأمام، ووقف أمام عثمان رزة والشيخ زكي وقال:

ـ لم نسمع من الآغا نفسه، ولا من الأمير بيبرس، نريد أن نسمع منهما قبل أن نعرف أهما معنا أم جاءا لنصرة من أراد إذلال الحسينية كلها.

رفع البندقداري يده فصمت الجميع، وتوجه إليهم بوجهه وحديثه قائلاً:

ـ نحن أصدقاء عثمان رزة، فنحن أصدقاؤكم، ورغم أن الشيخ زكي هنا لم يوجه لنا الدعوة للحضور.. إلا أنه استعان

بعثمان، ومن استعان بعثمان فقد استعان ببيبرس، وبيبرس رجلي الأول ولا أخذله في أمر أبداً . . . وقد صمم بيبرس على الحضور لنصرة صديقه عثمان رزة وأولاد الحسينية أصله وعشيرته ضد ظلم الآغا قوبلاي، وهكذا جئت معه.

صاحت شهوة هانم في أسى:

ـ إذن فأنت تقر يا آغا ما فعله هؤلاء الـ . . الـ . . المتمردون، تقر أن يأسروا الأمراء ويحاربوا الجنود وأن يعتدوا حتى على الآغا، والآن هم يعتدون على حرمة السراي نفسها.

انحنى لها البندقداري في أدب وهو يقول:

ـ هذا الأمر ليس من شأني أن أبت فيه يا هانم، فهم رعايا الملك الصالح أيوب، وهو وحده القادر على الحكم عما فعلوه مع الآغا الذي عينه لهم هنا في هذا الحي.

استمرت شهوة هانم في صياحها وقد تجهم وجهها ولمعت الدموع في عينيها.

ـ تعني أنك تساند أهل الحسينية ضد الآغا قوبلاي، وتزعم أنك آغا من أمراء الملك . .

قال البندقداري في هدوء:

ـ أنا لا أساند إلا الحق والعدل يا هانم . .

تعالت صيحات من كل مكان فأغرقت كلمات شهوة هانم، وكان المعلم شعبان أبو ضفر يقول:

ـ في الدنيا عدل يا ناس . . في الدنيا عدل يا ناس . .

بينما صاح عويس السعران:

ـ عاش البندقداري وعاش بيبرس.

وصاح إلى جواره كريم الدين:

ـ وعاش عثمان رزة ابن الحسينية.

ورفع النبد قداري يده ليصمت الجميع، ثم قال:

ـ لا يمكن أن نحقق أي هدف من تجمعنا هنا كلنا، احضروا من أسرتم وليحضر الزعماء منكم معي إلى قاعة السراي حيث نجلس ونبحث الأمر.

تقدم الشيخ زكي حتى واجه البندقداري وقال:

ـ يا آغا، أنت تعطي لنفسك من السلطان ما ليس لك، عد بجنودك من حيث جئت مشكوراً، فقد انتهى الأمر هنا ولم نعد نحتاج إلى مساعدة..

أربد وجه البندقداري، وفقد هدوءه وصاح:

ـ بأي حق تأمرني يا شيخ.

قال الشيخ زكي في هدوء.

ـ وبأي حق تأمر أنت فينا وتنهي يا أمير، هذا الأمر في يدنا نحن، ونحن نحتكم فيه إلى الملك الصالح أيوب، والملك الصالح أيوب وحده.

تعالت الهتافات والصيحات مؤيدة حديث الشيخ زكي، بينما تلفت البندقداري حوله ليجد نفسه ومماليكه قد أصبحوا مركز دائرة من الوجوه العابسة التي اختفى منها الخوف وظهرت عليها إمارات التصميم والعزم.. فهمس لبيبرس الذي كان يقف إلى جواره:

ـ هل هؤلاء أتباع عثمان حقاً.

قال بيبرس وهو يبتسم:

ـ هؤلاء ليسوا أتباع أحد، وعثمان واحد منهم.

ثم صاح وهو يواجه الجمع المحتشد:

ـ أنا بيبرس صديق عثمان يا أولاد الحسينية، وأنا وهو أخوة، فإذا كان هو منكم، فهل تقبلوني أيضاً منكم.

صاح عثمان رزة:

ـ بل أنت أكثر من أخ لي يا بيبرس، ومن أحبني فقد أحبك، ومن قبلني فقد قبلك.

قال الشيخ زكي:

ـ صدقت يا عثمان.

ثم التفت إلى بيبرس قائلاً:

ـ ليس في كلامي للآغا البندقداري ما ينقص من قدره يا أمير بيبرس، ولكن هذا الأمر بيننا وبين الآغا قوبلاي، ولا نقبل فيه حكماً إلا السلطان الملك الصالح نفسه، ونحن نعرف قدرك وقدره ولكن هذا أمر حياة الناس وأمنهم يا أمير. .

قال بيبرس:

ـ صدقت يا مولانا الشيخ، ولكن الأمير البندقداري من المقربين للملك الصالح ونحن من مماليكه البحرية الصالحية، ولنا بهذه الصفة ما يعطينا الحق في إبراء ذمة الملك الصالح من كل ظلم ألحقه بكم الآغا قوبلاي وجنوده. .

صاح عثمان رزة:

ـ أحسنت الكلام يا أمير بيبرس.

بينما وثب عليوة الفار ليقف في الصفوف الأمامية وقال:

ـ كلام . . مجرد كلام . . ولكني أخشى أن نسمعه فيضيع ما حققنا حتى الآن . .

ابتسم بيبرس، ورفع يده يسكت اللغط الذي أثارته كلمات عليوة الفار وقال في هدوء:

ـ ليس ما أقوله مجرد كلام يا معلم، ولكن كيف يمكن أن نضع الأمور في نصابها ونحن وقوف هنا أمام السراي وأمامنا الهانم وسيدات الحي وأبواب القصر يغلقها آغا الحرس ويقف وراءها برجاله وسلاحه . .

صاح عليوة الفار:

ـ أبواب السراي نحطمها وندخل.

صاحت زينب التي اندفعت لتقف إلى جوار الهانم.

ـ لن يحطم أحد من أولاد الحسينية أبواب السراي . . هذا بيت الهانم سترت عرضي، وأكرمتني وأكرمت كل نساء الحسينية، ومن اعتدى عليها اعتدى علينا كلنا . .

قال الشيخ زكي:

ـ اهدئي يا زينب، لن يمس أحد حرمة امرأة في حينا أبداً، والست شهوة هانم في حماكن فهي في حمانا كلنا . . . ولكن الآغا لاذ معه الجند والعسكر والعبيد ولو تركناهم الآن لعادوا علينا حين نتفرق بالعقاب والأذى.

صاح عليوة الفار:

ـ هكذا يكون الكلام ، صدقت يا شيخ زكي ، ليخرج الآغا لاظ ورجاله دون سلاح وساعتها نسمع لمن يريد أن يتكلم .

وقال شعبان أبو ضفر:

ـ وقت الكلام انتهى ، أما أن يخرج الآغا ورجاله وأما أن نقتحم القصر.

صاحت زينب:

ـ حتى على من فيه من النساء.

قال شعبان أبو ضفر في ضيق:

ـ ما الذي أدخل هذه الطفلة في هذه القضية، مالك أنت وما نفعل.

وقال عثمان رزة:

ـ يا أمير بيبرس، ما يقوله الرجال صواب، يستسلم الآغا لاظ، ولن يدخل أحد منا القصر بل سنتركه لمن فيه، على ألا يبقى فيه جندي مسلح واحد.

التفت بيبرس إلى البندقداري وقال:

ـ ماذا قلت في هذا يا أمير:

قال البندقداري :

ـ كلامهم معقول.

ثم صاح :

ـ أين لاظ آغا، أظهر يا أمير لاظ وعليك الأمان مني . .

وعند الباب الجانبي ظهر لاظ وحده دون سلاح وقال:

ـ أنا هنا منذ البداية يا أمير نجم الدين، وسمعت كل ما قيل.

قال نجم الدين البندقداري:
ـ وما رأيك..
قال لاظ آغا:
ـ أنا منذ الأصل أرى أن الآغا قوبلاي قد أثار الناس دون داع، فلا علاء الدين خائن ولا الشيخ يحي الشماع والأسطى عقيرب يتعاملان مع الفرنجة ولا أحد في الحسينية كلها يعرف أحداً من الفرنجة أو رآه طوال عمره..
ارتفعت آهة استحسان ودهشة من كل الواقفين داخل السراي وخارجها وتقدم، بيبرس قليلاً ناحية لاظ آغا وهو يقول:
ـ أتعني حقاً ما تقول؟
وقبل أن يجيب لاظ آغا صاحت الست شهوة هانم من مكانها:
ـ أنت تخون سيدك ورئيسك قوبلاي آغا بهذا الكلام يا آغا الحرس.
وفجأة ظهرت مرجانة إلى جوارها ووضعت يدها على كتفها وهي تقول:
ـ لا مكان لك يا هانم عند باب السراي.
والتفتت إلى النساء الأخريات وهي تقول:
ـ ولا لكن أيضاً يا هوانم.
وقالت الشيخة زهيرة
ـ صدقت يا ست مرجانة، الأمر الآن متروك للرجال ووجودنا لن يزيد الأمر إلا سوءاً واضطراباً.
صاحت زينب:
ـ بل لنا مثل ما لهم من الأمر يا ست الشيخة..

وقالت شهوة هانم في اندفاع:

ـ يعود قوبلاي آغا أولاً وقبل أي كلام.

قالت الشيخة زهيرة:

ـ أدخلي يا هانم وسيعود لك زوجك سالماً، لسنا قتلة، وليس فينا من يريد به الشر.

ثم التفتت إلى زينب:

ـ وادخلي يا زينب يا ابنتي فلا يليق بالحرائر أن يقفن هكذا أمام الناس.

ثم صاحت في النساء من حولها:

ـ ادخلوا يا ستات إلى داخل السراي واتركو الأمر في أيدي الرجال.

صاحت شهوة هانم وهي تقاوم مرجانة التي أخذت تدفعها برفق إلى داخل السراي:

ـ حاذر يا لاظ آغا مما تقول فسأحاسبك ويحاسبك الآغاعليه كلمة كلمة.

واختفت في داخل السراي ومرجانة تدفعها في رفق، ووراء زينب والست حفيظة والست نعيمة يدفعانها في شيء من العنف، ثم تبعتهما باقي النساء، والتفت الشيخ زكي إلى لاظ آغا قائلاً:

ـ أنا لا يدهشني حديثك يا أمير لاظ فقد عرفناك في الحسينية عارفاً بحالنا شفوقاً بنا،

ولكنك اليوم كنت على رأس الرجال الذين. . .

قاطعه لاظ آغا قائلاً:

ـ كل ما حدث في الحسينية هذه الأيام لا دخل للحرس ولا رجال السراي به، فهذا فعل الأمراء الذين استجلبهم الأمير قوبلاي وكانوا يتلقون أوامرهم منه، أما ما حدث اليوم فهذا واجبي يا سيدنا الشيخ، وسواء أوافق أو لا أوافق عليه فلا بد لي أن أؤديه..

قال عثمان رزة:

ـ إذن تستسلم لنا أنت ورجالك..

ابتسم لاظ آغا ابتسامة مريرة وهو يقول:

ـ أموت أنا ورجالي قبل هذا يا معلم عثمان..

فقال الشيخ زكي:

ـ ولكنك تموت هكذا هدراً يا أمير لاظ..

قال بيبرس:

ـ هذه مسألة من الصعب عليك أن تفهمها يا مولاي الشيخ، فالأمير لاظ جندي يعرف واجبه ولا بد له أن يؤديه، ولا دخل لرأية فيما يفعل.

قال شعبان أبو ضفر:

ـ الرجل يتكلم كلاماً معقولاً وسليمًا، ثم فجأة يريد أن يموت هدراً ويميت منا قبل أن يموت من سيقعون تحت سلاحه هدراً أيضاً..

قال بيبرس:

ـ الأمير لاظ لن يسلم سلاحه لكم يا معلم..

قال لاظ في مرارة:

ـ ولا لك يا أمير بيبرس، ولا لسيدي الأمير البندقداري، «أنا لا

أسلم سلاحي إلا لآغا الحسينية لقوبلاي نفسه. .

وهنا صاح صوت جهوري من خارج الدائرة المتحلقة:

ـ ولا لمولاك الملك يا آغا الحرس. . ؟

والتفت الجميع ليجدوا في مدخل الساحة الكبرى التي تؤدي إلى السراي موكباً فخماً مهيباً يتوسطه فارس وقور المنظر، فاخر الملبس ووراءه بخطوات ثلاثة من الفرسان الفاخري الثياب والجياد ووراءهم عدد ضخم من الفرسان الشاكية السلاح. . وقبل أن يفيق أحد من الموجودين من ذهوله ارتفع صوت عباده من بعيد يقول:

ـ جاء الوقت يا صاحب الوقت، وجاء صاحب الوقت يا أهل الوقت، تكون نار تصبح رماد لها رب يدبرها. . وحدوه. .

ودون وعي ارتفع من كل الرجال المتحلقين حول السراي ترددهم لكلمة عبادة الآمرة. .

ـ لا إله إلا الله.

ووسط الصمت والوجوم الذي ساد الجميع، تقدم الملك الصالح أيوب بجواده ووراءه الآغا شاهين والأمير فخر الدين بن حموية والأمير أقطاي ليقفوا في المكان الذي خلا لهم بسرعة البرق بين المتجمهرين والسراي.

وهمس شعبان أبو ضفر:

ـ أليس هذا هو الأمير فخر الدين بن حموية؟

همس حميد الدين:

ـ هو بنفسه.

وقال صيام لعوض الفران:

ـ هذا أمير الصالحية البحرية الأمير أقطاي .

وقال عليوة الفار:

ـ والآغا شاهين وزير الملك.

ورفع الملك يده فساد الحي كله صمت كامل وقال:

ـ يا آغاالحرس، ما قلته وفعلته الصواب فهل تسلم سلاحك لي . .

تقدم لاظ آغا إلى الأمام وهو يشير بيده فانفتح باب السراي الجانبي وخرج الحرس والجنود والعبيد بسلاحهم ، وعاد يشير إليهم فتقدموا ليقفوا خلفه ، ثم تحرك وهم وراءه إلى حيث يقف الملك وقال :

ـ مولاي أنا جندي من جنودك، وهذا سيفي أضعه تحت قدمك .

ثم انحنى وهو يضع السيف تحت أقدام جواد الملك ، بينما فعل جنوده كما فعل فوضعوا سلاحهم على الأرض أمامهم ، ثم تراجعوا بإشارة من لاظ آغا بعيداً عن سلاحهم وبنظام كامل . . .

ودار الملك الصالح بجواده ليواجه الشيخ زكي ، وجعل ينظر إليه لحظات ثم قال:

ـ أنت الشيخ زكي شيخ زاوية الحسينية يا مولانا.

قال الشيخ زكي في هدوء ووقار:

ـ أنا هو يا مولانا الملك الصالح نجم الدين أيوب، يا من طاعته واجب يفرضه أمره تعالى أن نطيع أولي الأمر منا . .

ابتسم الملك الصالح وهو يقول:

ـ وصلتني رسالتك يا شيخ زكي مع من تعرف أنت وأنا، وها أنا أهب إليك لأنصر مظلوماً وأحق الحق في الحسينية كما هو واجب الملك الذي يأمره ربه بأن يحكم بالعدل. .

صاح الشيخ زكي منفعلاً:

ـ أطال الله عمر السلطان. .

وارتفعت أصوات أولاد الحسينية كالهدير تهتف بحياة السلطان العادل الملك نجم الدين الصالح أيوب. .

ومن وسط المجاميع تقدم الشيخ أبو المكارم بخطوات وقورة ورفع يده قائلاً:

ـ أدام الله عز الملك الصالح، إسمع مني ما أقول، لهذا اليوم يوم آخر تنصر فيه المحروسة كلها بسيفك وعزك، ويقع فيه غريمك تحت يدك وسيفك، ولينصرك الله يا حامي المحروسة وحامي الإسلام. .

ومن جديد ارتفعت الهتافات من الحناجر المتحمسة، بينما رفع الملك الصالح يده فصمت الكل وعاد ينظر إلى الشيخ زكي ويقول:

ـ أأمر الرجال أن يحضروا الآغا قوبلاي والمماليك الذين أسرتموهم، واحضروا أيضاً من اعتقلهم الآغا قوبلاي وأراد جلدهم، واختر من عندك رؤساء القوم ولنعقد جلسة في قاعة السراي لينتهي هذا الأمر من جذوره ولنحق الحق ونرفع كل الظلم. .

والتفت الشيخ زكي يشير بيده إلى الشيخ أبو المكارم ومحمود المصارع والمعلم شعبان أبو ضفر وعثمان رزة وعليوة الفار، الذي هز رأسه قائلاً:

ـ اعفني أنا يا شيخ زكي ، لقد جئت وأديت دوري ، ثم اذهب كما جئت . .

وقبل أن يجيبه الشيخ زكي ارتفع صوت عبادة من جديد صائحاً :

ـ يا جعيدي النار حامية يا جعيدي . . تكون نار تصبح رماد لها رب يدبرها مدد يا مبرقعة يا أم الأنوار . . مدد يا رفاعي مدد . .

ثم كلمته الممطوطة الطويلة . .

ـ وحدوه . .

وردد الجميع وراءه كلمة (لا إله إلا الله) بينما توارى عليوة الفار ورجاله بين الرجال المحتشدين وبينما أخذ الملك ومن معه سمته نحو باب السراي .

* * *

ـ ٧ ـ

فتح الشيخ يحي الشماع دكانه في المساء ، وتضافر حميد الدين وكريم الدين وصيام وعوض الفران وعليوة وأبو سريع على تنظيفها ، وإعداد العرقسوس والعلى لوز للجموع المحتشدة التي أخذت تتوارد على الدكان تهنىء الشيخ يحي الشماع بالسلامة وتشرب شربات الفرح بنجاته والمعلم عقيرب ، وفي صدر الدكان جلس الشيخ يحيـي الشماع وإلى جواره المعلم عقيرب يتلقيان التهاني بينما أخذ

فتيان الحسينية يمرون بالصواني والأكواب على الجالسين. . وقال عم داود السروجي:

ـ من كان يظن أن الأمر سينتهي على خير.

قال الأسطى شلضم:

ـ حمد الله على السلامة. . نحن ناس على باب الله يا عم داود، وعلى قدر ضميرنا أعطانا المطلع على القلوب والضمائر. .

ودخل المعلم شعبان أبو ضفر ومعه هريدي ومكادي، فحياه الجالسون وأفردوا له ولمن معه مكاناً وما أن جلس حتى قال له الشيخ يحيي الشماع:

ـ خير يا معلم هل انتهت جلسات الملك في السراي؟

قال المعلم شعبان:

ـ أصدر أوامره أن يعزل قوبلاي آغا من الحسينية.

صاح حميد الدين وسط ضجة وصيحات الجالسين الذين بدأو يلتفتون إلى حديث المعلم شعبان:

ـ الحمد لله. . أنصف وفعل خيراً.

واستأنف المعلم شعبان حديثه فقال:

ـ وأمر بحبس الشلبي قيمق قاتل علاء الدين وأن يصحبه إلى القلعة في الروضة لعقابه بعد محاكمته على جريمته. .

صاح كريم الدين. .

ـ يحيا العدل، هكذا يكون كلام الملوك. .

وصاح أبو سريع:

ـ والشلبيان الآخران يا معلم شعبان. .

قال المعلم شعبان:
ـ لا ذنب لهما يا أبو سريع، وقد ضمهما إلى الصالحية البحرية ووضعهما تحت إمرة بيبرس.
وصاح عليوة:
ـ والشناوي يا معلم، والجعيدي والنادي..؟
قال المعلم شعبان:
ـ ترك أمرهم لنا، إن شئنا عاقبناهم وإن شئنا تركناهم.
قال الاسطى شعبان:
ـ كفى ما جرى للشناوي أما الجعيدي والنادي فلن نراهما بعد الآن في الحسينية أبداً..
واستمر المعلم شعبان أبو ضفر يقول:
ـ ولن يعاقب أحد منا أو من كل أولاد الحسينية.
صاح صيام:
ـ يعاقب، ولماذا نعاقب يا معلم، نحن أصحاب حق ولم نفعل إلا ما هو حق لنا.
ومن عند النصبة صاح الأسطى شلضم:
ـ والضرائب الجديدة التي فرضها قوبلاي آغا..
وصاح لصياحه عم داود السروجي الذي أكمل قائلاً:
ـ نعم ضريبة الدفاع والجهاد والأمن..
قال المعلم شعبان:
ـ كلها الغيت يا بلديات.
صاح عوض الفران في حماس:

ـ يحيا العدل.

بينما قال الشيخ يحي الشماع.

ـ العدل حلو يا أولاد. . هات العرقسوس يا كريم الدين للمعلم ومن معه، واسرع. .

قال الأسطى عقيرب:

ـ اليوم يوم ناد يا رجال على الحسينية كلها. .

قال الشيخ يحيى:

ـ وعلى حارة على لوز ودكاني الذي جبرني الله بفتحه من جديد. .

قال الأسطى عقيرب:

ـ من كان يظن أن الشيخ زكي له كل هذه الهمة، والله رجل ولا كل الرجال.

قال المعلم شعبان:

ـ ذكرتني يا أسطى عقيرب، أمر الملك أن يتكون مجلس يحكم الحي من الشيخ زكي والشيخ أبو المكارم وعثمان رزة ومحمود المصارع واختارني معهم. .

صاح كريم الدين. .

ـ نعم الإختيار يا معلم، أنصف الملك والله.

وتعالت الصيحات كل يهنىء الآخر، وكل يعلق على هذه الأخبار التي ملأت قلوب الجميع بهجة وفرحاً بينما قال صوت هادىء من عند باب الدكان:

ـ وهل ستظل الحسينية بلا آغا يا معلم شعبان؟

وصمت الجميع، وتلفتت كل الرؤوس إلى المدخل حيث وقف علیوة الفار وإلى جواره سيد الساكت وخلفهما مجموعة من رجالهم، في وجوههم تقطيب ونظرة عابسة، وهب الشيخ يحي الشماع واقفاً وهو يسرع نحوهم محيياً ويقول:

- مرحباً بالمعلم عليوة الفار ورجاله، أصحاب الشهامة والنجدة، تفضل يا معلم عليوة..

قال عليوة الفار وهو واقف في مكانه لا يتحرك..

- سألت المعلم شعبان أبو ضفر سؤالاً أريد عليه جواباً يا شيخ يحي

وقال الأسطى عقيرب من مكانه في صدر الدكان:

- نعم كلنا ننتظر الإجابة يا معلم شعبان:

قال المعلم شعبان:

- عين الملك أيوب، نجم الدين البندقداري آغا للحسينية.. والأمير بيبرس آغا للحرس، أما الأمير لاظ فقد ضمه إلى حرسه الخاص.

قال المعلم عليوة الفار:

- كل ما فعلناه هو أننا أخرجنا آغا ليأتي آغا..

قال الشيخ يحي الشماع:

- وهل كان يمكن أن يترك الملك الحسينية دون آغا..؟

قال المعلم عليوة الفار:

- وهو هذه المرة آغا من أغوات الصالحية البحرية.

وهنا قال الأسطى عقيرب في مرارة:

- صدقت يا معلم، ما كان دم علاء الدين، ولا الإهانات التي

احتملتها أنا والشيخ يحي الشماع إلا لكي نحقق أطماع البندقداري الذي كان يريد هذا المكان من زمن . .

قال عليوة الفار:

ـ وساعدناه نحن، وعثمان رزة مشدود رجله بيبرس فيما أراد . .

قال الشيخ يحي الشماع وهو يلوح بيديه في استنكار:

ـ ما هذا الكلام يا معلم عليوة، هل كان الآغا قوبلاي يريد لنفسه ما حل به، هو الذي فعل بنا ما أرغمنا على الوقوف في وجهه هو وحده المسؤول، وهذا كما تعرف وأعرف ويعرف الكل فعل قوبلاي آغا، فما كان البندقداري ولا بيبرس يعرفان أن شيئاً من كل هذا حدث، وحين أرسل الشيخ زكي الفتيان لإحضار أبناء الحسينية القادرين على مواجهة الآغا وأنت منهم لم يكن يخطر ببال أحد أن النبدقداري يطمع في مكان قوبلاي . .

هز عليوة الفار كتفيه في استخفاف وقال:

ـ النتيجة هي التي تهم يا شيخ يحيى . .

قال الأسطى عقيرب:

ـ النتيجة هي أننا عاقبنا الظالم وطردناه.

قال عليوة في حرارة:

ـ ليحل محله ظالم جديد.

صاح الشيخ يحيى الشماع في اندفاع:

ـ نحن لم نجربه بعد لنعرف إن كان ظالماً أو غير ظالم . .

وقال الأسطى عقيرب:

ـ وإن ظلمنا فعلنا به ما فعلناه بالذي سبقه . .

قال عليوة الفار:

ـ وماذا فعلنا بالذي سبقه يا أسطى عقيرب. . لم نفعل شيئاً، فالآغا هو الآغا، مرة من بلاد الشرق ومرة من بلاد الشمال ومرة من بلاد الثلوج التي تغطي الجبال ومرة من بلاد الشمس تحرق أديم الصحراء. . ولكنه آخر الأمر آغا. .

همس الأسطى عقيرب:

ـ صدقت يا عليوة، إن ذهب آغا، جاء آغا. . والآغا هو الآغا. . وكأنا ما فعلناه شيئاً

قال الاسطى شلضم من وسط الصمت الذي احاط بالجمع المحتشد كله.

ـ كأنا يا بدر لا رحنا ولا جينا.

قال عم داود السروجي في هدوء.

ـ الأسطى عليوة الفار يريد أن يغير الكون، ولن يغير الكون إلا صاحب الكون ويوم يريد لن يبقى آغا ليحكم الحسينية، ولكن حتى يريد لا بد من آغا يخلف الآغا. .

صاح عليوة الفار في غضب:

ـ لماذا، ألم نستطع أن نقهر الآغا، وان نأسر رجاله، وكدنا نوشك ان نستولي على السراي، الم يقع الآغا أسيراً في يد محمود المصارع يتخبط بين ذراعيه كالطفل العاجز. . لماذا؟

أجابه صوت هادىء لم يلحظ أحد اقتراب صاحبه وسط الحوار الحاد والضجة التي صاحبته قائلاً:

ـ لقد وقفنا صفاً واحداً يا عليوة يا فار، فنجحنا،والآن لا ينبغي

أن نختلف فنتفرق من جديد . .

وأمامهم كان الشيخ زكي يتحرك في هدوء، وإلى جواره الشيخ أبو المكارم وعثمان رزة.

قال عليوة الفار:

ـ لقد أصبحتم أعضاء مجلس وقادة وذوي نفوذ في الأمر يا شيخ زكي . .

صاح عثمان رزة:

ـ أنت لا تتهمنا بـ . . .

أوقف الشيخ زكي اندفاع عثمان رزة بإشارة من يده وقال:

ـ لقد سميناك معنا ولكنك لم تأت.

هز عليوة الفار كتفيه وقال:

ـ لا مكان لي في مثل هذا المجلس، لست من الذين تحركهم هزة من لحية الآغا، ولا إشارة من أصبعه، ولم أستبدل بعد حب الحسينية بحب كل آغا جديد . .

كاد عثمان رزة يندفع نحو عليوة الفار وشرارة الغضب تظهر في عينيه لولا أن أمسكه الشيخ زكي في حزم وهو يقول:

ـ لن نتعارك فيما بيننا أبداً . .

وقال المعلم شعبان أبو ضفر، وهو يقف في مواجهة عليوة الفار . .

ـ أنت تتهمنا كلنا يا عليوة يا فار . .

ابتسم عليوة الفار وهو يقول في هدوء:

ـ أنا لم أتهم أحداً .. أنا أتحدث عن نفسي، وأقول أنني حين طلبتني الحسينية جئت، ولكن حين يطلبني مجلس الآغا لن أجيء . .

صاح عثمان رزة في انفعال:
ـ ومن قال أننا نحتاج إليك. . ؟
صاح الشيخ زكي:
ـ كفى، كفى، قلنا لا عراك بيننا.
بينما ارتفع صوت الشيخ أبو المكارم الوقور يقول:
ـ نحن قبلنا أن نكون في المجلس لنحفظ حق الحسينية، يا عليوة لا لنكسب من وراء المجلس ما نحن في غنى عنه. .
قال عليوة الفار:
ـ لست أتحدث عنكم أنا أتحدث عن نفسي، وأنا سأمضي كما جئت. . أما أنتم فلكم حيكم ومجلسكم والآغا. .
قال الشيخ أبو المكارم:
ـ نحن في حاجة إلى الآغا وكل الأغوات لصد الفرنج عن أرض الإسلام يا عليوة. .
قال عليوة الفار وهو يلوح في ضيق:
ـ كما وقفنا للآغا نقف للإفرنج، ومن حمى نفسه من الآغا يحمي نفسه من الإفرنج. .
قال الشيخ أبو المكارم:
ـ الأغوات مسلمون مثلنا. .
أشار عليوة الفار إلى السيد الساكت والرجال أن يتبعوه وقال وهو يستدير لينصرف:
ـ بلادهم المسلمة أولى بهم. . ونحن أولى ببلادنا المسلمة. .
قال الشيخ زكي:

ـ اتحاد المسلمين قوة يا عليوة يا فار.

قال عليوة في مرارة وهو يتحرك بعيدا عن الدكان..

ـ والمسلمون سواسية يا سيّدنا الشيخ، ولا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى.. والآغوات لا يتقون ولا يصونون ذمة ولا مالاً..

ثم نظر إلى الجمع الذي يحدق فيه وقال:

ـ لن تتعبوا من التجربة، ولن تستفيدوا أبداً من التجربة..

ثم مضى، وتحرك عثمان رزة ناحيته ولكن يد الشيخ زكي القوية أبقته في مكانه وحين اختفى في آخر حارة على لوز، بدأ الجالسون في الدكان يتحدثون جميعاً في وقت واحد.. وصاح الشيخ يحيى الشماع:

ـ العرقسوس يا كريم الدين، وأسرع بأطباق العلى لوز.

وفي ركن الدكان قال أبو سريع لعليوة:

ـ أنا ذاهب.

همس عليوة:

ـ أين؟..

قال أبو سريع:

ـ لألحق بعليوة الفار فهو على حق.

قال عليوة:

ـ هو يعيش مطارداً من كل الناس، ومكروهاً من أغلب الناس..

قال أبو سريع:

ـ ولكنه لا يخضع لآغا، ولا يبحث عن أعذار لأخطاء الآغا.

قطع عليهما الحديث الهامس صوت المعلم شعبان أبو ضفر الذي عاد يقول:

ـ هل نهنىء العريس يا عثمان رزة..

ضحك عثمان رزة وهو يقول:

ـ نحن في انتظار رأي العروس يا معلم..

قال الشيخ أبو المكارم.

ـ أكدت لي الست أم فكيهة أن زينب ستوافق، وتعهدت أن تحصل على موافقتها قبل أن يحل الليل..

صاح الأسطى عقيرب:

ـ مبروك يا عثمان، زينب زينة البنات.

عاد عثمان رزة يضحك وهو يقول:

ـ ولماذا تباركلي أنا يا أسطى عقيرب، العريس سيحضر بعد قليل ليهنئك أنت والشيخ يحيى الشماع بالنجاة فهنئه بنفسك بالزواج..

صاح كريم الدين وقد تسمر في مكانه وصينية العرقسوس بين يديه:

ـ أي عريس تعني يا معلم عثمان؟

استمر عثمان رزة في ضحكه وهو يقول:

ـ ألم يقل الأسطى عقيرب أن زينب زينة الفتيات، هي إذن لا تتزوج إلا زينة الفتيان..

ضحك الأسطى شلضم ضحكة خشنة ساخرة وهو يقول:

ـ الآغا البندقداري فتى يا عثمان إن كنت تقصده؟

أسرع عثمان رزة يقول:

ـ من تحدث عن الآغا البندقداري يا أسطى شلضم، بل هو بيبرس زينة فتيان المحروسة..

صاح حميد الدين في دهشة..

ـ المحروسة ـ منذ متى وبيبرس هذا من فتيان المحروسة؟

وقال الأسطى شلضم:

ـ أنه لا يعرف كيف يتكلم العربية بغير لكنه، وهو لا يفهم ما يقال له حتى يعاد مرتين..

قال عثمان رزة:

ـ متد اليوم هو آغا حرس الحسينية.. وعندما يتزوج زينب يصبح واحداً من أبناء الحسينية ويصبح ابناؤه أولاد الحسينية..

صاح حميد الدين:

ـ ولكن زينب..

وقال الأسطى شلضم في سخرية:

ـ نعم الأبناء.

ولكز أبو سريع عليوة وهو يقول:

ـ الآن لا بد أن أدهب وأنضم ألى عليوة الفار..

قال عليوة:

ـ وأنا معك..

بينما كانا يغادران الدكان، ظهر محمود المصارع وكفتة البهلوان وعويس السعران وفي وسطهم يسير بيبرس مزهوا..

وسمعا وهما يغادران حارة على لوز صيحة محمود المصارع وهو يقول:

ـ مبروك على الحسينية كلها. . وافقت زينب على الزواج من زينا الفتيان حيوا معي عريس الحسينية الأمير بيبرس. .

وقال أبو سريع لعليوة:

ـ إسرع بنا وإلا عدت وجعلت من ليلتهم ليلة سوداء. .

قال عليوة:

ـ لست أرى أثراً لعليوة الفار أو رجاله. .

قال عليوة:

ـ ذهب ألى بولاق ونحن في.

وقبل أن يكمل كلماته، سمع الإثنان وقع أقدام تتبعهما مسرعة، وحين وقفا والتفتا وراءهما وجدا عوض الفران وصيام النجار يسرعان خلفهما. . وقال صيام وهو يقترب منهما:

ـ لقد سمعنا ما قلتماه في الدكان ونحن معكما. .

قال أبو سريع:

ـ أتفهم معنى هذا يا صيام. . حياة خارج احترام المشايخ والآغوات والأعيان. .

قال عوض الفران:

ـ لقد عشت معه ليلة لا أنساها، وأنا معكما.

قال عليوة:

ـ ولكن صيام. .

قال صيام:

ـ سأذهب معكما.

قال أبو سريع:

ـ وأبوك. . الشيخ زكي يا صيام؟
قال صيام:
ـ هو اختار المجلس، وأنا اخترت عليوة الفار.
وفجأة ارتفعت الزغاريد من دوار المناديلي فوقفوا يتبادلون النظرات في صمت واندفع أمامهم عم أحمد الفوال وهو يصيح:
ـ زينب خطبت للامير بيبرس، زينب خطبت للامير بيبرس
واستوقفه أبو سريع وهو يقول:
ـ إلى أين يا عم أحمد يا فوال. .
وقف عم أحمد الفوال أمامهم وكل جسده يهتز انفعالاً وقال:
ـ الست حفيظة تزغرد والست نعيمة توزع الشربات والست أم كيهة ترقص والست أم سلامة تطبل والشيخة زهيرة ترقي لعروس. .
قال له أبو سريع:
ـ ولكن أنت إلى أين؟
قال عم أحمد الفوال وهو يلتفت حوله في حيرة. .
ـ لست أدري. .
ضحك صيام وهو يقول:
ـ كل هذا الإنفعال ولا تدري؟
قال عم أحمد الفوال:
ـ سأذهب إلى الفراخة لأعد قدرة الفول وإلا فلن أستطيع وقوف بها في الصباح.
وهرول منصرفاً، ثم وقف فجأة والتفت إليهم وهو يقول:

ـ لكم خق العروسة للعريس، ومالنا نحن يا متاعيس. .

ثم ضحك ضحكة لا معنى لها، ومضى مهرولاً، واستأنف الأربعة سيرهم في وجوم، وحين اقتربوا من بيت الحاج محمد أبو الأنوار ارتفع فجأة صوت صراخ حاد وعويل، ووصل إليهم صوت الحاجة بهية وهي تولول. .

ـ يا سبعي يا جملي، كان بدري يا حاج، يا ضياعي بعدك يا سبع الرجال. .

ووقفوا من جديد يتبادلون نظرات الحيرة والدهشة، بينما انفتح باب منزل الحاج محمد أبو الأنوار واندفع مصيلحي خارجاً وهو يبكي ويصرخ ويجري، واعترض عوض الفران طريقه وهو يقول:

ـ ماذا حدث يا مصيلحى؟

صاح مصيلحى وهو يبكي ويلطم ويصرخ:

ـ أبي مات. . الحاج محمد أبو الأنوار مات. . مات. . مات. .

أمسكه أبو سريع من كتفه بعنف وصاح فيه:

ـ كيف ومتى يا مصيلحى؟

كف مصيلحى عن صراخه وبكائه ونظر إلى الوجوه المتحلقة حوله ثم قال:

ـ مات، فقط مات، وأمي تولول حوله، والدار كله يصرخ أنه مات، وأنا ذاهب لإحضار الأسطى رجب المناشفي ليغسله. . هل رأى أحدكم الأسطى رجب المناشفي؟

قال صيام:

ـ تجده في الحمام يا مصيلحى. . البقية في حياتك.

وقال عليوة:

ـ المصيبة في الحاج أبو الأنوار مصيبة الحي كله..

لم يسمع مصيلحى ما قاله عليوة، وإنما اندفع صارخاً يسبقهم جرياً إلى الحمام وهو يردد في ذهول:

ـ مات، فقط مات، ابي مات.. مات.

وسرغان ما تركهم في وقفتهم الذاهلة وغاب عنهم مسرعاً

وقال عوض الفران:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، فرح في ناحية، ومأتم في ناحية..

هز عليوة رأسه وهو يقول:

ـ هي الدنيا يا عوض، شيء يموت وشيء يولد..

ضحك أبو سريع ضحكة جافة وهو يقول:

ـ هل تعلمتم الحكمة يا فتيان.. لنترك الدنيا تفعل ما تريد بمن تريد ولكن لنسرع لنلحق بالمعلم عليوة الفار.

ولم يجبه أحد، فقط أسرعت الخطوات في صمت، ومن خلفهم ينبعث صوت الزغاريد من حارة على لوز، وأصوات الصراخ من دار الحاج محمد أبو الأنوار، وهم يتركون وراءهم دور الحسينية وحواريها متجهين مسرعين ناحية الخليج، وحين اقتربوا من الحمام برز الأسطى رجب المناشفي يسير مهرولاً وراء مضيلحى وهو يضم مجموعة من المناشف إلى صدره، وحين رآهم وقف أمامهم يتفرس فيهم واحداً واحداً ويقول:

ـ ألم ير أحدكم حميد الدين.. أين حميد الدين، أنا أريد حميد الدين..

قال مصيلحى وهو يكاد يصرخ كلماته:

ـ أبي مات، أسرع يا أسطى رجب يا مناشفي، أبي مات..

بينما قال أبو سريع:

ـ حميد الدين في دكان الشيخ يحي الشماع يساعد كريم الدين في خدمة الزبائن..

ولول الأسطى رجب المناشفي ولطم خديه ووقعت المناشف من بين يديه وهو يصيح:

ـ ماذا أفعل في هذا الولد، مرة يشتغل سايساً في الإسطبل، ومرة يشتغل شربتلياً في دكان الشربتلي، ونسيني ولم يعد يعرف أنني الأسطى الذي يجب أن يطيعه ويسمع كلامه.. آخر زمن..

صاح فيه مصيلحى:

ـ أسرع يا أسطى رجب أبي مات، الحاج محمد أبو الأنوار مات..

قال الأسطى رجب المناشفي وهو يلملم ما وقع من يده من مناشف:

ـ سأسأله الآن هل أفتح الحمام أم أغلقه لا بد أنه عرف من الآغا ما يريد، هل أفتح الحمام أم أغلقه؟

ومضى يجري ووراء مصيلحى بينما التفت عوض الفران إليهم قائلاً:

ـ هل جن الرجل؟

قال أبو سريع:

ـ اختلطت عليه الأشياء..

قال عوض الفران:

ـ له حق، كل الأشياء اختلطت.
قال عليوة:
ـ ولكن الأسطى رجب المناشفي لا يتكلم كلام العقلاء..
قال صيام:
ـ الله يلطف به، مالنا وماله، هيا بنا نستمر في طريقنا إلى بولاق.
قال أبو سريع؛
ـ الكل لاهون عن موت الحاج محمد أبو الأنوار، أليس هذ غريباً، لقد كان الحاج محمد أبو الأنوار مليء الحسينية، وكان هو الذي يعرف أمورها ويتوسط لحاجاتها ويشارك الآغا في كل مكاسبها..
قال عليوة:
ـ مات مع ضياع قوبلاي، أحسن صنعاً وعرف متى يموت، فماذا كان يفعل من غيره.
ضحك صيام وقال:
ـ الآغا الجديد يريد حجاجاً جدداً، وسيجد.. ترى من الذي سيصبح الحاج محمد أبو الأنوار من جديد؟
قال عوض الفران:
ـ كل شيء في الحسينية تغير.
قال أبو سريع:
ـ نحن فقط الذين لم نتغير.
ثم استدرك قائلاً:
ـ نحن وعليوة الفار.

ضحك صيام ضحكة عصبية وهو يقول:
ـ الخارجون عن كل عرف وقانون.
قال أبو سريع:
ـ فتوات الحسينية، يتعلمون في مدرسة فتوات بولاق.
استمر صيام في ضحكه العصبي وهو يقول:
ـ ويوماً سنعود إلى الحسينية حين تحتاجنا، حين تنسى مجدها وأنها صاهرت آغا الحرس.. وإنها مشاركة في مجلس آغا الحسينية..
قال عليوة:
ـ بقي أن نسرع لكي نلحق بعليوة الفار وسيد الساكت.
قال عوض الفران:
ـ ونعم الرجال، هيا بنا فلم يعد لنا في الحسينية شيء..
صهل جواد فالتفت الكل إلى حيث جاء الصوت، وقال أبو سريع:
ـ نحن عند الإصطبل ولا ندري؟
ومن ناحية الإصطبل برز عنتر يقود حصانه يجر عربته العريقة التي تزيق وتصرخ مع كل حركة، ونظر إليهم نظرة بلهاء لا معنى لها، ثم ابتسم وقال:
ـ أعيد الحصان إلى الإصطبل فقد خرج منه الشلبية، وغدا لا بد من أن أسرجه إلى العربة، فعندي حمولة هامة في فم الخليج لا بد من إحضارها..
ثم مضى مسرعاً ووقع حوافر جواده يملأ الجو حوله، ثم صهل الجواد واختفى الإثنان داخل الإصطبل فقال عليوة:

ـ هذا رجل لم يعرف شيئاً ولم يشاهد شيئاً ولم يصنع شيئاً.
ضحك أبو سريع وهو يقول:

ـ من ظل في الحسينية عليه ألَّا يعرف شيئاً وألَّا يشاهد شيئاً ثم أيضاً عليه ألا يصنع شيئاً.

صاح صيام:

ـ هيا بنا..

وأسرع الجميع في سيرهم، كأنهم يخافون أن يعوقهم شيء خارق يمنع سيرهم، ويحول دون بلوغهم الهدف الذي يريدون.. وعند حافة الصحراء التي تحيط بالحسينية طالعهم شبح غريب يسبقهم في سيرهم..

قال عوض الفران:

ـ أقسم أن هذا هو عبادة.

قال صيام:

ـ تركنا عباده في الحسينية فما الذي جاء به إلى هنا؟

قال أبو سريع وهو يدقق النظر في الجسد البعيد الذي يسرع الخطو أمامهم:

ـ بل هو عباده..

وفجأة وقف الشبح المسرع أمامهم، وصلب نفسه ورفع يده إلى السماء، وساد الصمت، وأخذوا يقتربون منه تدريجياً وهو صامت لا يتكلم، فقط يرفع يده بالعصا إلى السماء، وعيناه تتعلقان بمجهول هناك حيث لا يرى أحد شيئاً، وحيث لا يلمح أحد شيئاً، ألا هو.

وظلوا يقتربون منه في صمت حتى أصبحوا أمامه تماماً. . وفجأة التفت ناحيتهم وصرخ في وجوههم:

- يا جعيدي النار حامية يا جعيدي، تكون نار تصبح رماد لها رب يدبرها،

وقال عليوة:

- أقسم أنه يضحك. .

وقال عوض الفران:

- من غير قسم هو يضحك ويغمز بعينيه. .

وعاد عبادة يصرخ:

- مدد يا مبرقعة يا أم الأنوار مدد، مدد يا رفاعي مدد. .

وقال أبو سريع:

- هذا الرجل يغادر الحسينية مثلنا.

وقال صيام:

- وهو يغمز بعينيه كأنما يهزل. .

وصرخ عبادة:

- وحدوه. .

وكانت ساخرة، حزينة، مريرة، ووقفوا فجأة يحملقون في الجسد المعلق. . والوجه الساخر والعينين الهازلتين، وفجأة تحرك عباده مسرعاً فاختفى تماماً من أمامهم. .

وصاح صيام:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. .

قال عوض الفران:

ـ سبحان الله في أمرك يا صيام، أليس هذا من كنا نتبعه من حارة إلى حارة ومن زقاق إلى زقاق، ما أن يصبح حتى نقفز بحثاً عنه. .
قال صيام،

ـ لن يعود عبادة إلى الحسينية ياعوض أبداً، أدى دوره وراح. .
وساد الصمت بين الرفاق وهم يغادرون آخر المنازل في الحسيْنية ويدخلون في الصحراء التي امتدت أمامهم واسعة عريضة، يلوح في سمائها قرص شمس يغرب في بطء وهدوء. .

* * *

قبل الغروب بزمن جلس الأسطى شلضم على باب الإصطبل وإلى جواره عم عبده السروجي يخيط سرجاً جديداً في اهتمام وتفرغ، وقال الأسطى شلضم:

ـ ساكت أنت منذ زمن، ماذا في رأسك يا عم عبده. .
قال عبده السروجي:

ـ لا شيء يا أسطى شلضم، ما عشت فيه اليوم وأمس وأول أمس واليوم الذي سبقه جعل كل شيء ككل شيء. . .
قال الأسطى شلضم:

ـ لقد عاد الأسطى عقيرب إلى الإصطبل.
قال عم عبده السروجي:
ـ أسطى عقيرب آخر الذي عاد، صامتاً هادئاً لا يتكلم. . ألم تلحظ هذا يا أسطى شلضم. .؟

قال الأسطى شلضم:

ـ وكأنه ماعاد، أو كأنَّ إنساناً جديداً هو الذي عاد في مكانه.

قال عم عبده السروجي، وهو منهمك في عمله الذي وضعه بين يديه:

ـ وماذا يهم يا أسطى شلضم، كل منا يعود إلى عمله، والحياة تسير.

قال الأسطى شلضم:

ـ ولكن الأسطى عقيرب ليس كما كان.

قال عم داود السروجي:

ـ ومن منا عاد كما كان، كل شيء تغير، وكل إنسان فينا كبر. .

صاح الأسطى شلضم فجأة:

ـ أنظر يا عم داود.

ورفع عم داود نظره عن السرج الذي يخيطه وأمامه كان موكب من الفرسان يسير في هدوء وهو يخرج من الحسينية في خطو وئيد هادىء وقور، وأمامه فارس وقور فوق جواده المطهم سرجه مزين بالذهب والفضة والجوهر. . وهمس:

ـ هذا الملك الصالح يغادر الحسينية. . .

قال الأسطى شلضم:

ـ ووراءه الآغا قوبلاي، والآغا لاظ، وكل منهما منكس الرأس وحولهما الفرسان وخاصة الملك. .

تنهد عم دواد السروجي وهو يقول:

ـ دع الملك للمالك يا أسطى شلضم، لنا ما في أيدينا، ولهم ما في أيديهم

في صوت هامس قال الأسطى شلضم:

ـ صدقت يا عم داود يا سروجي، دع الملك للمالك.

قال عم داود السروجي وهو يطوي ما بين يديه، ويتحامل واقفاً:

ـ أدخل بنا يا أسطى شلضم إلى داخل الإصطبل حتى لا يرانا أحد.

التفت الأسطى شلضم في قلق ناحية الموكب القادم، ثم نظر إلى عم داود السروجي وقال:

ـ أتخشى شيئاً منهم..

قال عم داود السروجي وهو يتجه إلى داخل الاصطبل:

ـ الإحتياط واجب يا أسطى شلضم، من يدري ماذا في رأس هؤلاء الشلبية.

قال الأسطى شلضم وهو يتبعه إلى داخل الإصطبل:

ـ صدقت.. ندخل أسلم.. نعم ندخل إلى الإصطبل أسلم..

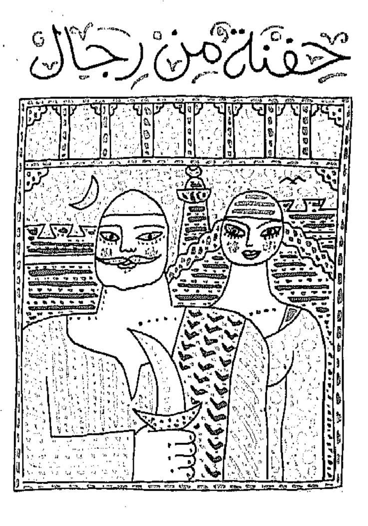
«فاروق خورشيد»

رقم الايداع ٠ ٨٩/٧٠٢٣
الترقيم الدولى : ٢ ـ ٣٨٦ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤

بيروت: ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣



الحسينية من أشهر أحياء القاهرة التى عرفها أهلها باسم المحروسة .. وعلى لوز حارة من حارات الحسينية يتوسطها دكان شريتلى يصنع حلوى العلى لوز والمثل الشعبى المصرى يقول إن الذى بنى مصر كان فى الأصل حلوانى ..

ومن أعماق التاريخ المملوكى لمدينة القاهرة تستدعى الرواية صور أولاد الحسينية ، وهم يتحولون تحت نير الظلم والعسف الذى تعرفه القاهرة فى حقب كثيرة من تاريخها من مجرد حرفيين وتجار إلى فتوات يدافعون بالقوة عن حقهم الذى يراد أن يسلب منهم بالقوة ، ويدخل اسمهم وحقبهم فى التاريخ كرجال يحملون السلاح للدفاع عن كرامة الحسينية وأهلها ونسائها .. فى نسيج يمتزج فيه التاريخ بعطر السير الشعبية ، ملامح حياة أولاد البلد فى مصر المحروسة التى تصبر ولكنها لاتستسلم لظالم أو مستعمر أو غاصب أبداً .

© دار الشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى ــ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ــ ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ ــ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ــ ٨١٧٧٦٥ ــ ٨١٧٢١٣